يحي بوعزيز

# الموجز في تاريخ الجزائر



## الجزء الأول

## الجزائر القديمة والوسيطة

ديوان المطبوعات الجامعية

الدكتور يحيى بوعزيز

# الموجز في تاريخ الجزائر

## الجزء الأول

## الجزائر القديمة والوسيطة

الطبعة الثانية

ديوان المطبوعات الجامعية

رقم النشر : 4.07.4071
رقم ر.د.م.ك.(I.S.B.N.) : 978.9961.0.1044.0
رقم الايداع القانوني : 2007/271

# بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة الطبعة الثانية

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب: «الموجز في تاريخ الجزائر» في ديسمبر 1965، عن دار المطبوعات الوطنية الجزائرية التي انحلت بعد صدوره بمدة قليلة. ونفذت هذه الطبعة في بحر العام الأول، ولم يتم إعادة طبعه بسبب إنشغالنا بإنجاز دراسات أخرى كثيرة تزيد على خمسة وعشرين كتابا، وتسعين مقالا تاريخيا موثقا، وبسبب تعقد وتعثر وسائل الطبع والنشر عندنا في هذه البلاد كذلك.

وقد مرّ الآن في نهاية 1995، على طبعته الأولى، ستة وثلاثون عاما ومع ذلك فموضوعه مهم ومطلوب من الدارسين، والطلاب، لكونه يغطي، وبإيجاز، غير مخل، مراحل تاريخ الجزائر إلى حملة الاحتلال الفرنسي عام 1830م.

ومن المناسب هنا أن أسوق ما حدثنا به الأخ الفلسطيني الدكتور ممدوح حسين الذي يعمل في شركة الخطوط الجوية الكويتية، حول هذا الكتاب عام 1986 بتونس خلال ملتقى تاريخي مغاربي. وقد إعتاد أن يقضي عطلته الصيفية بتونس، قال لنا وهو يسلم علينا ويرحب في أول لقاء وتعارف بيننا: «بينما كنت أستعد للعودة إلى الكويت بعد انتهاء عطلتي، اشتريت عددا من الكتب والمجلات لأتسلى بها في الطريق، ومن بينها كتابكم: «الموجز في تاريخ الجزائر»، الذي تناولته في بداية الرحلة، وبمجرد أن فتحته وشرعت في قراءته، أخذ بمجامع قلبي، بلغته، وأسلوبه، ومحتواه، ولم أضعه حتى أنهيت قراءته، فانشرح صدري وأدركت أن اللغة وحضارة العربية الإسلامية في الجزائر بخير، رغم ما كنا نسمعه من أن الاستعمار

الفرنسي قضى عليهما، وأن الشعب الجزائري مفرنس. ومنذ ذلك التاريخ لم يتأخر الأخ ممدوح حسين عن مكاتبتنا في كل سنة، ومناسبة. خاصة الأعياد الدينية حتى تم اجتياح العراق للكويت في يوم 2 أوت 1990 ولا ندري بعد ذلك مصيره. ونرجو الله له ولكل الفلسطينيين السلامة والعافية.

لكل هذا ولحاجة المكتبة التاريخية له، شرعنا في تنقيحه، وأعدنا صياغة عدد من فصوله خاصة: عهود: بني رستم وبني حماد، والمرابطين، والموحدين، وبني زيان والأتراك العثمانيين وأضفنا فصلا موسعا عن الأسطول الجزائري الذي كان يدعي «بأسطول دار الجهاد جزائر الغرب المحروسة»، وزودناه ببعض الخرائط والأشكال، وبيبليوغرافية موسعة في الأخير، فإرتفع حجمه وتوسعت مادته، ومحتواه، ويغطي مقياس الجزائر في العهد العثماني. بالجامعة، وكذلك مقياس الجزائر في العصر الوسيط.

وقدمناه للمؤسسة الوطنية للكتاب لتعيد طبعه من جديد بتاريخ 21 جانفي 1986م. وانتظرنا ثمانية أعوام كاملة. ولما فقدنا الأمل، حصلنا على نسخة أخرى منه لدى الطالب أحمد حمادي المستغانمي الذي كان يدرس.علينا في قسم التاريخ بشهادة الليسانس، وأعدنا النظر فيه من جديد، وأضفنا إليه تلك الزيادات والتنقيحات المشار اليها آنفا. وجعلناه من جزئين الاول في الجزائر القديمة والوسيطة والثاني في الجزائر الحديثة.

وها نحن نعيد الكرة من جديد، ونقدم هذه الطبعة الجديدة المنقحة والمزيد من كتابنا: «الموجز في تاريخ الجزائر» آملين من الله تعالى أن يجد حسن الاقبال والرواج المطلوب. وقد تولى ديوان المطبوعات الجامعية مشكورا طبعه ونشره هذه المرة، فله كل الشكر والتقدير.

والله يوفقنا إلى ما فيه الخير والفلاح.

وهران ــ حي جمال الدين

السبي 14 ربيع الثاني 1416هـ 9 سبتمبر 1995م

معهد التاريخ جامعة وهران

**د. يحي بوعزيز**

# تمهيد وتقديم

لكل شعب من الشعوب وضع ومكان خاص في مجرى التاريخ العالمي، ويحتل شعب الجزائر هو الآخر وضعه ومكانه في هذا التاريخ منذ القدم.

ولقد كان، وما يزال تاريخ الجزائر مليئا بالأحداث والخطوب التي ارتبطت بحياة شعبها البطل قرونا وأجيالا، صور من البطولات الرائعة، ومغامرات تاريخية في ميادين الاستشهاد والشرف، لكأن شعب الجزائر لم يخلق إلا للكفاح والجهاد، ولكأن أرض الجزائر العربية لم توجد إلا لتحتدم على أديمها معارك الفداء، والكرامة، والشرف. وعندما انطلقت من عقالها ثورة أول نوفمبر عام 1954م. تفجرت في الشعب الجزائري طاقات ثورية هائلة في كل ميدان أكسبته تجارب واسعة وخبرات أوسع خلال مراحل الكفاح في حقل البناء والتشييد.

ورغم ان تاريخ الجزائر، تاريخ بطولة، وحضارة، ومجد، إلا أنه للأسف الشديد مجهول، وغامض، لا يعرف العالم الخارجي عنه شيئا، ولا نعرف نحن أبناء الجزائر عنه، الا أقل القليل عن طريق السماع، أو قراءة كتب سطحية محرّفة كتبت من وجهة نظر مغرضة لخدمة الأهداف الاستعمارية البغيضة أكثر من أي شيء آخر. لقد عمل الاستعمار الفرنسي المستحيل لكي يقطع صلة الجزائر بماضيها الفكري، وتاريخها الحضاري سعيا وراء تحقيق خرافة «الجزائر الفرنسية»، وسخر كل ما يملك من امكانيات ووسائل حتى يحول دون شعب الجزائر وأمجاده وحضارة بلاده.

ففرض على التلاميذ والطلبة في المدارس والمعاهد والكليات، أن يدرسوا تاريخ فرنسا وحضارتها بالتفصيل خلال كل مراحل التعليم، وفي مقابل ذلك منعهم من الاطلاع على كل ما يتعلق بالجزائر اللهم الا كونها أرضا فرنسية، وان سكانها من أصل جرماني نزحوا إليها من أوربا.

إن برامج التعليم الفرنسية بالجزائر (سابقاً) كانت تتيح للطالب ان يدرس أخبار جان دارك، وتاريخ نابوليون، ولويس الرابع عشر، وماري انطوانيت، وغير هؤلاء، ولكنها لم تكن تترك له المجال لكي يدرس تاريخ حنبعل وماسينيسا، وبطولة طارق بن زياد وكسيلة، وشجاعة عقبة بن نافع وموسى بن نصير، كما لم تكن تعطي له الفرصة لدراسة تاريخ عبدالقادر والمقراني، ولالا عائشة، ولالا فاطمة، وغيرهم من الأبطال الوطنيين.

لقد حارب الاستعمار الفرنسي لغة الشعب القومية العربية بنفس العنف والقوة اللذين نشر بهما الفكر الفرنسي واللغة الفرنسية، فهدم المدارس العربية، ومنع كل محاولة لبناء غيرها وفتح أخرى جديدة حتى لا يترك أي مجال للفكرة الوطنية تتسرب إلى الأذهان، وتنير عقول الأجيال الصاعدة، وتدفعها إلى معرفة واقعها الوطني الأصيل. وهكذا جعل الاستعمار من دور السينيما والمسارح وسائل لنشر الأفكار الاستعمارية التي تصوّر كلّ مظاهر الحياة الوطنية بأشكال رديئة ينبو عنها الطفل وفكر الرّجل والمرأة. وليس هذا فقط، بل استهدف الاستعمار كذلك المعالم الدينية فهدم كثيراً من المساجد وأغلق بعضها، وحوّل أخرى إلى ثكنات، وفي مقابل ذلك عمل على نشر الديانة المسيحية، لا حباً أو ايماناً، وانما إهانة فقط للدين القومي الإسلامي.

ذلك هو موقف الاستعمار الفرنسي بصفة عامة من فكرنا القومي، ولغتنا وتاريخنا الوطني، وتلك هي أهدافه ووسائله أملاً منه في أن يجنب نفسه عنف الصّراع مع التيار الوطني الجارف الهادف.

ترى. ما هذا التاريخ؟ وما تلك الحضارة؟

إن الدارس لتاريخ المغرب العربي (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب الأقصى)، تعترضه ثلاث مشاكل خطيرة تتطلب التأمل، والبحث، والعلاج، وهي:

1 — ندرة المصادر خاصة العربية التي تمكن الباحث من استقصاء الأخبار والمعلومات عندما يريد أن يتناول تاريخ هذه البلاد بالدرس والتحليل، ومن هنا يحجم الباحثون عن دراسة هذا الاقليم، وتحليله، وبالأحرى الكتابة عنه، ولقد عشت بنفسي هذه الظاهرة يوم كنت أدرس التاريخ بكلية آداب جامعة القاهرة (1957 — 1962)، إذ لاحظت إعراض الدكاترة والأساتذة عن تدريس مادة تاريخ المغرب العربي للطلاب بحجة عدم وجود المصادر، رغم تفاهة المقررات، كما لاحظت عزوف الطلبة واعراضهم عن كتابة بحوثهم في تلك المادة لنفس السبب رغم رغبتهم في ذلك. وحتى المكتبة العربية بالمشرق العربي لا تجد فيها ما يكشف عن أي جانب من جوانب تاريخنا الزاخر بالأمجاد والبطولات اللهم إلا بعض دراسات أو مقالات صحفية فوق كونها سطحية، مملوءة بالأغلاط والتحريف. ومن أجل هذا لا يعرف العالم الخارجي، والمشرق العربي بصفة خاصة شيئاً عن ماضينا وحاضرنا، وهو أمر جدّ مؤسف ومؤلم.

2 — ومع ندرة هذه المصادر فإن بلدان تونس، والمغرب الأقصى، وحتى ليبيا، كتبت عنها بعض الدراسات قديماً، وظهرت حديثاً بعض المحاولات لوضع مخططات تعين الباحث والدارس، وتصلح أن تكون أساساً لبحوث أخرى ودراسات حول تاريخ هذه البلدان. وعلى العكس من هذا فإن الجزائر فقيرة إلى درجة اليتم في هذا الميدان، لم يكتب عنها شيء هام عدا سطور وصفحات معدودة موزعة في مختلف الدّراسات القديمة التي تحدثت عن اقليم المغرب ككل حديثا عابراً نظرا لما ساده من مظاهر الحياة المشتركة، سياسياً، واجتماعياً، وتاريخياً، وقومياً. أما الدراسات الأجنبية فمع قلّتها لا يمكن الاعتماد عليها، لأنها محرفة، محشوّة بالأغلاط والتفاهات، وخاصة الفرنسية التي كتبت لتخدم الفكرة الاستعمارية واستهدفت تشويه الحقائق ومسخ تاريخنا القومي وشخصيتنا الوطنية.

3 — أما الظاهرة الثالثة والأخيرة فهي فشو وانتشار الجفاف الفكري في بلاد المغرب العربي تبعاً للظروف الصعبة التي مرّت بها. ذلك أنه بقدر ما نلحظ في بلاد المشرق من حركة دائبة، ونشاط مستمر في ميدان الانتاج

والتأليف، والطباعة والنشر، بقدر ما نلحظ عكس ذلك في مغربنا العربي رغم وجود كتّاب ومفكرين لا يستهان بمستوى فكرهم وثقافتهم، بل ان البعض منهم أصبح انتاجه جزأ من الفكر العالمي.

ومع أننا نفتقد الوسائل اللازمة والكافية، وتعوزنا الامكانيات المادية والأدبية تبعاً لظروف الاستعمار التي مرت بها بلادنا، إلا أن كل ذلك لا يكفي لنا عذراً بعد اليوم، ولا يدفع عنا وزر هذه «المأساة» الثقيلة بعد أن تخلصنا من تلك الظروف اللعينة. ويجب علينا أن نستعد لكتابة تاريخنا القومي من جديد على أسس سليمة تستمد الحقائق من واقعنا الوطني الأصيل، ولكي يتحقق لنا هذا العمل الوطني يجب ان نجعل في اعتبارنا الأمور التالية:

1 — حشد جميع الجهود وجمع الطاقات للقيام بعمل مشترك كل في حدود اختصاصه، لأن الجهد الشخصي لا يحقق ما البلاد بحاجة ماسة وأكيدة إليه، زيادة عن أنه عرضة للوقوع في الأخطاء وضياع الوقت.

2 — وينبغي ان نوجه عناية هذه الجهود المشتركة إلى جمع كل ما كتب عن الجزائر قديماً وحديثاً بين السطور، وخلال الاشارات العديدة الموزعة في مختلف الدراسات التي تحدثت عن المغرب الافريقي ككل باعتباره اقليماً واحداً تجمعه وحدة الطبيعة والعقيدة، والقومية واللغة والمصير، وفوق هذا يجب أن نبحث عن تاريخ الجزائر في كل ركن من أركان البلاد لدى الشيوخ المسنين مشافهة، وفي المخطوطات التي تحتفظ بها كثير من الأسر الكبيرة أو التي أودعت في المكتبات العالمية الكبرى بتونس، والمغرب الأقصى، واسبانيا، وايطاليا، وفرنسا، وصقلية، وغيرها.

3 — وفي نهاية المطاف نتجه جميعاً إلى عمل التصفية والتنقيح وفق مشروع كبير يستهدف بعث واحياء أمجادنا وحضارتنا، وتخليص تاريخنا من الرواسب التي علقت به، والمفتريات الدخيلة التي تشوهه، وهذا من أوكد

واجبات وزارة التربية الوطنية ووزارة التعليم العالي في عهدها الجديد أملاً في أن نسد الثغرات والفجوات الواسعة، ونملأ الفراغ الكبير الذي ينخلل فكرنا، وتاريخنا، وحضارتنا.

وهذه الدراسة التي بين أيدينا جهد شخصي متواضع دفعتني إليه الرغبة الجامحة، وحاجة الطلاب والمثقفين في مختلف المستويات إلى دراسة تاريخية مبسطة، عن هذه البلاد، تكون لهم كمرجع ودليل يذللون بها بعض الصعاب التي تجابههم، وترغبهم في البحث والعناية أكثر، وكانت تجربتي في معهد الترشيح أمثولة لهذا الدفع وكذا الجامعة.

ولقد راعيت ما أمكن التنسيق والتبسيط في العرض والتحليل، وتجنبت الاطالة المملة والحشو الزائد الذي هو من أسباب إهمال العناية بدراسة تاريخنا، والعزوف عن الاطلاع عليه ولو من بعض تلك المصادر التي قدّر لها أن ترى النور.

على أني قد تعمدت المزيد من التفاصيل في بعض العهود القديمة قبل ظهور الإسلام نظراً لما لحقها من الإهمال والإجحاف الشديدين في مختلف الدراسات خاصة العربية حتى أصبحت احدى الفجوات في تاريخنا في حين أنها في الحقيقة فترة هامة شهدت صراعاً عنيفاً، وظهر فيها قادة وأبطال خدموا الانسان والحضارة، وتحملوا في سبيل ذلك كل أنواع المشاق واحتضنوا كل حركات التطور والرقي التي نبتت وعاشت في هذه الفترة. كما تعمدت أيضاً بعض التوسع في العهد التركي الذي يعتبر أخطر فترة حاسمة في تاريخنا الوطني، لأن الجزائر استكملت في هذا العهد لأول مرة شخصيتها الشعبية والسياسية، وتمتعت بمركز دولي ممتاز. وبمعنى أدقّ فإن الجزائر كشعب ودولة انما تم لها ذلك وتحدد بوضوح وجلاء في عهد الأتراك. أما قبل ذلك فكانت هي وكل بلاد شمالي افريقيا في مد وجزر حسب قوة كل اقليم أو ضعفه، فأحيانا تمتد حدود المغرب الأوسط إلى طرابلس شرقاً وفاس غرباً، وأحياناً تنكمش لتمتد سيطرة حكومة تونس أو فاس أو مراكش.

وهناك ملاحظة أخيرة أختم بها هذا التمهيد هو أنني اعتنيت أكثر بالتاريخ السياسي في هذه الدراسة لا لكونه أهم ولكن لأنه المفتاح والأساس لبقية الجوانب الأخرى خاصة الجانب الحضاري الذي أشرت إليه وتعرضت له باختصار في نهاية كل فصل تقريباً، وإذا أتيحت لنا الفرص فسأعد بأن أقدم دراسة خاصة عن هذا الموضوع بالذات. ومرة أخرى أقول بأن عملي في هذه الدراسة اقتصر على الجمع والتنسيق والتبسيط، وعساي أكون قد أديت بعض الواجب نحو فكرنا وتاريخنا وحضارتنا، ونحو العناصر المثقفة الواعية الناهضة، ومهدت لها الطريق لتمضي في هذا السبيل حتى نحقق جميعاً مثلما حققه أبطال الجبال في المعركة المسلحة، وأغلبهم ممن لا يقرأ ولا يكتب، وذلك فخر لهم مثلما كان فخراً لمحمد بن عبدالله. وسيكون عملنا في هذا الحقل أداء لبعض الواجب الذي لهم علينا ووفاء لآمالهم وأحلامهم التي استشهدوا من أجلها.

**والله ولي التوفيق.**

وهران ـــ شارع حمو بوتليلس

الجمعة { 6 جمادي الأولى 1385هـ
1 أكتوبر 1965م }

**يحي بوعزيز**

الجزء الاول

# الجزائر القديمة والوسيطة

# موقع المغرب الأوسط (الجزائر)

كانت كلمة (ليبيا أو لوبيا) في التاريخ القديم تطلق على أقطار شمالي إفريقيا الأربعة، ليبيا، وتونس، والجزائر، والمغرب الأقصى التي تسكنها عناصر وأقوام من البربر عاصروا الفرس، واليونان، والفينيقيين، والرومان، وغيرهم، وأسسوا لهم ممالك وحكومات وطنية مستقلة متعددة. ثم بطول الزمن وحدوث الخلافات والنزاعات فيما بينهم تغلبت عليهم بعض تلك الدول المعاصرة ومنها الرومان، وفي الفترة التي سيطر فيها الفينيقيون على هذه البلاد أطلقوا عليها كلمة (أفري). وعندما جاء الرومان أطلقوا اسم «افريقيا: Afrique» على اقليم تونس وحده ثم عمموه بعد ذلك على القارة كلها وصارت تدعي «قارة افريقيا».

أما اقليم الجزائر الحالي فكان من بين قراه الهامة آنذاك (آرغل) التي حولها الفينيقيون بعد عدة قرون إلى ثغر بحري هام لاستقبال وتصدير مواردهم التجارية واتخذوها قاعدة للشحن والتفريغ، وحرفو اسمها ودعوها (اكوزيم Ecosim) بمعنى جزائر الحمام. واحتفظ الرومان بعد ذلك بهذه التسمية مع شيء من التصحيف وصاروا يسمونها «إكوزيوم Ecosiom».

وأوضح الروايات في اطلاق اسم الجزائر على هذه المدينة هو أنه كانت أمام شاطئها صخور كبيرة متجاورة تشبه الجزر في شكلها ووضعها الطبيعي ومنها تلك الصخرة التي بني عليها الاسبان قلعتهم المشهورة عام 1510، فوصل ما بين تلك الصخور بالأتربة وضمت إلى بعضها وربطت بشاطيء المدينة بواسطة رصيف طويل وعريض، وشيد في نهايته مركز عسكري ما زال حتى اليوم يشهد بأهمية موقع هذه المدينة. ومن يومئذ دعيت هذه القرية بإسم: مدينة الجزائر.

وفي حوالي القرن العاشر الميلادي استوطنت في مكان هذه الجزر وتلك الصخور قبيلة بني مزغنة احدى فروع قبيلة صنهاجة الكبيرة فنسبت تلك البلدة إليها، ودعيت (جزائر بني مزغنة) واحتفظت بهذا الاسم حتى فتح الاتراك العثمانيون هذه البلاد في مطلع القرن السادس عشر (1514م) اختصروا هذا الاسم وأطلقوا على المدينة إسم الجزائر، ومن ثم أصبحوا يسمون الإقليم كله بإسم «سلطنة الجزائر».

وقد تحدث جغرافيو اليونان القدماء على بلاد شمالي افريقيا الغربي وقسموها إلى خمسة أقسام هي:

1 — اقليم بونيقيا أو (فينيقيا): ويشمل مدينة قرطاجنة وما حولها.

2 — اقليم نوميديا الشرقية (ماصيليا): ويشمل غربي بلاد تونس الحالية وشرقي ولاية قسنطينة.

3 — اقليم نوميديا الغربية (ماصيصيليا): ويشمل ولاية قسنطينة وولايتي الجزائر ووهران إلى وادي ملوية.

4 — اقليم موريطانيا: ويمتد من وادي ملوية إلى شواطيء المحيط الأطلسي.

5 — اقليم جيتوليا: ويشمل صحراء نوميديا بقسميها وموريطانيا.

أما العرب الفاتحون فقد خالفوا هذه التسمية وأطلقوا على البلاد كلها اسم: (بلاد المغرب)، ثم نعتوا كل اقليم بإسم يرجع إلى بعده أو قربه من الشرق.

فأطلقوا على اقليم تونس اسم: (المغرب الأدنى) لدنوّه من الشرق.

وأطلقوا على اقليم مراكش اسم (المغرب الأقصى) لبعدَه عن الشرق.

وأطلقوا على اقليم الجزائر اسم (المغرب الأوسط) لوقوعه بينهما وتوسط بعده عن المشرق العربي.

وهذه الأقاليم الثلاثة كل منها يشمل جزأ معيناً من البلاد في ذلك العهد. فالمغرب الأدنى يشمل ما بين برقة شرقاً وبجاية غرباً. والمغرب الأوسط يشمل ما بين بجاية ووادي ملوية.

والمغرب الأقصى يشمل ما بين وادي ملوية والمحيط الأطلسي. ولشدة ارتباط هذه الأقاليم ببعضها لم تكن هذه الحدود والفواصل طبيعية ولا هي قارة، بل دوماً في مد وجزر حسب قوة حكومة كل اقليم أو ضعفها، ومن هنا ندرك ذلك الارتباط التاريخي، ونجده يتماشى حالياً مع واقع مطالب شعوب المنطقة التي تنادي ببعث المغرب الكبير من جديد على امتداد الشمال الافريقي من طانجة إلى السلوم ليكون سنداً للشرق العربي في عهد التحرر والانطلاق، في انتظار بعث الوحدة الكبرى التاريخية من المحيط إلى الخليج.

ومن المؤكد تاريخياً أن ازدهار شعوب شمالي افرقيا وقوتها مرتبط دوماً بعامل الوحدة والتضامن فيما بينها، كما أن عوامل الضعف والشقاء والفوضى والتخلف تسود هذه المنطقة وتعم شعوبها كلما انتابتها الانقسامات وسادتها روح البغضاء والكراهية. وتعيش اليوم شعوب هذه المنطقة خلمها الكبير في الأنطلاقة الكبرى التي حررت الجزائر بعد تونس ومراكش، وليس هناك أحد لا يتمنى مخلصاً أن تتحقق وحدة شعوب هذه المنطقة بأسرع ما يمكن في اطار دولة واحدة قوية تتمكن من تخطي عهود التخلف وتلحق بموكب الحضارة الزاحف بسرعة الصواريخ والأقمار الصناعية التي يعج بها الفضاء.

# نبذة عن جغرافية الجزائر العامة

تقع بلاد الجزائر في شمالي غربي إفريقيا وتمتد بين خطي عرض 19° و 41° و 37° شمالاً من خط الاستواء، وخطي طول 2° غربي خط غرينيتش و 8° شرقيه على الساحل. أما في وسطها وعند خط عرض 27° شمالي خط الاستواء فتتسع البلاد عرضا وتمتد من خط طول 8° غرباً إلى خط عرض 10° شرقاً.

وتبلغ مساحتها حوالي (2,250,000 كم²) مليونين ومائتين وخمسين ألف كيلومترا مربع، يشمل الاقليم الشمالي منها (262,400 كم²) أي حوالي 15 بالمائة من المساحة العامة، ويشتمل الاقليم الجنوبي الصحراوي باقيها وهو (1,987,600 كم²) أي حوالي 85 بالمائة من المساحة العامة.

وتتوسط بلاد الجزائر أقاليم شمالي افريقيا الغربي، ويحدها من الشمال حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي. ومن الشرق: بلاد تونس في الشمال، وصحراء ليبيا في جنوبها. ومن الجنوب: بلدان النيجر، ومالي، وموريطانيا. ومن الغرب: مملكة مراكش وصحراء وادي الذهب (ريودورو). وهذه الحدود سياسية غير طبيعية ما عدا الحد الشمالي. أما الحدود الشرقية فقد وضعها الأتراك العثمانيون منذ أن سيطروا على شمالي افريقيا في مطلع القرن السادس عشر خاصة بعد ان انفصل اقليم تونس عن نيابة الجزائر. ثم جددتها السلطات الفرنسية بعد الاحتلال ثلاث مرات. الأولى عام 1888 وضبطت فيها الناحية الشمالية ما بين الساحل شرقي في مدينة القالة إلى شط الغرسة جنهات الجريد. والثانية عام 1901 وضبطت فيها باقي المنطقة الجنوبية ما بين شط الغرسة ومدينة غدامس الليبية عند بئر الرومان. والثالثة عام

1919 وضبطت فيها حدود المنطقة ما بين غدامس وغات. وهي المنطقة التي تتصل فيها الجزائر بليبيا وتعرف بإسم اقليم فزان.

وأما الحدود الجنوبية فقد وضعها الفرنسيون عام 1909 وتمتد من اقليم فزان إلى صحراء وادي الذهب.

وعلى غرار الحدود الشرقية وضع الأتراك العثمانيون حدود الجزائر الغربية ما بينها وبين مملكة مراكش. ثم جددها الفرنسيون في عدة فترات مختلفة. فبمقتضى معاهدة لالا مغنية خططوا الأجزاء الشمالية ما بين الساحل واقليم وجدة عام 1845م. أثناء صراعهم مع عبدالقادر. وفي عام 1902م. خططوا منطقة أخرى جنوبها، وفي عام 1910 خططوا الحدود ما بين فيقيق وبوذنيب. وفي عام 1916م. حددوا دائرة بشّار وما وراءها إلى الصحراء. وتشترك بلاد الجزائر مع تونس ومراكش في طبيعة الأرض وبنيتها ونظام سطحها، والحياة النباتية وظروف المناخ. ومن هنا تكوّن هذه الأقاليم الثلاثة وحدة جغرافية طبيعية تتمثل في سلاسل الجبال الالتوائية الحديثة التي تساحل البحر حيناً، وتبتعد عنه أخرى، وتتخللها سهول كثيرة بعضها واسع وبعضها ضيق، ومنها ما هو على شاطيء البحر وما هو بعيد عنه إلى الداخل.

ومن هذه السهول الخصبة وتلك الجبال التي تكثر فيها أشجار وغابات البحر الأبيض المتوسط بسبب الأمطار النازلة، تنتقل الطبيعة جنوباً حيث تظهر الهضاب المستوية المرتفعة ومناطق الرعي الأستبسية الواسعة، وأخيراً اقليم الصحراء الكبرى الواسعة. وبصفة عامة فان بلاد الجزائر تتألف من عدة أقاليم مستطيلة متتابعة بانتظام من الشمال إلى الجنوب هي:

1 ــ اقليم الساحل والتل: ومن أهم مظاهره التضاريسية التي يتميز بها، مجموعة سلاسل الأطلس الشمالية التي تكوّن هي والجنوبية معاً، الحافة الجنوبية للنطاق الجبلي المحيط بحوض البحر الأبيض المتوسط الغربي، ولا تختلف من الناحية الجيولوجية عن شبيهاتها من الجبال الالتوائية الأخرى

خاصة المجموعة الألبية الأوروبية إذ ترجع إلى حركات القشرة الأرضية وما ترتب عليها من التواء الطبقات الرسوبية التي تجمعت وزاد سمكها في أحواض البحار الجيولوجية القديمة. ويزدحم هذا الاقليم بالسكان وترتكز فيه مناطق العمران، والخصوبة وحياة الفلاحة والزراعة نظرا لما يتمتع به من مناخ طيب وأمطار غزيرة فصلية. وعلى حافته الشمالية يمتد الساحل الجزائري مسافة حوالي **1300** كيلومتر ابتداء من شرقي القالة على حدود تونس إلى وادي كيس غربي مدينة الغزوات عند الحدود المراكشية.

2 — اقليم الهضاب أو الإستبس: ويقع إلى جنوب الاقليم الأول ويشمل معظم أراضي الجزائر الوسطى. ويمتد في شكل مثلث مستطيل من الشرق إلى الغرب ويقل ارتفاعه، وتضيق مساحته كلما اتجهنا إلى الشرق. ويقع في وسطه حوض الشطوط الذي يمثل ببقايا الكتلة الافريقية القديمة، وتنتشر فيه الأحواض ذات الصرف الداخلي كما تمتد بعض السلاسل الجبلية.

وتتكون تربته من خليط من الرمال والصلصال والجير، ولهذا السبب تقل فيه الحياة الزراعية والشجرية، وتبعاً لهذا تقل الحياة البشرية ولا توجد إلا بعض قرى ومدن متفرقة متباعدة عن بعضها بمسافات طويلة حيث الآبار والعيون أو الأودية الجارية، ويكثر في هذا الاقليم نبات الحلفاء وتنتشر مناطق الرعي، وتزدحم فيه قطعان الأغنام والماشية في مواسم خاصة.

ومن أهم ما يتميز به هذا الاقليم إلى جانب جدب التربة وقلة الأمطار، وجود عدد من الأحواض الداخلية ذات المياه المالحة التي يعرف البعض منها بالشط ويطلق على البعض الآخر اسم الزاغر. ورغم أن هذه الأحواض منفصلة عن بعضها حالياً إلا أنها كانت تمثل نظاماً نهرياً متصلاً في القديم يتصل بالبحر المتوسط على احدى فتحات جبال الأطلس التلية وربما كان ذلك عن طريق مجرى نهر الشلف. وأهم هذه الأحواض جميعها الشط الشرقي الذي يقع جنوب جبال سعيدة والضابة ويرتفع عن سطح

البحر بحوالي ألف متر، ويبلغ طوله 250 كيلومتر ويتراوح عرضه بين 10 و 25 كيلومتراً.

وعلى امتداد حافته الجنوبية تمتد سلسلة جبال الأطلس الصحراوية التي تقف حائلاً دون تسرب الرمال وعواصف رياح السموم العنيفة التي تصعد من الصحراء الكبرى. وتكسو هذه الجبال غابات الصنوبر والحلفاء وتتصل شرقاً بأطلس الشمال عند هضبة الأوراس حيث ترتفع قمة جبل الشلية إلى 2330م. فوق سطح البحر وتعتبر أعلى نقطة في الجزائر الشمالية.

3 — اقليم الصحراء: وهو منطقة واسعة جداً محصورة ما بين جبال الأطلس الجنوبية في الشمال وخط عرض 19° شمالي خط الاستواء في الجنوب. ويغلب على الاقليم الانخفاض والاستواء والبساطة في سطحه، ويضم في وسطه مجموعة من الجبال المدببة المهشمة والهضاب الضخمة الواسعة التي تعلو فوق الألف متر عن سطح البحر، وتمتد ما بين جبال الأطلس وهضبة الهقار وتاسيلي.

ويشتمل هذا الاقليم الصحراوي على عدد كبير من الواحات الخصبة في المناطق التي تتوافر فيها المياه الباطنية، وفي العادة تكون في المناطق المنخفضة عكس الهضاب الجيرية والكثبان الرملية التي تكون في مناطق عالية ويشتد فيها الجدب والقحولة.

ومن أشهر مراكز الواحات: بسكرة، وتقرت، وورقلة، والأغواط، والقليعة، وعين الصفراء، وبشار، وتيميمون، وعين صالح، وتامنراست. وأدرار، وغرداية، وواد سوف.

وينتشر شجر النخيل في معظم هذه الواحات، وتزخر الصحراء حالياً بمنابع هامة للبترول والغاز الطبيعي أهمها: مجموعات آبار، ايجلي قرب الحدود الليبية، وحاسي مسعود قرب ورقلة، وحاسي الرمل جنوب الأغواط وشمال غربي غرداية.

وتتمتع بلاد الجزائر بمناخ البحر المتوسط في الشمال، ومناخ الصحراء في الجنوب حيث تمتد في العروض المدارية الجافة من 30 إلى ما يقرب من مدار السرطان.

وتعتدل درجة الحرارة في الشمال فتتراوح بين 10,5 في الشتاء وتصل إلى 22 في الصيف، وتبلغ إلى 37 في بعض الفصول الحارة.

وتهب على البلاد رياح غربية عكسية في الشتاء تحمل معها الأمطار والأعاصير، ورياح شمالية شرقية في الصيف تحمل معها كمية من بخار الماء في شكل ضباب وندى. كما تهب رياح آتية من الصحراء إلى الشمال في مختلف الفصول ويشتد تأثيرها في الصيف.

وتختلف كمية الأمطار النازلة ما بين الشمال والجنوب. ففي المناطق الساحلية والتلية يغزر المطر ويبلغ متوسطه السنوي إلى ألف مليمتر ولا يقل عن 450 ملم.

وفي إقليم الهضاب والشطوط يقل المطر ويتراوح ما بين 200 و 350ملم. أما إقليم الصحراء فهو حار جاف لا تزيد كمية الأمطار النازلة فيه في أغزر مناطقه عن 200 ملم وكثيراً ما تنزل عن 50ملم. وترتفع درجة الحرارة فوق الخمسين وكثيراً ما تصل إلى 120.

وفي الجزائر ثروة هائلة من الغابات والأشجار المثمرة تحتل الغابات مساحة أربعة ملايين هكتار وينمو فيها الصنوبر البحري، والحلبي، والفلين، والبلوط، والعرعار، والضرو، والأرز، وغيرها، وتوفر للبلاد الوقود والأخشاب.

وتتنوع الأشجار المثمرة إلى زيتون، وتين، ونخيل وكروم وغيرها من مختلف الأشكال والأنواع. وتكثر الخضروات والنباتات وتحتل الزراعة

والفلاحة المرتبة الأولى ويشتغل بها حوالي 80% من الأهالي، وتوفر للبلاد ثروة هائلة من الحبوب يستهلك منها ما يكفي ويصدر الباقي إلى الخارج مع بقية المنتوجات الأخرى.

وتشارك الثروة الحيوانية في تدعيم مركز الاقتصاد الوطني وتوجد منها مختلف الأنواع المعهودة مثل: البقر، والغنم، والماعز، والإبل، والخيول، والحمير، وغيرها. ويعمل حالياً على تنميتها بعد أن أصيبت بأضرار فادحة خلال حرب التحرير الوطنية. وتحتل المعادن مركزاً ممتازاً في الإنتاج الوطني وتطوير الحركة الصناعية؛ ومن أهم هذه المعادن: الحديد، والسماد، والقصدير، والنحاس، والفحم الحجري والبترول والغاز الطبيعي والملح، والرصاص، وغيرها. وتطورت بشكل ملحوظ نتيجة لذلك الصناعة خاصة بعد اكتشاف وقود البترول، وينتظر أن تتطور تطوراً هائلا بعد الاستقلال نظراً لعناية الحكومة بها.

# جزائر ما قبل التاريخ

اجتازت البلاد الجزائرية ككل بلاد العالم أطوار وعهود ما قبل التاريخ قبل أن تصل إلى هذه الفترة. فمرت بفجر العصر الحجري (Eolithic) فالعصر الحجري القديم بأقسامه الثلاثة: الأسفل (Lower)، والأوسط (Middle) والأعلى (Upper, Palaeolithic) ثم العصر الحجري الأوسط (Mesolithic)، وأخيراً العصر الحجري الحديث (Neolitic)، الذي تطورت فيه الحضارة الانسانية تطوراً كبيراً وبفضلها اقتحم الانسان الجزائري العصر التاريخي وتطبع على الاستقرار في القرى والمداشر والاشتغال برعي الحيوانات واستئناسها، وزراعة الأرض وفلاحتها، كما ألف صنع أدواته من الطين، وتعود على صناعة الفخار وتكييف الحجارة، وتعلم دبغ الجلود، والحياكة ونحت الرسوم الهندسية على العظام والصخور، وصنع السكاكين والفؤوس وغيرها من الحجر الصوان.

ولقد كانت بلاد الجزائر، والشمال الافريقي الغربي بصفة عامة، تتمتع بمناخ معتدل، ومطر وافر، وبحياة نباتية مزدهرة غنية خلال العصر البليستوسيني الأعلى (العصر الجليدي الأعظم). ولهذا استقر بها عدد كبير من الجماعات البشرية في الأماكن الخصبة حول الأنهار، والبحيرات، والآجام، والهضاب.

ونشأت بينهم وتطورت حضارات زاهرة منذ العصر الحجري القديم الأعلى، نميز منها:

1 ـــ الحضارة القفصية التي اكتشفت بعض آثارها [illegible] منطقة قفصة بتونس الحالية وبعض مرتفعات الجزائر الشرقية حيث [illegible] الأوراس

وتبسة وسوق أهراس وقسنطينة. وقد انتقلت هذه الحضارة إلى أوروبا عن طريق جبل طارق وتطورت هناك حتى أصبحت تعرف بإسم «الحضارة الأوريجناسية».

2 ــ الحضارة الوهرانية التي لها شبه كبير بالحضارة القفصية وخصائصها، وانتشرت في غربي مقاطعة قسنطينة، وولايتي الجزائر ووهران وبعض جهات المغرب الأقصى وفي بعض مناطق الصحراء مثل وادي ريغ ووادي ميزاب. ولهذه الحضارة كذلك تأثير على الحضارة الأوريجناسية بأوروبا. ومعلوماتنا عن هاتين الحضارتين مستقاة من بعض الأدوات والجماجم البشرية التي عثر على معظمها في آفلو ومشتة العرب بالجزائر.

3 ــ الحضارة العاطرية التي انتشرت على طول السواحل الأطلسية المراكشية وتعتبر امتداداً لبقايا الحضارات الموستيرية. وهكذا، وبفضل ازدهار هذه الحضارات عرف انسان الجزائر القديم البناآت الضخمة في سكناه، والمعابد الكبيرة في مدافنه، كما عرف الاستفادة من النباتات، والثمار، والغلال، واحترف صيد الحيوانات والأسماك، واكتشف استخدام النار وغيرها من مقومات الحضارة القديمة.

وبقدر ما أثر انسان شمالي افريقيا الغربي في حضارة أوروبا، وهاجر بنفسه إليها ليعمرها في العصر الحجري الحديث ويصبح إنسانها المتطور ــ بنفس هذا القدر تأثر بحضارة الشرق وأصبحنا نلحظ تشابهاً كبيراً بينه وبين قدماء مصر في الحياة الاجتماعية، والزراعية، بل وحتى الدينية. ومن هنا ندرك الصلات القوية بين قدماء مصر والشرق القديم، وقدماء شمالي افريقيا الغربي.

ولقد تواضع الكتّاب والمؤرخون على تسمية قدماء شمالي افريقيا بإسم «البربر»، وذكر هيرردوت أن التسمية الأصلية لهم هي «الليبيون» نسبة إلى احدى القبائل التي كانت تحمل هذا الاسم، ومنهم قبائل الأفري التي كانت تسكن حول مدينة قرطاجنة ومن اسمها اشتقت كلمة افريقية، على ما قيل، وقبائل

النوميدي الرحّل الذين كانوا يعيشون في نوميديا، وقبائل الموري الذين تسمت باسمهم موريطانيا أما كلمة (البربر) التي اطلقت على سكان شمالي افريقيا وما تزال حتى اليوم تطلق على جانب كبير منهم فهي (تسمية)، سياسية، مغرضة، وليست طبيعية، أطلقها عليهم اليونان ومن بعدهم الرومان الذين أعتادوا اطلاقها على من عداهم من الأجناس التي كانوا يسيطرون عليها ويحتلون أوطانها ولا يستطيعون التفاهم معها بسبب اختلاف اللغات واللهجات، فيقولون إنها (بربرية) أي ذات لكنة ولعثمة غير مفهومة. وتوسعوا في مفهوم هذه الكلمة حتى قالوا إن هذه الشعوب التي لا تستطيع التفاهم معهم لا شك أنها غير متطورة وأقل حضارة منهم خاصة وأنهم كانوا يزعمون احتكار الحضارة والتقدم لجنسهم دون غيرهم. وهذه الظاهرة كان يمكن حدوث عكسها لو سيطر سكان شمالي افريقيا على بلاد اليونان والرومان، ومن هنا يتضح أن كلمة (البربر) ليست علماً على جنس معين من البشر عكس ما تزعمه بعض الدراسات الأجنبية المغرضة التي تحاول فوق هذا أن تحمل هذه «الكلمة» ما لا تطيقه، بل وتبرأ منه، مثل الوحشية والتأخر وتثبت كل ذلك لسكان افريقيا ناسية ومتناسية وغاضة الطرف عن برابرة أوروبا من طوائف الشعوب الجرمانية الذين عاثوا في الأرض فساداً وألحقوا بالحضارة خسارة فادحة وأخروا أوروبا قروناً طويلة بشهادة مؤرخي أوروبا نفسها المنصفين.

والثابت أن سكان شمالي افريقيا القدماء ينتمون إلى مجموعة شعوب البحر الأبيض المتوسط القوقازية، أي أنهم من أصل آسيوي ومن أبناء مازيغ بن كنعان بن حام نشأوا في بلاد ما بين النهرين ثم رحلوا إلى بلاد المغرب عن طريق برزخ السويس ومصر، وعن طريق القرن الافريقي، وينقسمون إلى فرعين هما:

1 — البرانس: وهم أبناء برنس بن بُرّ بن مازيغ.
2 — البتر: وهم أبناء مادغيس الابتر بن بُرّ بن مازيغ.

وقد امتزج بهم فيما بعد عنصر الزنوج الذين كانوا يسكنون الصحراء الكبرى ونزحوا إلى أراضي الشمال حيث اختلطوا بزملائهم الحاميين ومنهم الضوارق الملثمون الذين جعلهم ابن خلدون قسماً ثالثاً.

ومن قبائل شمالي افريقيا القدامى: كتامة، وعجيسة، ووزداجة، وزناتة، وصنهاجة، وأوربة، ومصمودة، وضريسة، ومطغرة، وأوريغة، ونفزاوة، ولمطة، ونابة، ومضماضة، ومغيلة، وزواغة، ونفوسة، وزواوة، ومكناسة، وجراوة، ومغراوة، وغيرها. ولكل منها بطون وأفخاذ كثيرة منتشرة في مختلف جهات شمال افريقيا الغربي بما فيه اقليم ليبيا.

# العهد الفينيقي القرطاجني
# 1200 ــ 146 ق. م

## الطور الأول:

ينتسب الفينقيون إلى الأصل الكنعاني الذي ينتمي إلى المجموعة السامية؛ وكانوا يعيشون عيشة البداوة في موطنهم الأول قبل أن يرحلوا إلى شبه جزيرة آسيا الصغرى وينزحوا جنوباً في شرق نحو شاطيء الخليج الفارسي حيث اشتغلوا بالملاحة البحرية. وخلال القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد رحلوا غرباً إلى شواطىء الشام واستقروا في سفوح جبال لبنان الحالية وأسسوا عدداً من المدن ذات الموانيء البحرية التجارية مثل: طرابلس، وصور، وصيدا، وبيروت، وأنشأوا لهم أسطولاً ضخماً أخذوا يغزون به ويكتشفون بحار: الأبيض، والأحمر، والهندي، والأطلسي، وتركز نشاطهم خاصة في شواطيء البحر الأبيض المتوسط الجنوبية. ووصلوا إلى شواطيء شمالي إفريقيا الغربي حوالي القرن الثاني عشر، فتعرفوا على هذه المنطقة وربطوا مع أهليها علاقات صداقة شخصية وتجارية أتاحت لهم أن يخطوا خطوة أخرى هي تأسيس عدد من المراكز والمحطات التجارية، والوكالات والمصارف ذات الصبغة الاقتصادية التي أصبحت فيما بعد مقر إقامة للجاليات الفينيقية.

ولم يتوقف المكتشفون الجدد عند هذا الحد بل قطعوا أعمدة هيراكليس (مضيق جبل طارق) إلى شبه جزيرة إيبيريا (إسبانيا) وأسسوا هناك مدينة قادس حوالي عام 1110ق.م واتخذوها مركزاً لجلب معادن الفضة والذهب والنحاس والقصدير الذي كانوا يحضرونه من جزر القصدير جنوب بريطانيا العظمى.

وفي طريقهم من صور إلى قادس أسسوا في ليبيا: لبتيس الكبرى، وفي تونس: لبتيس الصغري (لمطة) وحدرموت (سوسة)، وأوتيكة (بوشاطر)، وهيبوزياريت (بنزرت). وفي الجزائر: رسكادي (سكيكدة)، وهبوريجيوس (عنابة) وشولو (القل) وإيجيجلي (جيجل) وصلداي (بجاية)، ويول (شرشال)، ودللس، وتنس، وتاقسبت (سوق أهراس)، وتيفست (تبسة)، ومدروس (مداوروش). وفي مراكش تنجيس (طانجة)، وسلا، وروسادير (مليلة) والرباط، وجدير (أغادير) وغيرها.

ومن هذه المراكز أخذ الفينيقيون يمارسون نشاطهم التجاري، ويتبادلون مع الأهالي مختلف السلع. فيحضرون لهم الأقمشة الصوفية والحريرية، والزجاج والأواني الفخارية، والخمور والأسلحة. ويأخذون منهم الأصواف، والجلود، والعاج وريش النعام، والمواشي، والعبيد، والسجاد، وغيرها.

واتسمت سياستهم في هذه المرحلة بالمسالمة والموادعة تجاه الأهاليي، واقتصر نشاطهم واهتمامهم على شؤون التجارة التي كانت تدر عليهم أرباحاً طائلة صرفتهم عن فكرة الاستعمار والاستيطان، وحالت دون تدخلهم في شؤون الأهالي الخاصة وأعمالهم الفلاحية والزراعية. بل إنهم وفروا للأهالي نشاطاً ملحوظاً في حياتهم الاقتصادية. ولقد بقي هذا الوضع عدة قرون حتى بدأ الأغريق اليونان يغزون شمالي إفريقيا بأساطيلهم الناشئة، ويرتادون في شواطئه مراكز العمران وذلك حوالي القرن التاسع، فبدأت المتاعب تظهر، وكثرت القلاقل والأحداث المزعجة، وتعثرت لذلك التجارة الفينيقية وتعرضت أساطيلهم التجارية للأخطار والأضرار. ثم حدث ما هو أخطر من هذا عندما تعرضت مملكة صور الفينيقية بالشرق إلى هجمات الممالك المجاورة لها وأنهكتها الخلافات الداخلية بين الأسرة المالكة وبعض الأسر الشريفة الأخرى، وبين أفراد الأسرة المالكة نفسها. فاضطر كثير من أشرافها وأسرها إلى الهجرة إلى إفريقيا للاستقرار بها والانفصال نهائيا عن موطنهم وبذلك يدخل الفينيقيون طوراً آخر هو طور الاستقرار وتأسيس مدينة قرطاجنة.

الطور الثاني:

# تأسيس مدينة قرطاجنة ونظامها الإداري 814 ق. م

كان الفينيقيون يعيشون في مملكتهم المزدهرة بصور في لبنان ويجوبون بأساطيلهم التجارية البحار والمحيطات، بغية تنمية مواردهم التجارية أساساً، وتكوين علاقات طيبة مع مختلف الشعوب على ضفاف حوض البحر الأبيض المتوسط. وكانت مملكة صور الفينيقية ذات قوة وسيطرة يرهبها جيرانها، ويسعون ما أمكن ليوثقوا علاقاتهم بها. ولم تكن مملكة آشور في هذه الفترة قادرة على الاعتداء على جارتها صور ولكن تضمر لها الشر والعدوان، وتعتبرها أخطر منافس لها في الشرق القديم. وعندما سنحت الفرصة وبدأت عوامل الضعف تنخر مملكة صور كشرت عن أنيابها وأخذت تشن عليها الهجومات والغارات بصفة مستمرة، وزاد في الطين بلة اشتداد الخلاف بين أفراد الأسرة الحاكمة في صور حول من تكون له السيطرة؟ فقد ترك الملك (مطان) الابن (بيغماليون)، والبنت (**عليسة** Elissa **أو ديدون** Didon) بعد أن مات حوالي عام 830 ق. م. فاعتلى بيغماليون عرش أبيه تحت وصاية أخته عليسة التي تزوجت خالها (عاشر باص Acerbas) كبير كهنة الإله هيراكليس بصور، وكان ثرياً كبيراً فاغتاله بيغماليون ليستحوذ على أمواله التي أخفاها تحت الأرض، ولكن أخته عليسة حالت دون ذلك بوسائلها الخاصة، وحملت أموال زوجها وخالها في سفن خاصة وفرت بها إلى شمالي افريقيا عن طريق قبرص، وصحبها في هذه الرحلة وجوه قومها الذين أغراهم سحر جمالها، وكثرة أموالها، ونزل الجميع على شاطيء خليج تونس في المكان الذي سينشؤن فيه قرطاجنة فيما بعد. ولم يكن هناك اتفاق حول تاريخ هذه الهجرة والأقرب هو عام 814 ق.م. ثم اشترت عليسة من ملك تلك البلاد قطعة أرض في حجم مساحة جلد

ثور، وقطع أصحابها جلد الثور إلى خيط طويل احاطوه بقطعة كبيرة وحددوها ثم بنوا عليها مدينتهم الجديدة (قرط حدشت) أي المدينة الحديثة التي يسميها العرب (قرطاجنة). ويسميها التونسيون اليوم: قرطاج.

ولقد كانت هذه المدينة عند تأسيسها عام 814 قرية صغيرة ثم أخذت تنمو وتكبر ويتسع عمرانها، ويرتفع عدد سكانها، ويعلو شأنها وصيتها حتى أصبحت فيما بعد مركز الحضارة، وملتقى التجارة العالمية، وعاصمة الشمال الأفريقي كله من السلوم إلى طانجة، وخلفت مملكة صور في مستعمراتها ومراكزها التجارية، وفي السيطرة البحرية، والنشاط التجاري والاستعماري. فمدت نفوذها على البلدان المجاورة شيئاً فشيئاً، واستولت على جزائر البنيار الثلاث (منورقة، وميورقة، ويابسة) عام 650، وعلى مراكز هامة بصقلية. وفي عام 530 طردت الأغريق من كورسيكا، واحتلت سردينيا، وبعض جهات إسبانيا، وشواطىء المغرب الأقصى وشرقي مقاطعة قسنطينة حتى مدينة تبسة. ولقد استفاد الأفارقة من هذه المدينة وورثوا عنها شيئين هامين هما: حياة المدن بما فيها من ضوضاء، وترف، ونعيم، والخضوع لحكومة ذات نظم وقوانين ادارية اكتسبت صفة الدولية العالمية بمرور الزمن. وكان الأفارقة قبل تأسيس قرطاجنة يعيشون حياة البدوة في مجموعات خاصة متوزعة هنا وهناك وفق النظام القبلي الضيق. أما قرطاجنة فقد استحدثت لنفسها نظاماً ادارياً هاماً أتاح لها أن تنعم قروناً طويلة بمزيد من الهدوء والاستقرار، واستهدف مشرعو نظمها أن يكون الحكم ديمقراطياً ما أمكن حتى يتمكن الأهالي من المشاركة فيه كل حسب تكوينه ووضعه الاجتماعي. ولهذا السبب أدخلت على هذه النظم الادارية الأولى عدة تغييرات في أزمنة مختلفة وفقاً للظروف والتطورات الجديدة. وسنوجزها فيما يلي:

1 ــ السبطان (الملكان): وتعينهما الجمعية الشعبية لمدة عام واحد، أحدهما للشؤون الإدارية، والآخر للشؤون القضائية، ويجب على كل واحد

منهما أن يستشير صاحبه قبل أن ينفذ أي أمر من الأمور حسب القانون. ومن اختصاصهما استدعاء مجلس الشيوخ والجمعية الشعبية للانعقاد، وقيادة الجيوش للحرب.

2 ـ عدد من المجالس العامة والشعبية أهمها:

أ ـ مجلس الشيوخ ويتكون من (300) عضو يختارون من الأسر الشريفة الوجيهة لمدى الحياة. ومن خصائصه اعلان الحرب وابرام معاهدات السلم، وتوليه أو عزل قواد الجيوش.

ب ـ مجلس العامة أو الجمعية الشعبية ومن خصائصه اختيار الرئيسين (السبطين) لمدة عام واحد.

ج ـ مجلس المائة والأربعة (104) يختار أعضاؤه لمدى الحياة ويشرف على شؤون الادارة.

د ـ مجلس الثلاثين: ومهمته فرض الضرائب وتحديدها.

هـ ـ مجلس العشرة: ومهمته العناية بشؤون المعابد والأحوال الدينية، والأعمال العمرانية.

**حالتها الاقتصادية:**

لقد كان الدافع الأساسي الذي حمل الفينيقيين على الهجرة من وطنهم الأصلي (مملكة صور) إلى غربي البحر الأبيض المتوسط هو التجارة وتنمية مواردهم، وكان الفينيقيون تجاراً ماهرين بالفطرة، يحملون بضائعهم إلى الخارج ويرجعون بغيرها. وعندما استقر بهم المطاف بشمالي افريقيا وأسسوا مدينة قرطاجنة بذلوا جهوداً موفقة حتى جعلوها عاصمة التجارة تروح وتغدو عليها القوافل التجارية من كل بلد.

وكان لازدهار التجارة بالمدينة أثره الكبير في تنشيط الحركات الفكرية، والصناعية والمعمارية.. وفي نشر اللغة اليونانية، والخط الفينيقي. وهكذا لعبت التجارة دوراً هاماً في الحياة القرطاجنية ومستقبلها الاقتصادي.

وكانت سياسة قرطاجنة الاقتصادية تستهدف دائماً فتح أسواق كثيرة في كل البلاد التي وصل أو يصل إليها نفوذها سواء بالقوة أو التحالف، أو بإنشاء مستعمرات جديدة. ومن هنا كانت تسعى دائماً إلى أبعاد المزاحمين لتجارتها بمختلف الوسائل، وتفرض على الدول المتحالفة معها عدم الاتجار مع أهالي مناطق نفوذها، وتحاول باستمرار ان تضمن لتجارتها احتكار عالم البحر الأبيض المتوسط. ونجحت فعلا في ذلك ولكنها لم تسلم من حقد جيرانها، خاصة روما الناشئة التي دخلت معها في صراع انتهى بتخريبها.

وكانت قرطاجنة تتاجر بالمقايضة والمبادلة إلى أن استحدثت السبائك والنقود فأخذت تتعامل بها مدة من الزمن ثم استحدثت لنفسها عملة خاصة ابتداء من القرن الرابع قبل الميلاد. وهكذا أثرت قرطاجنة وامتلأت خزائنها بخيرات العالم، وبالأرباح التي كانت تجنيها من التجارة والضرائب والعوائد وغيرها.

ولم تقف قرطاجنة عند حد الاتجار فقط بل حاولت ان تبعث في البلاد حركة صناعية تغنيها عن استيراد ما يمكن صنعه في البلاد.

ولهذا كثرت صناعة السفن الحربية والتجارية، والتروس، والسيوف، والرماح، والسهام الخشبية والحديدية. وشاعت صناعة النسيج، والحياكة، والصباغة والدباغة، والخزف والزجاج، والصياغة والنقش والنجارة، وغيرها. وكانت قرطاجنة تستورد لهذه الصناعات كل ما تحتاجه من الخارج.

فتستورد من اسبانيا: معدن القصدير، والفضة، والأسماك والحلفاء لصنع حبال السفن.

ومن قبرص: معدن النحاس.
ومن جزر الباليار: الذهب والأحجار الكريمة والجلود والأصداف.
ومن جهات إفريقيا الأخرى: مختلف المعادن كالذهب والفضة والأحجار الكريمة والأخشاب، وأنياب الفيل، وبيض النعام وريشها والتمور، والأسماك.
ومن سردينية: مختلف الحبوب.
ومن كورسيكة: الشمع والعسل.
ومن بلاد العرب: البخور، واللبان، وغيرها.
ومن مصر: العطور.
ومن صقلية: أواني الخزف، والكبريت.

أما ما تصدره قرطاجنة إلى الخارج فكثير ويمكن حصره في الأشياء التالية:

الزرابي والطنافس، والوسائد المطرزة، والشمع والعسل، والتين، والرمان، والعاج، والمرمر، والأقمشة، والملابس، والأواني النحاسية، والملح، والحيوانات، والزيوت وغيرها.

ومع أن القرطاجنيين لم يكونوا هواة فلاحة نظراً لما جبلوا عليه من حب التجارة والأسفار إلا أنهم اهتموا بالزراعة والفلاحة، وشجعوا الأهالي على الغراسة وفلاحة الأرض وصناعة الخمور. فكثرت غراسة مختلف النباتات والأشجار مثل: التين، والكروم والزياتين، والجوز والرمان، والأرز والنخيل، وغير ذلك.

ولم تختلف سياسة قرطاجنة عن أسلافهم في احترام سيادة أهل البلاد الداخلية وعواطفهم لأنهم لم يكونوا رواد استعمار أو تحكم وإنما طلاب تجارة واستكشاف للعالم المجهول. ومع هذا فإنهم أزاحوا الأهالي إلى المناطق الجنوبية واستأثروا هم بالمناطق الخصبة في الشمال مما خلق لهم بعض

الشعب. وقد خلقوا في البلاد طبقة اورستقراطية جديدة لم يكن لأهل البلاد عهد بها من قبل استطاعت أن تحتضن الحضارة القرطاجنية ذات الطابع اليوناني وتنشرها في أطراف البلاد.

## حروب قرطاجنّة

بعد أن أنشأ الفينيقيون مدينة قرطاجنة سعوا إلى توسيع نفوذهم، فمدوا سيطرتهم أولاً على كامل الشمال الإفريقي، وانفصلوا عن وطنهم الأم مملكة صور التي انهارت تحت ضربات الفاتح الكلداني **نوبو خذ نصّر** (604 — 561 ق. م) ثم استولوا على جزر سردينيا، وكورسيكا، وجزائر البليار، وشبه جزيرة آيبيريا، وأجزاء أخرى من أراضي غالة (فرنسا) الجنوبية. وعندما طمحوا إلى السيطرة على جزيرة صقلية اصطدموا بالإغريق، وحصل ما يعرف في التاريخ «بالحروب الصقلية»، ثم بالرومان وحصل ما يعرف في التاريخ «بالحروب البونية» الثلاثة.

## الحروب الصقلية

كانت جزيرة صقلية منطقة نفوذ للشعوب البحرية التي ظهرت وعاشت على ضفاف حوض البحر الأبيض المتوسط، وكان الإغريق اليونان قد اتخذوا مراكز تجارية واستعمارية لهم في شرقي الجزيرة منذ القرن الثامن قبل الميلاد مثل القرطاجنيين الذين سيطروا على شمالي وغربي الجزيرة منذ القرن التاسع وأنشأوا هناك مستعمرات قارة لهم، ومن هنا بدأ الاحتكاك بين الإغريق والقرطاجنيين، وتطور إلى حروب طاحنة تداول فيها الجانبان النصر والهزيمة معاً. وبسبب هذا التطاحن انحاز القرطاجنيون إلى الفرس عندما أعلنوا الحرب على الإغريق.

# الحروب البونية الثلاثة
# 264 ـ 146 ق. م

## الحرب الأولى 262 ـ 241:

كان لقرطاجنة أسطول ضخم يعتبر من أقوى أساطيل العالم في ذلك الوقت فرضت به سيطرتها على حوض البحر المتوسط الغربي وأدبت به خصومها وجلبت بواسطته كل خيرات العالم القديم إليها. ومن بين ما كان يحتوي عليه خمسمائة سفينة ذات خمسة صفوف من المجذفين.

وفي بداية اتصالها بروما أبرمت بينهما معاهدة عام (508) اعترفت بمقتضاها قرطاجنة بسيطرة روما على اقليم لاتيوم وشاطئه. وتعهدت روما بألاّ تسير أساطيلها في غربي البحر الأبيض المتوسط وألاّ ترسو في شواطيء سردينيا وغالة وليبيا إلا عند الاضطرار. ومنذ البداية كانت العلاقة بين روما وقرطاجنة علاقة تنافس وتطاحن وكان لابد من حدوث صراع خاصة بعد ان اشتد بينهما التطاحن على امتلاك مخلفات تركة الأغريق اليونان. فنشأ عن ذلك ما يعرف في التاريخ بالحروب البونية أو البونيقية الثلاثة في فترات متقاربة.

وكانت بساحل صقلية الشرقي مملكة اغريقية صغيرة وقاعدتها مدينة سيراكوز ويحكمها هيرون الثاني: Heiron II وسبب صراعه مع المرتزقة الايطاليين بمدينة مسينا قيام الحرب البونية الأولى. فقد احتل هؤلاء المرتزقة المسميون (المامرتيون) مدينة مسّانا شمالي شرقي صقلية عند مضيق مسّانا بينما كانوا في طريقهم إلى إيطاليا بعد ان انهوا خدمتهم العسكرية في قوات

هيرون الثاني. وقاموا بذبح كثير من سكان تلك المدينة وحرق عدد آخر، وسبي الأولاد والنساء. ولم يقنعوا بهذا فأخذوا يغيرون على المدن المجاورة التي كانت تعمرها جاليات يونانية، فأثار ذلك ثائرة هيرون ونهض إليهم وحاصرهم في مسّانا، ولكن أسطولاً قرطاجنياً كان قد نزل بالجزيرة وأرغمه على رفع الحصار عن المدينة بمقتضى صلح وقعاه معاً وحل محله في محاولة أرغام المرتزقة على الرحيل. فاستنجدوا بروما التي ترددت طويلاً ثم أحالت الموضوع على مجلس الشيوخ الذي أحاله بدوره إلى الجمعية الشعبية القبلية، فأقرت هذه الأخيرة مساعدة المرتزقة ضد قرطاجنة وفضلت أن تنقض المعاهدة التي كانت تنظم العلاقة بين الطرفين، وأشارت بضرورة إبعاد قرطاجنة عن ميناء مسّانا الذي يكتسي أهمية خاصة بالنسبة لأمن إيطاليا.

وهكذا كونت روما جيشاً كبيراً واسندت قيادته إلى لوكيوس كاوديوس وأمرته بقطع المضيق إلى صقلية لتنفيذ أوامر الجمعية الشعبية القبلية. وبينما هذه الأحداث تجري في روما كانت قرطاجنة تجري مفاوضات مع المرتزقة حتى أقنعتهم بالتخلي عن مساعدة روما والعدول عن طلب نجدتها فبعثوا رسالة بذلك إلى كاوديوس في ميناء ريجيوم على شاطىء الحذاء الايطالي وطلبوا إليه أن يعود من حيث أتى. ولكنه رفضها وقطع المضيق إلى الجزيرة واحتل المدينة بدون صعوبة. وانحاز إليهم هيرون لما رأى تفوقهم ثم خاض الفريقان معركة بحرية كبيرة قرب شواطىء صقلية عام 260 تعرف بمعركة ميلاي Maylae، وبرز في هذه الحرب روجوللوس Regulus الروماني وهميلكار الأفريقي. وحقق الرومان بعض التفوق في هذه المعركة وفي معركة أكونوموس Economus بعدها فسولت لهم نفوسهم إن ينقلوا الحرب إلى افريقيا نفسها. سار روجوللوس على رأس قواتهم إلى هناك ولكن القرطاجنيين واجهوهم بعنف وقوة وألحقوا بهم أعظم كارثة حربية عام 255 فحطموا لهم 284 سفينة، وأغرقوا لهم (80) ثمانين ألف جندي وأسروا قائدهم روجوللوس وأبقوه في الأسر خمس سنوات ثم سمحوا له بمرافقة بعثة قرطاجنة إلى روما لطلب الصلح واملاء شروط

قرطاجنة، والتزم ان يعود إلى أسره إذا رفض مجلس الشيوخ الروماني شروط البعثة. وعندما وصل إلى روما وسمع تلك الشروط التي حررتها قرطاجنة تدخل في النقاش وأشار على المجلس برفضها وبذلك فشلت تلك المفاوضات وعادت البعثة وعاد معها روجوللوس فأعيد إلى السجن وبقي به حتى مات.

أما الذي حقق النصر لقرطاجنة في حروبها مع روما وخاصة في هذه المعركة البحرية فهم ضباط نوميديا (الجزائر) الأبطال وفرسانها الشجعان الذين كانوا أهم عنصر في جيشها البري وقواتها البحرية، لا يعرفون معنى للانهزام والتقهقر، ويتحلون بقوة المراس والطاعة العمياء والشجاعة النادرة. وبفضلهم حققت قرطاجنة مجدها العسكري وتاريخها البطولي العظيم. وحرب التحرير الأخيرة التي خاضها الجزائريون في ثورة أول نوفمبر 1954 أكبر شاهد على ذلك.

ولقد كان هذا الصراع العنيف سبباً في ظهور القائد الافريقي هميلكار برقة (أي الصاعقة) الذي عينته قرطاجنة قائداً لجيوشها عام 247 فسار بأسطول صغير إلى إيطاليا وأخذ يشن الغارات على أطرافها وسواحلها ويدمر مراكز الرومان العسكرية ويأسر من يقع في قبضته من الجنود الايطاليين. ثم تحول إلى جزيرة صقلية وعسكر في قلعة ايريكس Eryx شمالي غربي الجزيرة بجبل جولياني المطل على مدينة ترايوني الحديثة، واستمات في الدفاع عنها ضد الجيوش الرومانية وألحَّ على قرطاجنة أن ترسل له امدادات عاجلة ولكنها تباطأت عنه وتقاعست فبقي وحده يواجه الموقف وتوادع الطرفان لسلم عفوي حوالي سبع سنوات، ولم تبذل قرطاجنة أي جهد للاستعداد لما هو متوقع واكتفت بما لدى هميلكار من دهاء وعبقرية، ولهذا اضطرت إلى طلب الصلح عام 241 عندما فاجأ قواتها أسطول روماني في جزر ايجاتيس Aegates قرب سواحل صقلية، وهي في طريقها إليها لنجدة الجاليات الفينيقية. وبموجب ذلك الصلح سلمت قرطاجنة جزيرة صقلية إلى روما ورحلت عنها، وتعهدت بدفع غرامة حربية كبيرة وإلغاء كل القيود التي كانت تفرضها على التجارة الرومانية، وعدم اثارة الحرب ضد هيرون وحلفائه.

## الحرب الثانية 218 ـ 202:

وعلى اثر هذا الصلح وانتهاء الحرب الأولى واجهت قرطاجنة مشكلة داخلية هي ثورة الجند المرتزقة الذين كانوا يعملون في قواتها العسكرية وتلكأت في دفع مرتباتهم وأغضت عن مطالبهم فتمردوا وتمرد معهم عدد من القبائل الافريقية التي تثقل كاهلها بالضرائب الجائرة. وزحف الجميع على قرطاجنة وبلغ عدد المحاصرين لها حوالي عشرين ألف ثائر يتزعمهم ماثو (Matho) الليبي من طرف الافريقيين وسبينديوس الكامباني من طرف المرتزقة، فتحرج الموقف واستنجدت قرطاجنة بالقائد هملكار الذي هب بحوالي عشرة آلاف جندي وشتت تلك الجموع وأرغم المرتزقة على الفرار وكمن لهم في أحد المضايق وقضي عليهم جميعاً، وأسر ماثو وسلمه إلى الأهالي الذين أشبعوه ضرباً بشوارع المدينة حتى مات. وانتهت هذه الحوادث عام 237 ودامت حوالي أربعين شهراً.

وعلى أثرها طلب هملكار من قرطاجنة أن تعد له جيشاً كبيراً ليزحف به على إيطاليا لأن روما قد اعتدت على أملاك قرطاجنة واحتلت سردينيا وكورسيكا، فجهزت له قوات صغيرة ذهب بها إلى اسبانيا واستولى على عدد من المدن والحصون، وتوفي وهو يقود هجوماً على احدى القبائل هناك عام 229 فانتخب مكانه زوج ابنته أسد روبال، وظل قائداً عاماً هناك ثماني سنوات كاملة وأسس مدينة جديدة سماها قرطاجنة الجديدة عام 221 فخلفه حنبعل أكبر أبناء هملكار، فاستغل فرصة اضطراب بلاد الغال وهجوم بعض القوات الغالية نفسها على بلاد ايطاليا وقرر هو الآخر أن يقوم بغزو ايطاليا ليحقق حلم أبيه ووصيته. فجمع قوات كافية واجتاز بها بلاد الغال دون صعوبة ولقي ترحيباً وتشجيعاً لمشروعه من كثير من القبائل الغالية.

وكانت روما قد عقدت مع أسد روبال عام 230 اتفاقاً تعهدت فيه قرطاجنة بأن تبقى جيشوها جنوب نهر الأبرو ولا تتقدم ما وراءه،

وأن تبقى مدينة سجنتم متمتعة باستقلالها. ولكن في عام 219 قام عمال مدينة سجنتم بقلب حكومة المدينة وأقاموا بها حكومة معادية لقرطاجنة فتسبب ذلك في دفع أهالي المدينة إلى الإساءة إلى بعض تجار قرطاجنة. وعلم حنبعل بهذه الأحداث فطلب من حكومة المدينة ان تكف الناس عن ذلك السلوك الشائن ولكنها اهملت الأمر فقام حنبعل بفرض حصار عليها واحتجت روما لدى قرطاجنة وهددت بالحرب فردت عليها بان المدينة تبعد مائة ميل جنوب نهر الابرو وليس من حق روما ان تتدخل في ذلك النزاع والا فستكون قد اخلت بشروط معاهدة اسد روبال السابقة. وكانت هذه الحادثة سبباً في نشوب الحرب البونية الثانية.

فبعد أن أخضع حنبعل سجنتم عبر نهر الأبرو عام 218 بجيش كبير قوامه ستون ألف جندي منهم حوالي تسعة آلاف من فرسان نوميديا الأبطال، فقطع جبال البيريني ومر على نهر الرون ثم اتجه إلى جبال الألب واخترقها في فصل بارد ممطر وكانت الثلوج تغطي معظم قممها ولهذا فقد معظم جيشه ولم يبق معه عندما وصل إلى السهول الجنوبية سوى حوالي (26) ستة وعشرين ألف جندي. فخيم بهم هناك حتى يستريحوا من وعثاء السفر واستمال إليه بعض القبائل الأترورية في حين فر من أمامه المستعمرون حتى وصلوا إلى حوض نهر البو.

وعندما علمت روما بحملة حنبعل جمعت جيشا كبيرا بلغ عدده (170) مائة وسبعين ألف جندي واسندت قيادته إلى بوبليوس كورنيليوس سكيبيو (Publius Cornelius Scipio) والتقى الطرفان على شاطيء نهر التيبر فقام الفرسان النوميديون في جيش حنبعل بالهجوم على جيش سكيبيو وأرغموه على التقهقر، وأصابوا سكيبيو نفسه بجروح خطيرة وكادوا أن يقضوا عليه لولا شجاعة ولده الذي قدر له أن يواجه حنبعل مرة أخرى بإفريقيا في معركة زاما بعد سنوات عديدة.

ثم واصل حنبعل زحفه والتقى بأحد الجيوش الرومانية على شواطيء بحيرة ترازيمنوس (Trasimenus) بقيادة التريبيون فلامينيـوس (Flaminius)، واستدرجه إلى سهل واسع كثيف الأشجار ثم حمل عليه حملة شديدة وأفناه عن آخره وقتل فلامينيوس نفسه وكان عدد هذا الجيش ثلاثين ألف جندي وذلك عام 217. وبهذا فرض حنبعل سيطرته على شمالي ايطاليا فحرر كل الأسرى وأطلق سراحهم تخفيفا لأعباء جيشه وكسباً لود سكان المنطقة وأعلن للناس أنه حضر إلى هناك لتحريرهم من ظلم روما وجبروتها وليست له أية نية في الاستعمار. ثم قطع جبال الابنين واتجه إلى شواطيء البحر الأدرياتيكي وعسكر للاستراحة والاستعداد. وبعد مدة قليلة واصل سيره نحو الجنوب واعترضته متاعب كبيرة ولم تستجب قرطاجنة لطلباته المتكررة في بعث النجدات فأوعز إلى أخيه باسبانيا أسد روبال الصغير ان يحضر إليه بنجدة ولكن غزو الرومان لاسبانيا أخّر هذه النجدة حوالي عشرة أعوام.

وقد عسكر حنبعل قرب بلدة كناي (Cannae) بسهل أبوليا (Appolia) على بعد عشرة أميال من شواطيء الادرياتيكي. ولم يفلح الدكتاتور الروماني كينتوس فابيوس ماكسيموس (Quintus Fabius Maximnius) عام 217 في مواجهة حنبعل واختار عدم الالتحام معه فسقط واختير مكانه لوكيوس إيميليوس بوللوس وكيوس ترنتيوس فارو عام 216 فجمعا جيشاً كبيراً من حوالي مائة ألف جندي التحم به فارو مع حنبعل في بلدة كناي في نفس السنة وألحق به حنبعل هزيمة شنعاء وقضى على حوالي سبعين ألفاً من جيشه ومن بينهم ثمانون من أعضاء مجلس الشيوخ الروماني وفرّ الباقي منهم هو نفسه وسكيبيو الذي سيلقب فيما بعد بالإفريقي، وفقد حنبعل ستة آلاف من جنوده الذين كانوا أقل من أربعين ألفاً. وخلفت هذه الكارثة وراءها آثاراً حاسمة فتضعضعت هيبة روما وتقلص نفوذها، وأعلنت معظم قبائل الأقاليم انفصالها عنها وانضمامها إلى الغاليين الجنوبيين في شمال إيطاليا، وتحالفوا جميعاً مع حنبعل كما انضم إليه

خليفة هيرون بسيراكوز، وتحالف معه فيليب الخامس ملك مقدونيا حتى يحول دون سيطرة روما على أوروبا الشرقية وبذلك بدا الأمر كأنه نهاية لروما والرومان، وعاش الناس بلا أمل وفكّر كثير منهم في الفرار إلى بلاد اليونان.

ولم يتقدم حنبعل إلى روما رغم أنه أصبح على مشارف أبوابها، لأن جيشه كان بحاجة إلى بعض الراحة كما أنه لم يجعل في اعتباره أن يحتل روما أو ينهي سيادتها وإنما كان يريد تأديب العقلية الرومانية الطاغية التي لم تتسع لتدرك أن في إفريقيا دولة عظيمة قوية وشعباً عريقاً في المجد والقوة والحضارة لا يقل على شعب روما في شيء إن لم يكن أحسن منه وأشجع، وسيكون موقفه هذا من أهم عوامل إخفاقه.

وإلى جانب هذا الاعتبار فإن حنبعل أرجأ الزحف على ورما حتى يحكم عليها الحصار تماماً وتأتيه النجدات من قرطاجنة وسيراكوز ومقدونيا، ويستعيد صقلية وسردنيا وكورسيكا، وإيبيريا. وتماشياً مع هذه الخطة أطلق سراح الأسرى الذين قبض عليهم من غير الرومان، وعرض على روما أن تفتدي أسراها بالأموال فرفضت وشحنهم إلى قرطاجنة كعبيد. ثم أخذ يتحرك ويستولي على المدن التي في طريقه حتى وصل إلى مدينة كابو: (Capua) وعول على قضاء فصل الشتاء بها ولكن الرومان كانوا قد فرضوا الحصار عليها فتحول إلى روما نفسها ليحاصرها حتى يرغمهم على فك الحصار عليها فواجهوه بمائتي ألف جندي فانسحب إلى الجنوب وسقطت كابوا في أيديهم عام 211. فبعث أخاه ماجو (Mago) إلى قرطاجنة لتبعث له بالمدد اللازم ليضرب ضربته الأخيرة.

وبينما هذه الأحداث تجري في ايطاليا كانت روما بعثت جيشاً رومانياً إلى اسبانيا بقيادة سكيبيو الصغير وأخيه ليشغلا أسد روبال شقيق حنبعل ويحولا دون النجدة التي كان يعتزم الذهاب بها إلى أخيه، وتمكنا من هزيمته

عام 215 عند نهر الأبرو ولكنهما ما لبثا أن قتلا بعد ذلك. فجاء بعدهما سكيبيو الافريقي ابن أحد القائدين وابن أخ الآخر فأعاد تنظيم الجيوش الرومانية واستولى على مدينة قرطاجنة الجديدة وبعض مدن أخرى.

أما أسد روبال فقد أفلت بقواته واجتاز بلاد الغال وعبر جبال الألب إلى إيطاليا ومن هناك وجه رسالة إلى أخيه أخبره فيها عن قدومه ووقعت هذه الرسالة في يد الرومان وعرفوا منها خططه الحربية والطرق التي سيسلكها فتعرض له جيش روماني على ضفاف نهر المتاوروس عام 207 وألحق به هزيمة شديدة ولقي هو حتفه من جراء سقوطه عندما كان يحاول الفرار وجز رأسه وحمل إلى أبوليا ورمي على الأسوار إلى داخل معسكر أخيه حنبعل فتأسف شديداً وتحول في الحال بجيشه إلى بروتيوم بالجنوب وبعثت إليه قرطاجنة نجدة من مائة سفينة محملة بالمؤن ولكن عاصفة هوجاء قادت هذه السفن إلى شواطيء سردينيا حيث تعرضت لها عمارة بحرية رومانية وأغرقت منها حوالي ثمانين سفينة وعاد الباقي إلى قرطاجنة. وفي عام 205 أختير سكيبيو الأصغر قنصلاً عاماً لروما فجمع جيشاً كبيراً وتوجه به إلى إفريقيا حتى يرغم حنبعل على الرحيل من إيطاليا عندما يرى بلاده تتعرض للخطر. وفعلاً فقد استدعته قرطاجنة بسرعة بعد ستة وثلاثين عاماً من الغياب الطويل وقبل أن يبلغ ما طمح إليه من تحطيم قوات روما العسكرية نهائياً. فعاد إلى إفريقيا وبادر إلى حشد جيش جديد وتنظيمه وتدريبه فأدرك سكيبيو أن مواجهة حنبعل في مثل هذه الحال صعبة وسعي إلى استعمال وسائل المكر والدهاء وصمم على تفكيك الوحدة الوطنية وجعلها تتطاحن فيما بينها حتى يسهل عليه حينئذ الوصول إلى مأربه فاتصل بالأمرين الأفريقيين صيفاقس حاكم نوميديا الغربية، وماسينيسا حاكم نوميديا الشرقية واستمالهما إليه رغم ما بينهما من خلاف، وقبلا أن يتعاونا معه على أمل أن يجد كل منهما الفرصة ليقضي على صاحبه، يضاف إلى هذا أن هذين الأميرين خاصة ماسينيسا كانا يكنان كرهاً شديداً لقرطاجنة ورأوا في هذا فرصة للقضاء عليها. وفي أملهما أن يبرما بعد ذلك اتفاقاً وتحالفاً

مع روما ينص على احترام سيادتها الوطنية. ولم يدم هذا التحالف طويلاً فقد تخلى صيفاقس عن مساندة سكيبيو وأخذ يشن بعض الغارات على أملاك ماسينيسا فتحول إليه هذا الأخير بقواته ولاحقه حتى قبض عليه وقتله واحتل عاصمته قرطة (قسنطينة).

أما حنبعل فإنه واجه سكيبيو في معركة حاسمة ببلدة زاما (جاما) قرب مدينة الكاف التونسية الحالية في شهر أكتوبر عام 202، ولم تفلح محاولة توقيع الصلح رغم تقابل القائدين لذلك الغرض فتلاحمت القوتان وجرح سكيبيو نفسه الذي كان يسانده ماسينيسا بقواته، واستبسل حنبعل وأعاد تنظيم قواته عدة مرات ولكن الظروف كلها كانت ضده فانسحب من المعركة منهزماً وعاد إلى قرطاجنة وطلب من مجلس الشيوخ أن يدخل في مفاوضات عاجلة من أجل تحقيق الصلح وقبل سكيبيو ذلك وتوصلا إلى الاتفاق التالي:

1 ــ تحتفظ قرطاجنة باستقلالها وأملاكها في إفريقيا فقط.

2 ــ تسلم أسطولها فيما عدا عشرة سفن ذات ثلاثة صفوف من المجذفين.

3 ــ ألا تشتبك مع أحد في حرب داخل أو خارج إفريقيا إلا بموافقة روما.

4 ــ أن تدفع لروما غرامة مالية حربية قدرها 200 ألف تالنت (حوالي 720,000 ريال أمريكي) تقسط على خمسين سنة.

وهكذا غيرت معركة زاما أو بالأحرى الحرب البونية الثانية وجه حوض البحر المتوسط الغربي، وبرز بشكل ملحوظ تفوق روما خاصة بعد أن حققت وحدتها الأقليمية وتوسعت إلى اسبانيا وانتشرت هيبتها بين مختلف إمارات وممالك البحر الأبيض المتوسط.

## الحرب الثالثة 149 ـ 146:

لقد كانت نتائج الحرب البونية الثانية سيئة جداً على قرطاجنة وكانت نتيجة نهاية لها فزيادة على هزيمتها الحربية الفادحة بزاما تفشى الفساد في جهازها الإداري والاجتماعي وتواكل حكامها وانغمسوا في حياة اللهو والمجون وأرهقوا الطبقات الفقيرة بالضرائب والغرامات الحربية التي تعهدت بدفعها لروما ولكنها تصرفها عندما تجمعها في عبثها ومجونها.

ولم يكن هذا الوضع ليرضي هذه الطبقات الفقيرة فأوعزت إلى حنبعل أن يخرج من صمته وعزلته وقامت بشبه ثورة سلمية سياسية قضت على تلك الحكومة الأوليجاركية واختارت حنبعل حاكماً عاماً على مملكة قرطاجنة عام 192. فصمم على إجراء إصلاحات جذرية واستهدفت وضع حد لنفوذ الطبقات الغنية وجورها وفسادها وأعلن عن اقتراح يقضي بتحديد مدة قضاة محكمة المائة والأربعة بعام واحد فقط في منصبهم، ومنع إعادة انتخابهم في نفس تلك الوظيفة قبل مضي عام على خروجهم منها. فرفض ذلك مجلس الشيوخ وقدمه حنبعل إلى الجمعية الشعبية فأقرته ووافقت عليه، وعندئذ شرع في تنفيذ بقية إصلاحاته فأعلن الحرب على الرشوة والمرتشين وخفف من عبء الضرائب التي أرهقت كاهل الضعفاء ووضع حداً لكل الذين سولت لهم نفوسهم تخريب النظام والإخلال بالأمن. وبذل جهوداً موفقة في إصلاحاته المالية بحيث خفف على الأهالي الضرائب المجحفة وحصل عن طريق موارد أخرى على دخل كبير استطاعت به الدولة أن تسد كل ما عليها لروما قبل حلول عام 188.

وكان من الطبيعي أن يكون لهذه السياسة الرشيدة رد فعل سيىء لدى أفراد الطبقة الغنية بقرطاجنة الذين أصيبت مصالحهم الشخصية وأصبحوا يتهددهم الخطر في كل وقت فقاموا بتدبير مؤامرة خفية ضد حنبعل وبعثوا لروما من زعم لها أنه يعتزم إعلان الحرب ضدها فاتصل مجلس

السيناتو بحكومة قرطاجنة وطلب إليها أن تسلم إليه حنبعل ليقدم هناك إلى المحاكمة ولم يفطن حنبعل لهذه المؤامرة إلا بعد أن أحكم أمرها مدبروها فاضطر إلى مغادرة قرطاجنة ليلاً ورحل إلى أنطاكية عن طريق البحر عام 195، وبذل جهوداً خاصة حتى أقنع الملك أنطيوخس الثالث ملك سوريا بإعلان الحرب على روما، وانضم إلى قواته وأصبح من كبار قواده فخاضا معاً الحرب ضد روما وهزما في ماجينيزيا عام 189 واشترط الرومان على أنطيوخس أن يسلم إليهم حنبعل قبل توقيع أي صلح، فاضطر حنبعل أن يفلت إلى كريت ثم إلى بيثينيا في آسيا الصغرى، وأخذ الرومان يتتبعون خطواته ويطاردونه في كل مكان يحل به حتى اكتشفوا مخبأه وأحاطوه بالجنود فاستخرج من جيبه السم الذي كان يحمله معه وتجرعه فمات عام 184 عن عمر سبعة وستين عاماً، وفقدت إفريقيا أعظم قائد ومصلح وجنت قرطاجنة من وراء هذه الجريمة تخريبها ونهايتها المحزنة.

## جهود ماسينيسا وتخريب قرطاجنة:

وأصبح ما بد من منقذ آخر فانفتح الطريق لماسينيسا ليبرز كبطل منقذ لهذه البلاد وكان يحكم آنذاك إمارة نوميديا فعمل على إزالة الفوارق الاجتماعية والطبقية ما أمكن وأقنع البدو الرحل، على حياة الاستقرار والزراعة والفلاحة وعودهم على الخضوع للحكم المنظم، فتوحدت البلاد في عهده وازدهرت الحياة الفكرية والثقافية، واستصلحت مساحات شاسعة من الأراضي وتطورت حياة الفلاحة والزراعة كثيراً فعم الرخاء مختلف الطبقات، وأصبحت مدينة قرطة (قسنطينة) العاصمة تعج بقوافل التجار والفلاحين والمباني الفخمة ومخازن الحبوب وغيرها.

وبينما ماسينيسا يقوم بهذه الاصلاحات في اقليم نوميديا تكونت بقرطاجنة حكومة جديدة موالية للرومان ركزت كل جهودها في تحقيق مزيد من الاصلاحات حتى تستعيد رخاءها السابق، فحققت هي الأخرى

ازدهاراً مدهشاً في ميادين الفلاحة والزراعة بفضل تفرغها لتلك الأعمال بعد أن حرم عليها مد نشاطها إلى خارج إفريقيا بموجب معاهدة صلح الحرب البونية الثانية. وجاء مصدر متاعبها هذه المرة من داخل افريقيا نفسها، من طرف ماسينيسا الذي تحالف مع روما وأكثر من شن الغارات على أطرافها وسيطر على كل المسالك والمعابر التي تؤدي إليها فاضطرت قرطاجنة أن تستنجد بروما وتطلب إليها أن تتدخل لتكفه عن تلك الغارات لأنها لا تستطيع أن تشن عليه حرباً دون موافقتها حسب الاتفاق السابق.

وفي كل مرة تطلب قرطاجنة ذلك تكتفي هي بايفاد لجنة للتحقيق سرعان ما تنحاز إلى ماسينيسا، وأكثر من هذا أن كاتو الأكبر الذي حضر كعضو في احدى اللجان عام 175 وشاهد بقرطاجنة بساتين الفاكهة والكروم والرخاء المدهش والازدهار العظيم، وكان الصراع ضد حنبعل ما يزال مائلاً في ذهنه، عاد من المهمة وهو يتوجس خيفة ومعه كمية من التين الناضج حملها معه إلى مجلس السيناتو ليدلل لنواب المجلس على مدى الرخاء الذي تتمتع به قرطاجنة، وخطب فيهم خطبة طويلة ختمها بقوله: «لابد من تخريب قرطاجنة» وأصبح ذلك عادة له في خطبه فيما بعد.

وإزاء كل هذه الأحداث نفذ صبر قرطاجنة واضطرت أن تعلن الحرب على ماسينيسا عام 151 فردت عليها روما باعلان الحرب عليها في السنة الموالية وأرسلت حملة حربية إلى إفريقيا وانضمت إليها مدينة أوتيكة (بوشاطر) وتصلب ماسينيسا في موقفه وفصل قرطاجنة عن المناطق التي افتكها منها مدعياً أنها من أملاك آبائه وأجداده. و لم تفلح هي بوسائلها الخاصة في استعادتها أو اقناع ماسينيسا بالكف عن اعتداآته. فأرسلت بعثة خاصة إلى روما وعادت بأوامر صارمة من مجلس السناتو تقضي:

1 ــ بأن تجيب القنصلين الموجودين إلى كل مطالب روما مهما كان نوعها.

2 ــ وأن تسلم إليهما ثلاثمائة من أبناء أشرافها كرهينة. وكان القنصلان سانسو رينوس ومالينيوس قد عهد إليهما مجلس السناتو بقيادة الحملة ضد قرطاجنة ومطالبتها بتسليم أموالها وذخائرها وسلاحها ثم بعد ذلك تخلي المدينة من سكانها ليشعلا فيها النيران ويخرباها نهائياً. وأكد عليهما تنفيذ هذه الشروط مهما كانت الظروف، فتسلما الرهائن وقطعا البحر إلى أوتيكا التي أصبحت حليفة للرومان ومن هناك وجها إلى قرطاجنة أمراً بأن تسلم أسطولها وسلاحها وكميات كبيرة من الحبوب، وأن يخرج جميع السكان عن المدينة ويبتعدوا عنها مسافة عشرة أميال حتى يسلموا من الحرق الذي سيكون نهاية هذه المدينة، وكان ذلك بمثابة حكم الاعدام عليها فحاول كثير من الوسطاء اقناع القنصلين بالعدول عن تنفيذ هذه الفكرة المخربة، وعرضوا أنفسهم ليكونوا فداء لهذه المدينة ولكن القنصلين أعلنا أنهما لا يمتلكان حق تعديل أوامر مجلس السيناتو، فبدا الأمر خطيراً للغاية ولم يستطع الأهالي تحمل مثل هذه الاهانة وأعلن مجلس شيوخ قرطاجنة الحرب على روما وتسابق الناس للتجنيد وصناعة السلاح، وأخذوا الخشب من المنازل، وصهروا حديد التماثيل لصنع السفن، وقطع النساء شعورهن لصنع الحبال وفي ظرف شهرين صنعت قرطاجنة ثمانية آلاف درع، وثمانية عشر ألف سيف وسبعين ألف حربة، وستين ألف قذيفة منجنيقية ومائة وعشرين سفينة، وقاومت المدينة الحصار براً وبحراً ثلاث سنوات كاملة، فشل القنصلان خلالها فشلاً ذريعاً في تحقيق أي انتصار.

وفي عام 147 انتخب مجلس السيناتو بروما سكيبيو إيميليانوس قنصلاً وقائداً عاماً تقديراً لجهوده ومقدرته التي أظهرها خلال حصار قرطاجنة الطويل وكان واحداً من القنصلين السابقين، فواصل حصار

المدينة طوال تلك السنة وأوائل عام 146 ثم تمكن بعض أنصاره من تسلق أسوار المدينة في ربيع تلك السنة ودافع الأهالي دفاعاً مستميتاً طوال ستة أسابيع ولم يتمكن الرومان من اقتحام المدينة إلا بعد أن استشهد منهم (445) ألفاً، وامتلأت شوارعها بالدماء والجثث وأشعلت النيران في كل أحيائها واستمر كذلك أكثر من سبعة عشرة يوماً حتى أتت على كل ما فيها من تراث، وحضارة، وعمران. وعندما أراد صدربعل قائد قوات قرطاجنة أن يؤمن على حياته وأجابه سكيبيو إلى ذلك عيرته زوجته ووبخته ثم ألقت بنفسها في لهب النيران وفضلت ذلك على أن تسلم نفسها أسيرة وهو أمر في منتهى الشجاعة للمرأة الافريقية.

وقد قبض سكيبيو على من بقي من سكان المدينة وعددهم حوالي خمسة وخمسين ألفاً وباعهم عبيداً في أسواق الرقيق، ثم أعلن عن منح أوتيكا والمدن التي وقفت بجانب الرومان حريتها الذاتية تحت حماية الرومان، وحول أراضي قرطاجنة إلى ولاية رومانية باسم «ولاية إفريقيا» وبذلك أسدل الستار نهائياً وإلى الأبد عن تلك الملحمة التاريخية، وذلك الصراع الرهيب الذي دام عشرات السنين لا بين مدينتين وإنما بين قارتين ومدنيتين أصيلتين لكل منهما ميزتها وقيمتها الخاصة. وأحسب أن طنين ذلك الصراع وما تلاه من الأحداث والخطوب هو الذي استفاق على دويه أحرار هذا الشمال الافريقي وأصبحوا يتمثلونه أساساً لكل الأخطار التي زحفت على هذا الشمال من أوروبا ووقف في وجهها أولئك الأبطال عمالقة التاريخ من حنبعل إلى عبدالقادر وعائشة وبن مهيدي وعميروش وبن بولعيد، ولم يفتأوا يكافحون ويجاهدون حتى حققوا لبلادهم حريتها، ولشعوبهم استقلالها وكرامتها، وبعثوا من جديد أمجادها الخالدة بعد أن صفوا الحساب مع الفرنسيين آخر الغزاة الظالمين عام 1962م.

# الجَزَائر في عَهْد الرّومان
# 146 ق. م ــ 430 م

## لمحة عامة عن البلاد الإيطالية:

تقع البلاد الإيطالية شمالي حوض البحر الأبيض المتوسط، وتشقها سلسلة جبال الابنين طولاً، وتحدها شمالاً جبال الألب، ويحيط البحر بجوانبها الأخرى. وهي بمثابة الجسر الذي يصل بين أوربا، وساحل الشمال الافريقي وتشتمل ايطاليا على منطقتين مختلفتين في التضاريس اختلافاً بيناً هما:

المنطقة الشمالية وتتبع القارة، والجنوبية وهي شبه جزيرة طويلة ضيقة أكبر من الأولى في المساحة، وتعرف باسم «الحذاء الإيطالي».

وتشتمل المنطقة الشمالية على السلسلة الجنوبية لجبال الألب والشمالية لجبال الابنين، والسهل المنخفض الواقع بينهما. ويبلغ عرض هذه المنطقة من الشرق إلى الغرب (320) ميلاً، ولا يزيد طولها عن (70) ميل من الشمال إلى الجنوب. وتمتد الألب في شكل هلال غير منتظم مسافة (1200) ميلاً من مدينة نيس على المتوسط إلا مدينة تريستا على الادرياتي. ولا يفصل صقلية عن منطقة الحذاء الإيطالي إلا بمضيق مسّانا الذي لا يزيد طوله على أربعة أميال، كما لا يفصلها عن ساحل افريقيا إلا بحر عميق لا يزيد عرضه على ثمانين ميلاً فقط. وقد استوطن البلاد الإيطالية منذ القدم أقوام عديدون منهم: الاترورويون في الشمال والاغريقيون في الجنوب، واللاتين في الوسط، وهم الأصل الذي تفرع عنه الرومان وقد استوطن هؤلاء اللاتين في منطقة لاتيوم بسهل نهر التيبر، ولهذا سموا باللاتين.

## . تأسيس مدينة روما وتكوين الدولة الإيطالية:

وفي منطقة لاتيوم هذه وعلى ضفاف نهر التيبر أسس رومو للوس مدينة (روما) في 21 أبريل عام 753 ق. م. على هضاب سبعة عالية منها هضبة الكابيتول. وشيئاً فشيئاً اتسع عمران هذه المدينة، وامتد نفوذها حتى أصبحت تكوّن دولة قوية لعبت دورها التاريخي في عالم البحر الأبيض المتوسط.

ويعتبر روموللوس أول ملوك روما ومؤسسها الأول، و لم يدم العهد الملكي طويلاً بل سرعان ما قامت ثورة ضد الملك السابع تاركوينوس، وأطاحت به وبالنظام الملكي عام 509 ق. م، فأعلن النظام الجمهوري في الحين.

وكانت الحياة الاجتماعية في روما تقوم على الفروق الطبقية، فهناك طبقة الأثرياء والاريستقراطيين التي تحتفظ بكل مظاهر الحكم والسيطرة والحقوق، وهناك طبقة العبيد المستضعفين الذين كافحوا عشرات السنين، وقاموا بثورات عديدة حتى اعترفت لهم الطبقة الحاكمة بحقوق المواطنة وبالتدريج والمماطلة.

وقد مرت روما بمراحل كثيرة اختلفت فيها أنظمة الحكم والادارة حسب الظروف. فبعد العهد الملكي الأول، أعلن النظام الجمهوري أو القنصلي، ثم الامبراطوري، وليست هذه الدراسة موضوع تفصيل هذه الأشياء.

ولقد اتجه ملوك روما وقناصلها في بداية الأمر إلى توسيع نفوذهم، ومده إلى كل أجزاء البلاد الإيطالية، فسيطروا على شبه الجزيرة كلها من صقلية إلى سلسلة جبال الألب، ثم استهدفت روما بعد ذلك التوسيع خارج إيطاليا في شرق المتوسط وغربه فسيطرت على بلاد الأغريق في الشرق،

وسيطرت على الجزر الكبرى في الغرب ومنها سردينيا وكورسيكا، وعندما أرادت أن تمد نفوذها إلى صقلية اصطدمت بدولة قرطاجنة، وخاضت ضدها حروب صقلية، والحروب البونية، وقد مرّ تفصيل ذلك كله.

## يوغورطا 118 ـ 104 ق. م:

توفي ماسينيسا عام 148 ق. م. قبل أن يحقق آماله، وأوصى بالحكم إلى أبنائه الثلاثة: مسيبسا، ومصطنبعل، وغولوسه، وعهد إلى سكيبيو برعايتهم (وكان قد بعث إليه يستقدمه ولكنه مات قبل أن يصل) فتصرف بما يوافق هواه ومصالح حكومته وبلاده، وعين الابن الأكبر ماسيبسا حاكماً إداريا، ومصطنبعل حاكماً للشؤون القضائية، وغولوسة قائداً للجيوش الافريقية.

وقد استهدف سكيبيو من هذا العمل إحداث الخلاف وبعث الفتن بين هؤلاء الأبناء الثلاثة حتى لا يتكتلوا ضده وضد بلاده، ولكن الموت فوّت عليه الفرصة إذ اختطف مصطنبعل وغولوسه فخلا الجو لمسيبسا الذي كان ولوعاً بالفكر، والفلسفة اليونانية، فجمل عاصمته، قرطة، ووطد علاقته بروما وأمدها بكثير من القوات والمؤن العسكرية في مناسبات عديدة خلال حروبها، وكان سكيبيو في الحقيقة هو المتصرف في شؤون الدولة الافريقية وخيراتها فبعث بقموح البلاد إلى روما، واستقدم من إيطاليا جاليات رومانية كبيرة وزعها في جهات كثيرة وأقطعها مساحات واسعة من الأراضي افتكّها من الأهالي الوطنيين. فتذمر الشعب من هذه الحالة، وأصبح ما بد من عمل شيء لإنقاذ البلاد، وشاءت الظروف أن يكون ذلك على يد البطل الافريقي الخالد الذكر يوغورطا العظيم كما سيأتي.

عندما مات مسيبسا عام 118 خلف ولدين صغيرين هما: إذربعل، وهيامبسال، وخلف ابن أخ له يدعى يوغورطا ابن مصطنبعل، نشأ على حب الصيد، وركوب الخيل والقتال، مما جعل مسيبسا يخاف منه على ابنيه

فبعثه مع سكيبيو إلى إسبانيا على رأس القوات الافريقية،، أملا في التخلص منه بصورة ما، فاكتسب بدلاً من ذلك شهرة واسعة بما حققه من الانتصارات، وأكرمه سكيبيو أمام قواد جيشه، وأرسل معه رسائل إلى مسيبسا يمجد فيها خصال هذا الفتى وبطولته فحول وجهة نظره السابقة وأدرك أن هذا الفتى سيكون له شأن في المستقبل فأوصى أن يكون شريكاً في الحكم لابنيه السابقين.

وعندما اجتمع هؤلاء الأمراء الثلاثة بمدينة (دقة) التونسية حاليا لوضع خطة الحكم المشترك أغلظ هيا مبسال القول إلى ابن عمه يوغورطا، ولم يحترم شعوره، فكتم الأخير غيظه وأسر في نفسه شيئاً، وافترقوا دون أن يصلوا إلى أي نتيجة وأدرك يوغورطا أن استمرار هذا الوضع لا يمكنهم من تدعيم نفوذهم واعادة مجد أجدادهم، بل على العكس ذلك يخدم أغراض أعدائهم، وهكذا اتخذ يوغورطا قراراً حاسما في نفسه، وصمم على التخلص من رفيقيه في الحكم بأي وسيلة كانت..وسنحت الفرصة عندما كان هيا مبسال يقيم عند أحد أنصار يوغورطا في جهات (دقة) (اثيدة) فنفذ فيه القتل وذلك عام 118 نفسه.

ثم اشتبك يوغورطا مع اذربعل في معركة طاحنة، وأرغمه على الفرار إلى قرطاجنة (ولاية افريكا الرومانية). ومن هناك سافر إلى روما لطلب النجدة ولكنه وجد رسل يوغورطا قد سبقوه إلى هناك بالأموال والهدايا، واشتروا ضمائر خصومه وجعلوهم أنصاراً له في مجلس الشيوخ الروماني عندما تقدم اذربعل ليعرض شكواه.

وعندما أوفد مجلس الشيوخ الروماني لجنة تحقيق من عشرة أعضاء عام 117 للتحقيق في الأمر، وتقسيم المملكة بين الأميرين، اشترى يوغورطا ضمائرهم بالمال فبرؤوه من تهمة قتل هيا مبسال، وقسموا المملكة بينهما فأعطوا لاذربعل القسم الشرقي من نوميديا ابتداء من قرطة إلى حدود

ولاية افريكا ليكون مجاوراً للرومان وأعطوا غرب نوميديا إلى يوغورطا حتى يبعدوا خطره عليهم فتظاهر بالرضاء وتفرغ لتقوية مركزه، وتدعيم نفوذه عسكرياً وسياسياً، ثم أعلن الحرب على ابن عمه اذربعل بحجة أنه تآمر عليه وحاول اغتياله وزحف على مملكته وحاصره بعاصمته (قرطة) فاستنجد كعادته بروما التي أوفدت عدة لجان للوساطة أخفقت كلها في اقناع يوغورطا على وقف العمليات العسكرية والدخول في مفاوضات سلمية. وبعد ستة شهور من الحصار استسلم اذربعل عام 116 وقتل هو وعدد من الإيطاليين الذين كانوا يساعدونه وبذلك أصبح يوغورطا الحاكم بأمره في افريقيا، وأصبح عليه أن يواجه الصراع العنيف الذي ستثيره عليه روما، خاصة بعد أن اتهم بإبادة الجالية الإيطالية القاطنة بمدينة قرطة عاصمة خصمه أذربعل.

وفعلاً فإن روما أعلنت عليه الحرب عام 111 ق. م. ووجهت إلى إفريقيا جيشاً كبيراً بقيادة القنصل بيستيا Bestia، احتل مجموعة من المدن ثم بفضل ما بذله يوغورطا من أموال اشترى ضميره واقتاده إلى قبول الصلح، وإيقاف الحرب وإعادة كل الأراضي التي احتلها إلى يوغورطا.

وقد افتضح أمر بيستيا في روما فقدم إلى المحاكمة وطلب إلى يوغورطا أن يحضر إلى روما لأداء الشهادة فقبل وذهب إلى هناك، واشترى كعادته بعض ضمائر نواب مجلس الشيوخ ومنهم التريبيون بوبيوس الذي طلب إليه ألا يجيب على الأسئلة التي توجه إليه في المجلس عندما يأتي دوره ليدلي بشهادته، وكاد الأمر يتم لصالحه لولا أن حدثت مفاجأة غير متوقعة، هي أن قريبه بوميلكار قام باغتيال ماسيفا ابن عمه غولوسا في احد شوارع روما، وكان ماسيفا هذا يطالب بعرش يوغورطا ويسعى لتكوين جبهة قوية لصالحه في روما حتى يفوز بمطالبه، فهاج يوغورطا واغتاظ من أمره فأوعز إلى بوميلكار بقتله ونفذ في الأخير الأمر. فانكشف الأمر، ورأى أنصار يوغورطا لا فائدة من بقائه بالمدينة ونصحوه أن يغادرها بعد أن فوت عليهم

فرصة الدفاع عنه، فغادر المدينة وودعها بكلمته المشهورة «مدينة معروضة للبيع ستتلاشى عن قرب لو تجد شاريا» ومن ورائه بعثت روما حملة عسكرية بقيادة القنصل أولوس إلى افريقيا، وحمى وطيس المعركة بين الجانبين، وانضم كثير من الجنود الرومان إلى جيش يوغورطا الذي ألحق الهزيمة بقوات أولوس في **معركة سوتول** قرب قالمة عام 109 وأرغمه على عقد صلح من بين شروطه الجلاء الكامل عن البلاد إلى قرطاجنة في ظرف عشرة أيام فقط.

وقد استاءت روما من هذه الهزيمة وجهزت جيشاً آخر بقيادة ميتيللوس كايوس وبعثته إلى افريقيا عام 109 بمعية الضابط اللامع ماريوس، وجرت معارك طاحنة بين الجانبين في جهات مجردة الشمالية، وتفوق الرومان في النهاية ولكن ميتيللوس اضطر إلى التراجع عندما حاول أن يحتل مدينة جاما عاصمة يوغورطا المؤقتة.

وفي عام 108 استطاع ميتيللوس أن يحتل عدداً من المدن والقرى منها مدينة قرطة، وبسط نفوذه على الجزائر الشرقية الحالية، فأدرك يوغورطا خطورة الوضع، ودخل في مفاوضات مع بوكوس الأول ملك موريطانيا حتى أقنعه بضرورة التحالف ضد هذا الخطر، وتكونت قوات عسكرية مشتركة خاضت المعركة ضد قوات ماريوس الذي كان قد انتخب قنصلاً بروما عام 107. وقد لحقه إلى افريقيا الضابط الشاب سلا عام 106 ودار صراع عنيف بين الجانبين، ولم تكن المعركة متكافئة بين كلا الجانبين العسكري والسياسي وزاد في الأمر خطورة اتصالات سلاّ السريعة مع بوكوس أمير موريطانيا، ونجاحه في اقناعه بالتخلي عن صهره يوغورطا إذا رفض قبول الصلح بالشروط التي تعرضها عليه حكومة روما.

وبعد هذا خطا سلا خطوة أخرى أكثر خطورة فاتصل بالقائد بوميلكار رئيس جيوش يوغورطا، وقاتل ماسيفا السابق بروما، وعرض عليه أن يرجع إليه اعتباره الشخصي وكل أملاكه التي صودرت منه غداة قتله

ماسيفا، وأن يسند إليه عرش نوميديا إذا سلم له يوغورطا حياً أو ميتاً، فاغتر بهذا العرض، واستهوته نشوة الحكم والسيطرة، فأخذ يغري يوغورطا بقبول شروط روما واشترك معه بوكوس في اقناعه بإبرام الصلح، ولم يفطن يوغورطا للمؤامرات إلا بعد أن سلم الجزء الأكبر من سلاحه وفقاً لشروط معاهدة الصلح فقبض على بوميلكار وأعدمه وأخذ يعد العدة لمواجهة ماريوس وسلا. ولكن الأوضاع كانت في غير صالحه، ففقد حصن تاله بالجهات الشرقية وتفرق عنه أنصاره، وتآمر عليه صهره بوكوس في الجهات الغربية واتفق مع سلا سراً على أن يسلمه إليه مقابل أن يستولي على مملكته وذلك عندما يحضر إلى مكان الاجتماع الذي اتفق على عقده بينهم لكي يحددوا فيه شروط وقف القتال. وعقد اتفاقية صلح دائم. وكان من شروط هذا اللقاء أن يحضروا بدون سلاح وبذلك خدع يوغورطا ووقع في الفخ. وفعلاً فقد كمن له قرب مكان الاجتماع جنود بوكوس وقبضوا عليه بمجرد أن وصل وسلموه إلى سلا الذي اقتاده إلى ماريوس عام 105 وصحبه الأخير معه إلى روما وأودعه السجن وتركه بدون الماء والطعام ستة أيام كاملة فمات عام 104، ولكن جذوة النضال من أجل تحرير افريقيا الشمالية لم تمت فخلفه أبطال آخرون تحملوا عبء الكفاح وصارعوا الطغيان حتى حققوا حلم الأجداد وآمال الأجيال عام 1962 في ثورة نوفمبر 1954.

**هيامبسال الثاني وماسينيسا الثاني:**

وبعد أن تخلص الرومان من يوغورطا قسموا مملكته إلى قسمين نوميديا الغربية وأعطوها إلى بوكوس جزاء خيانته لوطنه، ونوميديا الشرقية وأعطوها إلى غودة شقيق يوغورطا حيث بقي والياً عليها حتى توفي عام 88 ق. م. فخلفه أبناؤه: هيامبسال الثاني وماسينيسا الثاني الذي استطاع أن يستعيد من بوكوس نوميديا الغربية كذلك. ومع أن الثائر النوميدي حيرباص استطاع أن يخلع الأميرين عام 81 ويتولى هو عرش نوميديا وينحاز إلى جانب ماريوس في خلافه مع سلا، ولكن [illegible] استطاع ان يقتل ماريوس ويطرد حيرياص من الحكم وأعاد الأميرين [illegible] إلى عرش أبيهما.

## يوبا الأول:

وعندما توفي هيامبسال الثاني عام 67 ق. م خلفه ابنه يوبا الأول على حكم نوميديا الشرقية في حين احتفظ ماسينيسا الثاني بنوميديا الغربية، وانحاز الاثنان إلى بومبي في خلافه مع يوليوس قيصر، بينما انحاز بوكوس الثالث وبوغيد ملكا موريطانيا إلى قيصر. وجرت في افريقيا نفسها حروب طاحنة بين الجانبين، وحضر قيصر نفسه إلى افريقيا، وانتصر على خصومه في معركة ثابسوس (رأس الديماس) عام 46 ق. م فانتحر يوبا الأول من جراء الصدمة، وجعل قيصر مملكته ولاية رومانية باسم (ولاية افريقيا الجديدة) وأعطى الجزء الأكبر من نوميديا الغربية (مملكة ماسينيسا الثاني) إلى حليفه بوكوس الثالث (الأصغر) وكوّن ولاية صغيرة بين الولايتين أولى عليها شخصاً رومانياً يدعى ستيوس حتى يحول دون حدوث التصادم بين الأميرين الافريقيين.

ومع أن الأمير عرابيون ابن ماسينيسا الثاني استطاع أن يفتكّ مملكته من ستيوس وبوكوس بعد اغتيال يوليوس قيصر عام 44 ق. م. إلا أن الوالي الروماني سيكستوس حمل عليه واغتاله وأعاد بوكوس إلى مملكته وساعده على توسيع نفوذه والاستيلاء على مملكته بوغيد كذلك عام 38 وبذلك أصبحت مملكته تمتد من المحيط الأطلسي إلى مدينة قرطة.

وفي عام 33 ق. م توفي بوكوس الثالث دون أن يترك وارثاً فعين الامبراطور أو كتافيانيوس (أغسطس الأول) عليها واليين رومانيين مؤقتاً حتى عام 25 ق. م ثم وحّدها وعين عليها الأمير يوبا الثاني.

## يوبا الثاني:

وِلد يوبا الثاني عام 50 وعندما انتحر أبوه يوبا الأول بعد معركة ثابسوس عـ 46 صحبه قيصر معه إلى روما وتولت أوكتافيا زوجة أو

كتافيانوس تربيته حتى كبر فزوجته من كليوبتره سيليني (أي القمر) ابنة كليوبتره الملكة المصرية المشهورة.

وفي عام 25 ق. م. عينه أوكتافيوس حاكماً على افريقيا فاتخذ من مدينة يول (شرشال) عاصمة له واعتنى بتعميرها وتجميلها، وكان محباً للعلم والفلسفة. ولوعاً بالكتابة والتأليف في التاريخ والجغرافيا وللأسف لم يصلنا شيء من كتاباته. وفي عهد يوبا الثاني ثار الأمير النوميدي تاكفاريناس (17 — 23 م) فبذل جهوداً كبيرة لاخماد ثورته ومات قبل أن يوفق في اخمادها فخلفه ابنه بطليموس.

**بطليموس 23 — 40م:**

تولى الحكم أثر وفاة والده ولم يكن في مستوى خبرة وكفاءة، فاستبدّ أنصاره بالشؤون العامة للدولة، وانحاز هو إلى البر وقنصل الروماني، دولا بلا الذي حمل على عاتقه عبء القضاء على ثورة تاكفاريناس ووفق إلى ذلك عام 23م.

وقد ذهب بطليموس في زيارة ودية إلى روما في عهد الأمبراطور كاليقولا (37 — 41م) المعتوه الأحمق، وارتدى ثياباً فاخرة تفوق ملابس الأمبراطور فحقد عليه وأمر في الحال بالقاء القبض عليه واعدامه عام 40م وبموته انتهت مملكة موريطانيا، وحولت إلى ولايتين رومانيتين باسم: موريطانيا القيصرية، وموريطانيا الطانجية. وبذلك سيطر الرومان على الشمال الافريقي كله من طرابلس إلى طانجة، أما البلاد الداخلية فلم يتعدَّ نفوذهم إليها كثيراً خاصة المناطق الجبلية التي احتفظت باستقلالها وبقيت كمراكز للمقاومة الشعبية طوال الحقب التاريخية حتى انتصرت في النهاية على الاستعمار الفرنسي عام 1962 بعد معركة بطولية وملاحم تاريخية فريدة في نوعها لم يحقق مثلها شعب من الشعوب.

## النظام الإداري في افريقيا الرومانية:

عندما تم للرومان السيطرة على بلاد الشمال الافريقي قسموها إلى ثلاث ولايات هي:

1 ــ افريقيا البروقنصلية: وهي بلاد تونس وطرابلس وبعض أجزاء أخرى من شرقي الجزائر الحالية.

2 ــ نوميديا: وهي الجزائر الحالية إلى الوادي الكبير بقرطة (قسنطينة).

3 ــ موريطانيا: من الوادي الكبير إلى المحيط الأطلسي. وفي خلال حكم الامبراطور كلوديوس (268 ــ 270م) قسمت موريطانيا إلى قسمين:

1 ــ موريطانيا القيصرية: وهي الجزائر وتونس الحاليتين تقريباً.
2 ــ موريطانيا الطانجية: وهي بلاد مراكش الحالية إلى المحيط الأطلسي.

وفي عهد الأمبراطور دقليديانوس (284 ــ 305م) حصل تعديل آخر في الولايات الافريقية، فأصبحت ثمانية وهي:

1 ــ ولاية طرابلس، وعاصمتها لبدة.
2 ــ ولاية البيزاسين، وعاصمتها سوسة.
3 ــ ولاية زغوان، وعاصمتها قرطاجنة.
4 ــ ولاية نوميديا العسكرية وعاصمتها لامبيس.
5 ــ ولاية نوميديا الشمالية وعاصمتها قرطة.
6 ــ ولاية موريطانيا السطيفية وعاصمتها سطيف.
7 ــ ولاية موريطانيا القيصرية وعاصمتها شرشال.

طانجة.

8 ـ ولاية موريطانيا الطانجية وعاصمتها طانجة.

ويحكم كل ولاية من هذه الولايات نائب عن الأمبراطور يحمل لقب بروقنصل.

**الاقتصاد والثقافة والعمران:**

لقد حاول الرومان أن يسخروا كل شيء لصالحهم قبل غيرهم، ولهذا كانت كل المشاريع والاصلاحات التي سعوا لانجازها تدعيماً لنفوذهم ومركزهم في البلاد وليس من أجل تحقيق رفاهية أهل البلاد. فمن حيث الثقافة حاولوا أن ينشروا اللغة اللاتينية ما أمكن ففرضوها في الادارات، وأرغموا طلاب العلم على تعلمها ولكن الشعب لم تستهوه لغة المستعمر، ولم يتخل عن لغته القومية أبداً. ومن هنا لوحظ وجود وفشو الجفاف الفكري والعقم الحضاري في عهد الرومان من هذا الجانب بالذات لهذا السبب، ولكون الرومان أنفسهم لم يكونوا شعب الفكر والفلسفة مثل الأغريق واليونان، لأنهم نشأوا على فطرة الخشونة في ظل الحياة العسكرية الشاقة. ويمكن أن ندرك هذا فيما أقاموه من المدن والقلاع العسكرية، وشبكات الطرق التي تربط بينها تحقيقاً لرغبة الاتصال السريع بين مختلف الحاميات العسكرية الرومانية بافريقيا. فمن القلاع والمدن العسكرية التي أقامها الرومان بافريقيا: تيمقاد، ولامبيس، وجميلة، وقالمة، بالجزائر. وسبيطلة، وحيدرة، وقلعة سنان، بتونس.

ومن الطرق التي مددوها وعبدوها:

الطريق الرابطة بين حيدرة وقابس.

الطريق الرابطة بين تبسة وعنابة.

الطريق الرابطة بين قرطاج وتبسة ولامبيس.

الطريق الرابطة بين سطيف وسور الغزلان.

ويجرنا الحديث عن شبكة الطريق إلى شبكة السدود التى اعتنى الرومان بإقامتها لجلب المياه إلى القلاع والمدن العسكرية، ولتنظيم شبكة

البري للأراضي، لأنهم كانوا يعتنون كثيراً بالزراعة والفلاحة حتى يشحنوا لروما أكبر كمية ممكنة من القموح والخضر والفواكه والغلال الافريقية، ولهذا كانت الفلاحة أنشط المشاريع الرومانية بإفريقيا وكانت من أجل مصلحة روما وليس لخدمة الافريقي، ومن هناك كانت إفريقيا في نظرهم (مطمور روما) للقموح ومختلف المحاصيل الأخرى.

وكما اعتنى الرومان بالفلاحة اعتنوا كذلك بغراسة الزيتون والكروم لاستخراج الزيوت والخمور، وبتربية الحيوانات والدواجن لتوفير اللحوم.

واعتنى الرومان كذلك بتشجيع بعض الصناعات للاستهلاك والتصدير مثل النجارة، والتعدين، والنسيج، والدباغة، والصباغة، ومن المعامل التي أقاموها بالجزائر مصنع دباغة الجلود في تيبازة قرب شرشال.

## نهاية الحكم الروماني بالجزائر:

لم يكن حكم الرومان بإفريقيا مستنداً على القاعدة الشعبية، وإنما كان حكماً عسكري الطابع في مختلف مراحله، لعبت الفرق الرومانية العسكرية المرابطة بإفريقيا دوراً هاماً فيه، ولهذا اشتد الظلم على الأهالي، وكثرت الثورات الوطنية وفشا التطاحن بين الولاة والجنود الرومان الذين اشتد تدخلهم في الإدارة وشؤون البلاد طمعاً في السلطة والنفوذ، ورغبة الإثراء على حساب الأهالي.

وقامت ثورة أهالي وقبائل جبال بابور ما بين سكيكدة وقسنطينة عام 253م وتحالف زعماء هذه الثورة مع زعماء قبائل الجمهوريات الخمس: ميلوم (ميلة) وروسقادي (سكيكدة)، وشولو (القلّ)، وكوبيكلوم (جميلة) وقرطة (قسنطينة). ولم تنته هذه الثورة إلا في 262م: لتبدأ ثورات أخرى، ببلاد القبائل الحالية من عام 289 إلى 298م. وفي عام 372 قاد البطل النوميدي فيرموس ثورة مسلحة ضد الرومان بجهات جرجرة واستمرت ثورته حتى عام 375م.

وهكذا استمر التمرد والعصيان طوال النصف الأخير من القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس، وتسبب ذلك في ضعف الإدارة الرومانية وطموح بعض الولاة الرومان إلى الاستقلال عن روما. فاغتنم الوالي الروماني بونيفاس الفرصة عندما عزلته حكومته وأعلن العصيان والانفصال عن روما عام 427 م، وحتى يضمن البقاء في منصبه استنجد بالوندال الذين كانوا يحكمون إسبانيا فلبوا دعوته وزحفوا على إفريقيا عام 429م وطردوا منها الحكومة الرومانية وبذلك انتهى عهد الرومان ليحل عهد الوندال.

# الجزائر في عهد الوندال
# 429 — 534 م

كانت الشعوب الجرمانية البربرية تقطن حول بحر البلطيق شمالي قارة أوروبا بعد أن زحفت من شبه الجزيرة الاسكندينافية. وفي القرنين الأول والثاني الميلاديين انتشر الجرمان في أواسط أوروبا وشرقيها عبر نهر الراين والدانوب ومن هناك تحركوا جنوباً واستقروا ما بين نهري الألب والراين.

والوندال أحد هذه الشعوب الجرمانية البربرية استوطنوا سواحل البلطيق شمالي نهر الدانوب حوالي القرن الثالث قبل الميلاد. وخلال القرن الخامس الميلادي بدأوا ينتشرون في جنوب ألمانيا، ثم تقدموا إلى بلاد غالة (فرنسا) واحتلوها ومن هناك عبروا جبال البرانس (البيرني) إلى اسبانيا واستولوا عليها عام 409م. وسكنوا بجهات غرناطة وجيان، ومن يومئذ دعيت البلاد باسمهم «وندالوسيا» وصحفه العرب الفاتحون إلى اسم «الأندلس».

وعندما اشتدت المؤامرات الداخلية ضد بونيفاس 422 — 421م. الحاكم الروماني على افريقيا في مدينة سبتة، عزلته حكومته عام 427م. فعصا أمرها واستنجد بالوندال الذين كانوا يحكمون اسبانيا فلبوا طلبه وعبروا مضيق جبل طارق إلى افريقيا عام 429م. في جموع كثيرة تقدر بنحو ثمانين ألف شخص ما بين الرجال والنساء والشيوخ والأطفال يقودهم ملكهم جزريك Gaiseric (419 — 477م) وسيطروا على الجزء الغربي من الشمال الافريقي.

وأثناء هذه الفترة قام القديس أوغسطين أسقف مدينة عنابة بمساع حميدة لدى الحكومة الرومانية بروما وأقنع الأمبراطور الضعيف (فالنشيان) (425 ـ 455م) وأمه المتسلطة عليه، فأعادت بونيفاس إلى ولايته، وطلب من الوندال أن يرحلوا عن إفريقيا ولكنهم رفضوا ذلك فأعلن عليهم الحرب وهزموه في ضواحي قالمة فانسحب إلى عنابة وتحصن بها فتتبعوه إلى هناك وافتكوا منه المدينة عام 431 وجعلوها عاصمة لهم.

وفي عام 435 عقد الوندال مع السلطات الرومانية اتفاقاً اعترفوا بحمايتها وسلطتها عليهم، والتزموا بوقف نفوذهم عند حدود نوميديا، ودفع غرامة سنوية لروما مع وضع هنريك بن جزريك رهينة عندها. ولكنهم لم يحترموا هذا الاتفاق طويلاً بل اغتنموا فرصة انشغال الرومان بمحاربة القوط وشنوا حملة كبيرة على مدينة قرطاجنة واستولوا عليها عام 439 ونقلوا إليها عاصمتهم وأسسوا دولة وراثية تداول الحكم فيها ستة ملوك هم:

جزريك (429 ـ 477).
هنريك (477 ـ 484).
جونثاموند (484 ـ 496).
ثراساموند (496 ـ 523).
هلدريك (523 ـ 531).
جليمار (531 ـ 534).

وعندما سيطر الوندال على الشمال الافريقي اهتموا بمصير جزر حوض البحر الأبيض المتوسط وشنوا حملات بحرية كثيرة استولوا بواسطتها على جزر البليار، وسردانيا، وكورسيكا، وصقلية، وأغاروا على روما واحتلوها عام 455 ونهبوها لمدة 15 يوماً ثم رحلوا عنها.

ولم يكن الوندال أهل حضارة ولا كانوا يقدرون القيم الحضارية، بل إنهم قوم غلاظ يرتبط اسمهم بكل مفاهيم الوحشية والهمجية، حكموا

البلاد بالاستبداد المطلق وصادروا الضياع من الأهالي، وانتزعوا منهم أملاكهم وأراضيهم، وتعسفوا في جمع الضرائب، واتبعوا سياسة دينية متطرفة فصادروا ممتلكات الكنيسة الكاثوليكية واضطهدوا رجال الدين الكاثوليك اضطهاداً بالغاً، لأنهم كانوا أريوسيين، وبالغوا في ممارسة سياسة النهب والسلب، وتهديم كل معالم الحضارة والعمران، بقدر ما كانوا ينغمسون في حياة اللهو والمجون.

وكرد فعل لهذه الأعمال الوحشية قامت في البلاد ثورات وطنية عديدة تطالب بتحرير البلاد، وفي نفس الوقت نشبت خلافات بين الوندال أنفسهم على السلطة فكثرت الدسائس وعمت المؤامرات ضد كل حاكم منهم.

وقد حاول جليمار إنقاذ الوضع من ذلك الفساد، والتعفن، وسعي دون جدوى لإطفاء نار تلك الثورات الأهلية بالقوة والعسف، واستنجد هلدريك المخلوع بالأمبراطور جستنيان البيزنطي (527 ــ 575م) ليساعده على العودة إلى العرش، فأنجده ووجه حملة بيزنطية كبيرة عام 533 إلى إفريقيا بقيادة بليزاريوس. وصادف وصول هذه الحملة غياب الأسطول الوندالي في المياه الإيطالية محاصراً لجزيرة سردينيا الثائرة، وغيابه نفسه بالجنوب التونسي في جهات الفراشيش من أجل القضاء على ثورة الأمير انطلاس. وهكذا أحرزت الحملة البيزنطية النصر واحتلت مدينة قرطاجنة عام 534 بعد عدة وقائع هامة في نواحي مدينة تونس الحالية. ووقع جليمار نفسه أسيراً في يد رجال الحملة، وكان ذلك نهاية الحكم الوندالي في إفريقيا بعد قرن من الاحتلال والظلم والطغيان.

ولم يخلف الوندال أي أثر حضاري في البلاد نظراً إلى أنهم، كانوا بداة متوحشين كما سبق، لا يفهمون للحضارة أي معنى.

# الجزائر في عهد البيزنطيين
# 534 ـ 647 م

بعد أن استولى القائد البيزنطي بليزاريوس على ولاية تونس وطرد من قرطاجنة حكومة الوندال تقدم نحو (نوميديا) الجزائر واستولى على مدن: عنابة، وقسنطينة، وقالمة، وبلاد الحضنة، وأوراس، وشرشال، وتنس، وبجاية، وغيرها من البلاد الساحلية، ثم بنى حصوناً واستحكامات على أطراف البلاد لحمايتها. ولم يمتد نفوذ البيزنطيين إلا على الشريط الساحلي في الجهات الغربية. أما الناحية الشرقية فقد مدوا نفوذهم فيها إلى الجنوب وسيطروا على مدن: تبسة وخنشلة، وتمقاد، ولامبيس، والمسيلة، وطبنة (بريكة). ولما كانت معاملة البيزنطيين للأهالي سيئة فقد صادفتهم صعاب كبيرة، وقامت ضدهم في البلاد ثورات وطنية متعددة، وبرز أبطال أفارقة في الميدان أمثال: بيداس، وكوتسيناس، وسطوزاس، وأنطلاس، وميناس، وأورثاياس.

وقد بدأت هذه الحوادث عندما رحل بليزاروس عن افريقيا واستخلف عليها صولون (سليمان الخصي) فثار الأهالي ضده وتزعم كوتزيناس هذه الثورة وحاصر بجنوده قوات سليمان حتى أبادها. وعندما أعاد سليمان الكرة عام 435 انسحب كوتزيناس إلى أماكن أخرى، ولكن هجمات الأميرين النوميديين بيداس، وميناس أحرجت موقف الخصي ولم تفلح عيونه في القبض على بيداس بجبل شلية في بلاد الأوراس. وفي ربيع عام 536 حاول الخصي أن يجدد الكرة على بيداس ولكنه فشل وهرب إلى قرطاجنة فصقلية حيث طلب نجدة بليزاريوس فلبى طلبه وحضر إلى افريقيا لمعالجة الموقف فاجتهد ما أمكن لوضع حد لتلك الفوضى.

وعندما رحل تجددت الثورة، وكانت هذه المرة ثورة الجنود والجيش بقيادة سطوزاس، فعين جستنيان أميراً جديداً على إفريقيا يدعى جرمان فنهض بأمر الحرب ضد قائد هذه الثورة ولكن بيداس وأريثاس خدعاه وقضيا على قواته عندما حاول الفرار اليهما هروباً من قوات سطوزاس، ففر إلى جهات موريطانيا.

وفي عام 539 عزل جرمان وأعيد سليمان الخصي إلى ولاية إفريقيا فصمم على محاربة أمراء الأوراس فاستمال إليه الأمير انتيلاس، وبعث طلائع قواته إلى أوراس عام 540 ثم لحق بها هو وفتح بعض الجهات والمناطق، وعاد إلى قرطاجنة وقتله حليفه أنتيلاس عام 545. فعين الامبراطور مكانه يوحنا طرغلطا والياً على إفريقيا فعمل على اتمام مهمة سلفه في مقاومة الثورات الوطنية، ومتابعة بيداس أين ما كان، وكانت خطته أحداث الخلاف والشقاق بين زعماء إفريقيا والاستعانة ببعضهم ضد البعض الآخر، وبهذه الوسيلة استطاع أن يخضع بيداس إلى نفوذه عام 548، ولكن الثورات لم تنته حتى أنه في عام 598 وصل الثائرون إلى أبواب قرطاجنة وحاصروها مدة من الزمن.

## نهاية الحكم البيزنطي بإفريقيا:

كان البيزنطيون مثل أسلافهم الرومان يمارسون سياسة العسف والظلم والاضطهاد ضد الأهالي الذين نفروا من سلطتهم وامتنعوا عن تأييدهم في كل الظروف، ومع أن البيزنطيين في عهد جستنيان استطاعوا أن يسيطروا على البلاد نظراً إلى ما يتمتع به هذا الامبراطور من سمعة وشخصية وقوة وحكمة، ولكن خلفاءه من بعده كانوا ضعافاً شغلتهم حروبهم ضد الفرس عن العناية بإفريقيا ومراقبة ولايتها.

وفي عام 602 م ثار فوكاس قائد الجيوش البيزنطية بالدانوب على الامبراطور موريس، وأعلن نفسه امبراطوراً على الدولة البيزنطية. فغضب

هرقل الحاكم العام وقائد الجيوش البيزنطية بإفريقيا على هذا العمل وثار على فوكاس عام 608م وقطع عنه شحنات القمح التي كانت ترسل إلى العاصمة البيزنطية، ثم استجاب لرغبات البيزنطيين الذين رجوه أن يخصلهم من ديكتاتورية فوكاس، ويستلم عرش الدولة، وبعث إليهم ولده الذي كان يسمى هرقل أيضاً على رأس حملة بحرية أقلعت من قرطاجنة إلى سالونيك في شرقي البحر الأبيض المتوسط. وفي نفس الوقت وجه حملة أخرى برية بقيادة نيكيتاس ابن عمه جريجوريوس الأول عن طريق ليبيا، ومصر، والشام. وتمكن هرقل الصغير من الوصول قبله فقتل فوكاس واستولى على عرش الدولة البيزنطية وأصبح امبراطوراً. وعندما مات هرقل الكبير بإفريقيا عام 610م، عين الأمبراطور هرقل الصغير، عمه البطريق جريجوريوس حاكماً عاماً على افريقية، ثم قيصريوس، ثم نيكيتاس ابن جريجوريوس الأول. وبعد نيكيتاس تولى ابنه جريجوريوس الثاني «جرجير» الذي زحف خلال ولايته العرب الفاتحون من الشرق عام 27هـ (647م) بقيادة حاكم مصر عبدالله بن سعد بن أبي سرح، وحاصروه في مدينة سبيطلة التي تقع في الوسط التونسي جنوب مدينة القيروان الحالية وتمكنوا من قتله وتشتيت جموعه، وبذلك انطوت صفحات تاريخ العهود المظلمة ليبدأ عهد الجزائر العربية المسلمة.

ولم يقم البيزنطيون بعمل ذي بال في ميادين الاصلاح ولم يخلفوا وراءهم سوى بعض الحصون والقلاع العسكرية، فلم تزدهر الثقافة، ولم يكثر العمران. ولعل ما يمكن أن يسجل للبيزنطيين هو أنهم قاموا بتمديد الطرق وتعبيدها بين مختلف المناطق التي سيطروا عليها وشجعوا حركة الفلاحة والزراعة لكن لينتفعوا بها هم دون الأهالي. فالطرق من أجل تسهيل الربط بين مختلف الحاميات العسكرية والادارات المدنية، والفلاحة من أجل تموين العاصمة البيزنطية قبل غيرها، وتلك هي سياسة المستعمر في كل العصور.

# القسم الثاني

# الجزائر العربية المسلمة

# تمهيد في أصل العرب وموطنهم

العرب من الأمم **السامية** التي تنتسب إلى سام بن نوح نزحوا من بلاد ما بين النهرين دجلة والفرات إلى شبه الجزيرة العربية في الجنوب الغربي من قارة آسيا.

وينقسمون من ناحية الأصل إلى قحطانيين وعدنانيين.

أما القحطانيون فهم سكان جنوب شبه الجزيرة أو ما يسمى حالياً: اليمن وعمان وكل إمارات الجنوب العربي، وكانوا أصحاب ملك واسع وحضارة زاخرة حتى أواخر القرن السادس قبل الميلاد.

وأما العدنانيون فهم سكان الشمال ورثوا ملك أبناء عمومتهم القحطانيين في الجنوب.

وبرعوا في قول الشعر الجاهلي. ومن قبائلهم قريش التي أنجبت الرسول محمدًا بن عبد الله عليه الصلاة والسلام.

وتنقسم القبائل العربية في العصر الجاهلي إلى ثلاثة أقسام هي:

1 ــ العرب العاربة.

2 ــ العرب المتعربة.

3 ــ العرب المستعربة.

أما العرب العاربة فيقال لهم أيضاً العرباء والبائدة لأنهم انقرضوا جميعاً وبادوا ولم يبق منهم إلا أخبارهم، وهم تسع قبائل على ما قيل أشهرها: عاد، وثمود، وطسم، وجديس، وجرهم، وقد جاءوا من بابل إلى بلاد العرب في عهود قديمة جداً.

وأما العرب المتعربة فهم بنو قحطان، وسموا بهذا الإسم لأنهم تعربوا عن العرب البائدة وأخذوا عنهم لغتهم، وأخلاقهم، وسلوكهم، وسكنوا مثلهم البادية وكانوا على حظ كبير في الآداب والثقافة واتسع نفوذهم خارج اليمن إلى كثير من الجهات المجاورة في الجزيرة العربية. وكانوا يتكلمون اللغة الكلدانية العراقية إلى أن تعلم يعرب بن قحطان التكلم بالعربية فتعلمها منه قومه على ما قيل. وأشهر أبناء يعرب: عبد شمس الملقب بسبأ ومؤسس مدينة مأرب وسدها الشهير، ويعتبر أباً لكل القبائل العربية. وإلى العرب المتعربة هذه ينتسب كل ملوك الحيرة وغسان، ومن دولهم القديمة سبأ التي بلغت شأواً بعيداً في الحضارة والقوة والتقدم حتى أصبحت مضرب الأمثال، وعندما ضعفت قامت الدولة الحميرية لتحل مكانها وتواصل رسالتها واستمرت زمناً طويلاً حتى ظهرت القوى العربية العدنانية في الشمال وأخضعت إليها كل شبه الجزيرة العربية.

ويطلق على العدنانيين اسم العرب المستعربة، وينتسبون إلى عدنان الذي يتصل نسبه بإسماعيل بن ابراهيم الخليل عليه السلام. وسموا مستعربة لأنهم امتزجوا بالقحطانيين في اللغة والنسب. وهم قبائل كثيرة سكنت بلاد الحجاز أولاً ثم توزعت في نجد والعراق، واليمامة، وبادية الشام. وكانوا رحالين يتنقلون في البادية وراء العشب والكلأ، وحيث الماء والصيد باستثناء قبيلة قريش التي كانت تسكن المدن مثل مكة وجدة والمدينة.

وأهم القبائل العدنانية وأكبرها: قبيلة معد التي تفرعت منها كل القبائل العدنانية، ومنها مضر التي انفردت برئاسة الحرم، وتفرعت منها كنانة وقريش. وتعتبر قريش أشهر القبائل العدنانية في العصر الجاهلي الأخير قبيل ظهور الإسلام، وكانت لها السلطة والمشورة على معظم القبائل العربية في الشمال، وتشعبت إلى خمس وعشرين بطناً أشهرها قصي الذي تولى رياسة الكعبة، ومنه تفرع بنو مناف الذين تفرع عنهم بنو هاشم قوم الرسول عليه الصلاة والسلام.

## الدول والممالك العربية في العصر الجاهلي:

كان للعرب في العصر الجاهلي دول كبيرة عديدة، وممالك صغيرة متفرقة أشهرها:

**أولا ــ الدولة المعينية:** وقد تأسست بجنوب شرقي بلاد اليمن قبل ميلاد المسيح بحوالي ألف سنة، وأتخذت مدينة (معين) عاصمة لها، وكان نظام الحكم فيها ملكيا وراثيا يساعد الملك فيها مجلس إستشاري. وقد أهتم المعينيون بالتجارة، ووصلت قوافلهم التجارية إلى سوريا ومصر، وبعض جزر البحر المتوسط، وهم أقدم من أستعمل الحروف الهجائية في الكتابة، ومنذ القرن الثامن قبل الميلاد بدأت تضعف دولة معين، وظهرت على مسرح الأحداث دول جديدة أخرى أشهرها دولة سبأ.

**ثانيا ــ الدولة السبئية 850 ــ 115 ق. م:** نشأت باليمن كذلك، وأتخذت مدينة مأرب عاصمة لها، ومرّ حكمها بثلاثة أدوار:

في الدور الأول، كان نفوذها محدودا، ويحمل رؤساؤها لقب المكرِّب المقدس، وفي الدور الثاني أزداد نفوذها انتشارا، وأصبح رؤساؤها يحملون لقب ملوك سبأ، وفي الدور الثالث، توسعت رقعتها أكثر وعلاصيتها، وأصبح ملوكها يحملون لقب ملوك سبأ وريدان. وقد أهتم السبئيون بالفلاحة والزراعة كثيرا، فقاموا بحفر الترع والقنوات، وإنشاء السدود لتنظيم حركة الري للأراضي أشهرها سدّ مأرب الذي ورد ذكره في القرآن الكريم **﴿لقد كان لسبأ في مساكنهم آية جنّتان عن يمين وشمال، كلوا من رزق ربكم وأشكروا له بلدة طيبة وربّ غفور، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم، وبدلنا هم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط، وأثل، وشيء من سدر قليل، ذلك جزيناهم بما كفروا، وهل يجازي إلا الكفور﴾**.

وكان لهذا السد الكبير دور كبير في إزدهار دولة سبأ الاقتصادي، وساعدها ذلك على فرض سيطرتها السياسية على كل بلاد اليمن. وربط علاقات الصداقة مع الدولتين المصرية، والأشورية، واهتمت كذلك بالعمران، فأنشأت عددا من المعابد والقصور ما تزال بعض آثارها قائمة حتى اليوم.

وفي أواخر عهد هذه الدولة، تولى أمرها ملوك ضعاف فأنفصلت عنها بعض المدن، والأقاليم، وتمكن الرومان من السيطرة على المجال الحيوي لها من الناحية الاقتصادية وهي الطرق التجارية العالمية بين الشرق والغرب، فزاد ذلك في ضعفها، وأنفسح المجال لظهور الدولة الحميرية.

**ثالثا ــ الدولة الحميرية 115 ق. م 525م:** ظهرت في جنوب بلاد اليمن وأتخذت مدينة ظفار (ريدان) عاصمة لها، وسيطرت وأخذت تتوسع شيئا فشيئا حتى قضت على دولة سبأ وسيطرت على بلاد اليمن والحجاز، ومعظم شبه الجزيرة العربية، وأنتشرت في عهدها الديانة المسيحية ببلاد اليمن عن طريق مسيحي الحبشة وحاول بعض ملوكها مقاومتها خاصة ذونواس الذي أحرق البعض منهم كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذهم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود**﴾. فأثار ذلك ثائرة نجاشي الحبشة وأرسل حملة أحتلت بلاد اليمن، وقضت على الدولة الحميرية في طورها الأول. وحاول والي الحبشة أبرهة، أرغام الناس على اعتناق المسيحية، فبنى لهم كنيسة سماها «القليس» ثم جهز حملة قادها بنفسه لهدم الكعبة بمكة ولكنه ذهب هو وجيشه ضحية هذا الغرور الطائش كما ورد ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجين، فجعلهم كعصف مأكول**﴾.

وقد قام اليمنيون بزعامة سيف بن ذي يزن بطرد الأحباش من بلادهم، بمساعدة ملوك الفرس الساسانيين، وعندما توفي إبن ذي يزن تولى حاكم ساساني إدارة بلاد اليمن من مدينة صنعاء إلى أن ظهر الاسلام فأسلم، وانضم إلى حكومة الرسول محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، بالمدينة. وقد كان ملوك الدولة الحميرية ينقسمون إلى طبقتين أثنتين:

- طبقة الملوك من 115 ق. م إلى 275م بعد الميلاد.
- طبقة التبابعة من 175 إلى 525م بعد الميلاد.

**رابعا ـ دولة المناذرة 267 ـ 632م**: ونشأت في مدينة الحيرة قرب مدينة الكوفة في الطرف الغربي من بلاد العراق الحالية. وقد نزح ملوك لخم المعرفون بالمناذرة إلى هذه المدينة مع قبائل اليمن اثر انهيار سدّ مأرب. فازدهرت كثيراً وبلغت شأواً بعيداً في الحضارة والعمران. واستطاع ملوكها أن يوسعوا نفوذهم وسيطرتهم على بلاد العراق، ونجد خاصة في عهد الملك المنذر بن ماء المساء حيث امتدت سلطته ما بين شط العرب إلى بلدة (هيث) على نهر الفرات وقد اشتهر أهل الحيرة بالعلوم والآداب، وإليهم ينسب الخط العربي المعروف بالخط الكوفي.

وكان ملوك الحيرة يخضعون لنفوذ أكاسرة الفرس مثلما كان ملوك الغساسنة يخضعون لنفوذ دولة الروم. واشتركت الإمارتان في الصراع البيزنطي الفارسي وامتلأ تاريخهما بالحروب والأهوال، ولم يستفد من هذا الانقسام والعداء سوى الفرس والرومان، واستمر هذا الوضع حتى ظهر الاسلام، وقضى العرب المسلمون عل دولتي الفرس والرومان معاً في وقت واحد، وانتزع خالد بن الوليد هذه البلاد منهم، وتوحدت البلاد العربية كلها في دولة واحدة شملت فيما بعد شبه الجزيرة العربية والعراق والشام.

**خامسا ـ دولة الغساسنة**: وينتسب مؤسسوها إلى القحطانيين، وهم من قبيلتي الأوس والخزرج، هاجروا من بلادهم بعد فيضان سيل العرم على

إثر انهيار سد مأرب ونزلوا على ماء بئر يقال له غسان قرب دمشق فعرفوا بذلك الاسم، واستطاعوا ان يسيطروا على بلاد حوران والبلقاء، وأسسوا لهم مملكة واسعة في الشام بعد أن طردوا الضجاعمة منها.

وقد اتخذ الغساسنة عاصمتين يتنقلون بينهما وهما: مدينة (بصرى) التي تدعى اليوم اسكي الشام، ومدينة الجابية جنوبي دمشق. وبلغت دولة غسان مكانة عالية في الحضارة والتطور خاصة في عهد الحارث بن جبلة، وامتد نفوذها حتى شمل ما بين الجولان، وتدمر والشام. وسيطرت على القبائل العربية النازلة في حوران وفي أطراف الدولة البيزنطية. وخلف الغساسنة آثارا حضارية وعمرانية مثل القصور والسدود والحمامات وأقواس النصر. وكما سبق فان الغساسنة كانوا يخضعون لنفوذ قياصرة الروم البيزنطيين الذين عهدوا إليهم أن يدافعوا على حدود دولتهم الواسعة ضد المناذرة الذين تحالفوا مع الفرس أعدائهم الأصليين.

**سادسا ــ مملكة كندة 450 ــ 540م:** وإلى جانب تلك الدول الثلاثة الكبيرة هناك أيضاً مملكة كندة التي نشأت في اقليم نجد. وقبائل كندة مشهورة يتصل نسبها بعرب الجنوب من بني كهلان، عاشت حياة البداوة قروناً عديدة حتى نهض فيها حجر بن عمر وآكل المرار في منتصف القرن الخامس الميلادي فنظم أمورها وحسن أحوالها، وأصبح باعث دولة كندة الأول. وعندما توفي خلفه عدد من الملوك والأمراء واختلف أمرها بين القوة والضعف حتى ظهر الاسلام ودخلت ضمن من دخل في اطار الدولة العربية الاسلامية الكبيرة.

وهناك عدد آخر من الإمارات العربية الصغيرة ظهرت في مناطق متفرقة ومتعددة، وفي أزمنة مختلفة حكمها عدد من الأمراء العرب أشهرهم:

1 ــ عمر بن لحي الذي كان سلطاناً على بلاد الحجاز في أوائل القرن الثالث بعد الميلاد.

2 ـــ زهير بن حباب الذي كان ملكاً على قضاعة.

3 ـــ زهير بن جذيمة الذي كانت له السيطرة والنفوذ على بلاد هوازن.

4 ـــ قيس بن زهير العبسي الذي خلف أباه في نفوذه وكان هو السبب في نشوب حرب داحس والغبراء المشهورة.

5 ـــ كليب بن ربيعة الذي نادى به عرب الشمال من قبائل معدّ ملكاً عليهم بعد انتصارهم على جيوش اليمن في يوم خزاري المشهور من أيام العرب.

## حضارة العرب في الجاهلية:

كان العرب في جاهليتهم شعباً متحضراً يتمتع بمواهب فكرية، وفطنة سحرية ملهمة. وكان العربي بفطرته يعشق الحرية ولا يخضع لأي سيطرة عدا نفوذ رئيس قبيلته. وهناك اختلاف واضح بين عرب الجاهلية الأولى وعرب الجاهلية الثانية الذين يقتربون من عهد ظهور الاسلام، في اللغة والعقيدة والأخلاق والآداب، ووصلت الينا آداب العرب في الجاهلية الثانية عن طريق المشافهة بسبب عدم معرفتهم للقراءة والكتابة، ومعاشرتهم لحياة البداوة التي هي طابعهم الخاص، وقد امتازوا بوسع مداركهم العقلية والخلقية، ويظهر تمدنهم فيما خلفوه لنا من الآداب العربية الأصيلة كاللغة والشعر، والخطابة والنسب، والأمثال والأخبار والأسواق ومجالس الأدب وغيرها.

ومما ساعد العرب على التطور الفكري والحضاري اتصالهم المستمر بالعالم الخارجي عن طريق القوافل التجارية التي كانوا يوفدونها إلى الشام في الصيف، وإلى اليمن في الشتاء كما ورد ذلك في القرآن الكريم. ومن هناك ندرك ذلك الازدهار التجاري والاقتصادي الذي تتمتع به العرب، كما ندرك تلك الأوصاف الحميدة التي اتصفوا بها والتصقت بهم مثل، الشجاعة والكرم، والعفة والإباء، والصدق والثبات، والأمانة وحماية الجار والأعراض وغيرها.

## ظهور الإسلام:

ولد محمد عليه الصلاة والسلام بمكة عام 570م المعروف بعام الفيل، وهو ابن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف بن قصي، من قبيلة قريش، وينتهي نسبه إلى إسماعيل ابن ابراهيم الخليل عليه السلام. وقد شب وترعرع في حجر جده عبدالمطلب ثم عمه أبي طالب لأن أباه توفي وهو ما يزال في بطن أمه آمنة بنت وهب، وقيل بعد ميلاده بشهرين، وأرضعته حليمة السعدية، وتوفيت أمه في السنة السادسة من عمره بالابواء قرب المدينة بينما كانت راجعة من عند أخواله بني النجار، فكفلته أم أيمن الحبشية. وبعد عامين آخرين توفي جده عبدالمطلب فتولى رعايته عمه أبو طالب وصحبه معه إلى الشام في تجارة مع قافلة قريش في السنة التاسعة، أو الثالثة عشرة، ورجع به قبل أن يتم الرحلة خوفاً عليه من مكر اليهود بإشارة من الراهب بحيري أحد رجال الدين المسيحيين في مدينة بصرى. وشهد حرب الفجار بمكة عام عشرين من عمره بين قريش وحلفائها من جهة وقيس وحلفائها من جهة أخرى، ثم ذهب مرة أخرى إلى الشام في تجارة بأموال خديجة بنت خويلد إحدى شهيرات نساء قريش وصحبه في هذه الرحلة ميسرة غلام خديجة ولقيت تجارته نجاحاً وربحاً وافراً فرغبت خديجة في الزواج منه وعرضت عليه الفكرة وهو في سن الخامسة والعشرين وهي في سن الأربعين فرحب بالأمر وتزوجها وبارك لهما ورقة بن نوفل عم خديجة وأحد الذين كانوا يؤمنون بوحدانية الله ولا يعبدون غيره من الأصنام.

وفي عام خمسة وثلاثين من عمره حضر تجديد الكعبة بعد أن جرفتها السيول، وحكمه أهل مكة عندما اختلفوا في مشكلة من يعيد الحجر الأسود، إلى مكانه فكان خير حكم. ولما بلغ سن الأربعين نزل عليه الوحي وبعثه الله نبياً ورسولاً فجهر بالدعوة وصدع بما أمره الله فاستجاب له ولدعوته نفر قليل من أقربائه وأصدقائه الذين اعتقدوا صدق دعوته ونبوته

ومنهم: أبو بكر الصديق، وخديجة بنت خويلد، وعلي بن أبي طالب، ثم تبعهم عدد آخر من بطون قريش حتى أصبحوا جماعة قوية. غير أن الأغلبية العظمى من قريش كانوا يعارضون دعوة محمد، ويتمسكون بنظامهم الوثني القديم مع ما فيه من فساد وتخلف، ولم يقفوا عند المعارضة فقط بل عمدوا إلى ممارسة الاضطهاد ضده وضد معتنقي دعوته الجديدة، فألحقوا الأذى، وعذبوا من أصحابه بلالاً وصهيباً، وعمار بن ياسر، وسمية، وأهانوا غيرهم. واشتد الأذى على هذه الجماعة الجديدة حتى اضطر محمد وقومه بنو هاشم أن يدخلوا إلى الشعب بجوار مكة ويمكثوا فيه قرابة الثلاث سنوات مقاطعين شبه محاصرين أوقفت قريش كل معاملاتها معهم تجارياً واجتماعياً. وفي هذه الأثناء أمر محمد بعض أصحابه أن يهاجروا إلى الحبشة فهاجروا مرتين المرة الأولى وفي قلة وعادوا إلى مكة بعد شهرين، والمرة الثانية في كثرة وبقوا هناك إلى أن لحقوا به في المدينة. وبعد أن خرج محمد وقومه من الشعب في العام العاشر للبعثة بعد نقض الصحيفة رأى أن ينقل دعوته خارج مكة وإلى أقوام آخرين من غير قريش فذهب مع مولاه زيد بن حارثة إلى الطائف عساه يجد هناك من يستجيب لدعوته، وبقي هناك شهراً كاملاً ثم عاد بعد أن تأكد عزوف الأغلبية عنه وتجرؤ بعض الصعالكة العرب على إلحاق الأذى به بشكل غير لائق. وفي مكة أخذ يعرض نفسه على الحجاج في مواسم الحج ويشرح لهم رسالته الجديدة فآمن به وبرسالته نفر من حجاج الأوس والخزرج سكان يثرب (المدينة)، وتمت بينه وبينهم بيعتا العقبة الأولى في السنة الثانية عشرة والثانية في السنة الثالثة عشرة، على أن يهاجر هو وأصحابه إلى المدينة، ويتولوا هم حمايته ورعاية دعوته ضد خصومه. وبهذه المبايعة أخذت الجماعة الإسلامية تتجه اتجاهاً آخر جديداً، فأمر الرسول أصحابه أن يسبقوه إلى المدينة ثم لحق بهم هو في ليلة الأثنين الثاني عشر من ربيع الأول عام ثلاثة عشر من بعثته الموافق لعام 622م. وهناك شرع في تنظيم الشؤون العامة لهذه الجماعة الجديدة وأسس مسجداً للصلاة اتخذه مكاناً لإدارة شؤون المسلمين العامة، ووضع لهم

دستوراً استمده من القرآن الكريم يتضمن شؤون الحرب والسلم والديات والفصل في الخصومات وشؤون الميراث وتوفير الأمن العام للبلاد وأهلها، وبذلك بدأ تأسيس الدولة الإسلامية التي نمت نموها التاريخي المشهور.

ولقد كان رسول آلله وأصحابه خلال اقامتهم بمكة يقفون موقف المدافع فقط مع محاولة نشر الدعوة الإسلامية بالطرق السلمية، وبوسائل الاقناع، ولكن هذا الموقف تغير بعد أن هاجر الرسول وأصحابه إلى المدينة وتأكدوا أن قريشاً وأنصارها لا ينصاعون لهذه الدعوة إلا بالقوة فقط. فبعد سنة من الهجرة شرع الرسول في الجهاد لنشر الدين الإسلامي، والدفاع عن الدعوة الجديدة وأصحابها. وشارك بنفسه في كثير من الغزوات الإسلامية الكبيرة مثل: غزوة بدر الكبرى، وأحد، وقريضة، والحديبية، والأحزاب، وخيبر. وفي العام الثامن للهجرة رأى الرسول أن يضع حداً للمشركين من قريش وقرر أن يغزو مكة ويفتكّها منهم نهائياً فذهب على رأس جيش كبير من عشرة آلاف مجاهد من أصحابه، ودخل مكة وطهر البيت الحرام من الأصنام المعبودة، وكان فتح مكة وإسلام أهلها من أكبر الانتصارات التي أتاحت للدعوة الإسلامية أن تنتشر في كامل شبه الجزيرة العربية بسرعة وبصورة مدهشة فأسرعت القبائل إلى الإسلام وتلاشى خصوم الدعوة الإسلامية وتفتتوا حتى لم يبق لهم أثر.

## وفاة رسول آلله وقيام الخلافة الإسلامية:

ولقد استمر الرسول عليه الصلاة والسلام بعد فتح مكة ينشر الدعوة الإسلامية بأطراف شبه الجزيرة العربية، وذهب بنفسه إلى مكة في العام الثالث لفتحها ليحج حجة الوداع، وخطب في جموع المسلمين بعرفات وقرأ عليهم قول آلله تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾ فأدرك المسلمون أن محمداً قد انتهى من دعوته وأن أجله دنا وقرب لا محالة.

وفي طالع السنة الحادية عشرة للهجرة (632م) مرض الرسول عليه الصلاة والسلام وتوفي صباح الأثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول عن ثلاثة وستين عاماً قضى منها أربعين عاماً بمكة قبل النبوة وثلاثة عشر بعدها ثم عشر سنين بالمدينة بعد الهجرة.

ولقد توفي الرسول دون أن يوصي لأحد بالخلافة فواجه المسلمون مشكلة بالغة الخطورة، وقبل أن يتم تجهيز جثمان الرسول ودفنه اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ليسبقوا المهاجرين لاختيار رجل منهم يخلف الرسول فعلم المهاجرون بالخبر وخافوا افتراق الكلمة ووقوع الفتنة، فأسرع ثلاثة من أقطابهم إلى مكان الاجتماع وهم: أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وأبو عبيدة عامر ابن الجراح، وتبادل الفريقان الخطب والعبارات الشديدة وبرز من جديد عامل التنافس القديم بين قبيلتي الأوس والخزرج وهم من الأنصار كلهم فضعف جانبهم وسد عمر بن الخطاب الطريق في وجههم وتقدم إلى أبي بكر وبايعه فتتابع المهاجرون من بعده لمبايعته حتى كادوا أن يدوسوا سعد بن عبداة الأنصاري الذي كان مريضاً هناك، وتلاهم في البيعة قبائل غفار ومزينة حول المدينة، ثم تقدم الأوس وبايعت لتقطع على الخزرج ما أرادت، وأخيراً بايعت الخزرج كذلك عن كره منها. وفي اليوم التالي بايع الناس كلهم أبا بكر بيعة عامة في المسجد بعد أن تم تجهيز جثمان الرسول ودفنه في بيت عائشة حيث توفي، ولقبوه خليفة رسول الله، وبذلك قام نظام الخلافة الإسلامية التي استمرت قروناً طويلة حتى ألغاها مصطفى كمال أتاتورك عام 1924م. وكانت وفاة رسول الله صدمة كبرى لكثير من الصحابة حتى أن بعضهم لم يصدق أنه توفي، وانما غاب كغيبة موسى وسيرجع، كما كانت وفاته فرصة لمن لم يصدقوا في إسلامهم فأعلنوا الردة عنه، وتحرج موقف حكومة المدينة واختلف بعض الصحابة مع الخليفة أبي بكر في الطريق والوسيلة التي يجب اتباعها لمجابهة الموقف. ولكن أبا بكر صمم على أن يحاربهم ولو على عقال بعير كانوا يؤدونه لحكومة الرسول، وأن يعيدهم إلى الاسلام مهما كلفه ذلك من ثمن. وانتصرت ارادته وخضع

الصحابة لرأيه فسير إليهم الجيوش واحداً تلو الآخر حتى أخضعهم وقضى على زعماء الفتنة منهم ووطد الإسلام في شبه الجزيرة العربية كلها. ثم اتجهت بيته إلى فتح بلاد الشام والعراق، فبعث إلى الشام جيشاً كبيراً أسند قيادته العامة إلى أبي عبيدة عامر بن الجرّاح على أن يتجه عمرو بن العاص إلى فلسطين، وشرجبيل ابن حسنة إلى الأردن ويزيد بن أبي سفيان إلى دمشق، وأبو عبيدة إلى حمص ووعد كل واحد من هؤلاء أن يصبح حاكماً على المنطقة التي سيفتحها.

وفي نفس الوقت بعث خالد بن الوليد إلى بلاد العراق على رأس جيش كبير فتح أرض الجزيرة ثم أمره أن يذهب لنجدة جيش الشام المحاصر فسار إليه والتقت الجيوش العربية كلها في اليرموك، وتسلم خالد القيادة العامة وجرت معركة حاسمة انتهت بأكبر كارثة لجيش الروم، وتمكن العرب من فتح معظم بلاد الشام، وفي أثناء استعداد جيوش المسلمين لخوض غمار هذه المعركة توفي أبو بكر سنة 13 للهجرة (634م) عن عمر ثلاثة وستين عاماً وأوصى بالخلافة لعمر بن الخطاب المشهور بعدله وحرصه على حماية الدين وحقوق المواطنين فقال في أول خطبة له: أيها الناس وآلله ما فيكم أحد أقوى عندي من الضعيف حتى آخذ الحق له، ولا أضعف عندي من القوي حتى آخذ الحق منه. واستمر بعد ذلك في اتمام خطة أبي بكر بالشام والعراق، فأتم سعد بن أبي الوقّاص فتح بلاد العراق، واستولى على المدائن عاصمة الفرس الاكاسرة بعد معركة القادسية التي كانت أشد وأهول معركة خاضها المسلمون، واستولى أبو عبيدة نفسه على مدينة دمشق بمساعدة خالد بن الوليد، وتقدم الى حمص، وحماة، والمعرة، واللاذقية، وحلب وغيرها من بلاد الشام، واستسلمت مدينة بيت المقدس صلحاً إلى الخليفة عمر بن الخطاب نفسه، وفتح عمرو بن العاص بلاد مصر، وبرقة وطرابلس بليبيا.

ويعتبر عمر بن الخطاب مؤسس الدولة الإسلامية الكبيرة لأنه هو الذي قضى على ما بقي من قوة ونفوذ لدولتي الرومان والفرس في الشام

العراق ووسع رقعة الدولة الاسلامية، وجعلها مرهوبة الجانب، وفي عهده أسست مدينتا البصرة والكوفة، ووضعت الأسس والتنظيمات الأولى لهذه الدولة الجديدة، وترجمت بعض النظم والدواوين الفارسية والرومانية. وفي أواخر السنة الثالثة والعشرين للهجرة (644م) توفي عمر مقتولاً بضربة سيف على يد فيروز أبي لؤلؤ الفارسي مولى المغيرة بن شعبة، وقبل أن يفارق الحياة أوصى بالخلافة لستة من الصحابة على أن يختاروا واحداً منهم بالانتخاب في ظرف ثلاثة أيام على الأكثر وهم: علي، وعثمان، وعبدالرحمان بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة، والزبير. فانتخبوا عثمان بن عفان وبايعه الناس بالخلافة، وكان تقياً ورعاً ولكنه لم يكن كعمر في البأس والشدة والحزم، فأثر عليه أنسابه واقرباؤه من الأمويين واستأثروا بالحكم وكل المناصب الادارية في المدينة والولايات. وأثار ذلك نقمة العرب عليه فثاروا ضده وحاصروه في داره خمسين يوماً ثم هجموا عليه وقتلوه في عام خمسة وثلاثين للهجرة (656م)، وفي عهده أذن لابن أبي سرح بفتح افريقيا فبدأ بذلك تاريخ شمالي افريقيا في عهد الإسلام.

# الفتح العربي الإسلامي لشمال إفريقيا
# 647 ـ 1830م

## خطوات الفتح

### عمرو بن العاص:

لما أتم العرب فتح بلاد شبه الجزيرة العربية وطهروها من بقايا نفوذ دولتي الفرس والروم البيزنطية رأوا أن ينشروا الإسلام في غرب الدولة الإسلامية على امتداد شواطيء البحر الأبيض المتوسط الجنوبية فأمر الخليفة عمر بن الخطاب القائد العربي عمرو بن العاص أن يقود الحملة لفتح بلاد مصر باعتبارها البوابة الحقيقية لاقتحام شمال إفريقيا. فتقدم ابن العاص إليها عام 20هـ (641م) وأطاح بالحكومة الرومانية واستولى على مدينة الاسكندرية القاعدة البحرية الكبرى في البحر الأبيض المتوسط. ثم اتجه بعد ذلك إلى البلاد الليبية وفتح برقة صلحاً وطرابلس، وصبرة عنوة عام 22هـ (643م). وعزم على مواصلة الزحف على بقية الشمال الافريقي ولكن الخليفة عمر بن الخطاب رفض ذلك لأن ظروف الدولة الاسلامية الناشئة لا تسمح بذلك ولأن طبيعة البلاد نفسها صعبة والشقة بعيدة فعاد إلى مصر بعد أن عقد صلحاً مع أهالي برقة على أن يدفعوا جزية سنوية للدولة العربية مقدارها ثلاثة عشر ألف دينار. وترك عقبة بن نافع حاكماً على مدينة طرابلس وأحوازها.

### ابن أبي سرح:

وفي عهد ولاية عبدآلله بن سعد بن أبي سرح على مصر عام 24هـ (646م) استأذن من الخليفة عثمان بن عفان أن يزحف على ما وراء

# الفتح العربي الإسلامي لشمال إفريقيا
# 647 ـ 1830م

## خطوات الفتح

### عمرو بن العاص:

لما أتم العرب فتح بلاد شبه الجزيرة العربية وطهروها من بقايا نفوذ دولتي الفرس والروم البيزنطية رأوا أن ينشروا الإسلام في غرب الدولة الإسلامية على امتداد شواطيء البحر الأبيض المتوسط الجنوبية فأمر الخليفة عمر بن الخطاب القائد العربي عمرو بن العاص أن يقود الحملة لفتح بلاد مصر باعتبارها البوابة الحقيقية لاقتحام شمال إفريقيا. فتقدم ابن العاص إليها عام 20هـ (641م) وأطاح بالحكومة الرومانية واستولى على مدينة الاسكندرية القاعدة البحرية الكبرى في البحر الأبيض المتوسط. ثم اتجه بعد ذلك إلى البلاد الليبية وفتح برقة صلحاً وطرابلس، وصبرة عنوة عام 22هـ (643م). وعزم على مواصلة الزحف على بقية الشمال الافريقي ولكن الخليفة عمر بن الخطاب رفض ذلك لأن ظروف الدولة الاسلامية الناشئة لا تسمح بذلك ولأن طبيعة البلاد نفسها صعبة والشقة بعيدة فعاد إلى مصر بعد أن عقد صلحاً مع أهالي برقة على أن يدفعوا جزية سنوية للدولة العربية مقدارها ثلاثة عشر ألف دينار. وترك عقبة بن نافع حاكماً على مدينة طرابلس وأحوازها.

### ابن أبي سرح:

وفي عهد ولاية عبدالله بن سعد بن أبي سرح على مصر عام 24هـ (646م) استأذن من الخليفة عثمان بن عفان أن يزحف على ما وراء

البلاد الليبية في اتجاه إفريقيا (تونس الحالية) فأذن وأمده بجيش كبير قاده من المدينة إلى مصر الحارث بن الحكم وفيه كثير من الصحابة منهم العبادلة السبعة. ثم خرج به ابن أبي سرح في اتجاه المغرب الأدنى عام 27هـ (647م) وواصل السير حتى نزل قرب مدينة سبيطلة حيث يقيم البطريق جرجير نائب الأمبراطور البيزنطي في وسط تونس الحالية، وطلب إليه أن يسلم أو يدفع الجزية فرفض، وتقدم إليه الجيش الإسلامي ودارت معركة فاصلة انهزم فيها الروم وقتل جرجير نفسه على يد عبدآلله بن الزبير، وتقلص نفوذ البيزنطيين إلى الأطراف الشمالية حيث مدينة قرطاجنة، ولعب عقبة بن نافع دوراً هاماً في نجاح هذه الحملة لأنه كان يعرف الكثير عن أحوال هذه البلاد وأخبارها بحكم وجوده بطرابلس حاكماً منذ حملة ابن العاص السابقة.

وعلى أثر مقتل جرجير انتخب الأفارقة جناحة حاكماً عليهم وصالحوا ابن أبي سرج على أن يدفعوا للدولة الاسلامية جزية سنوية فرحل عنهم وعاد إلى المشرق.

## معاوية ابن حديج الكندي:

وعندما اغتيل عثمان بن عفان نشبت الاضطرابات في كل العالم الاسلامي وفي شمالي إفريقيا فانتهز الامبراطور البيزنطي قنستانس (642 — 668م) هذه الفرصة وأرسل حملة عسكرية احتلت البلاد من جديد وفر حاكمها جناحة إلى الشام وطلب من معاوية بن أبي سفيان النجدة لاسترجاع البلاد ولكن حملة الروم على ثغر الاسكندرية المعروفة بغزوة الصواري عطلت تنفيذ الخطة حتى تم أجلاء الروم عن الاسكندرية فكلف حينئذ معاوية عامله على مصر معاوية بن حديج الكندي بغزو إفريقيا فاتجه إليها عام 45هـ (666م) بجيش كبير من عشرة آلاف جندي فيهم كثير من أعيان الصحابة وكبار القادة منهم: عبدآلله بن عمر ابن الخطاب،

وعبدالله بن الزبير، وعبدالملك بن مروان، وفتحت هذه الحملة جزيرة جربة قرب خليج قابس، وعدداً آخر من المدن مثل بنزرت، وجلولا، وسوسة، كما غزا جانب منها جزيرة صقلية، وأصاب نجاحاً وغنم وعاد. ثم رحل ابن حديج إلى مصر.

## عقبة بن نافع وأبو المهاجر دينار وكسيلة:

وفي عام 50هـ (670م) بعث معاوية بن أبي سفيان، عقبة بن نافع الفهري إلى إفريقيا غازياً فتوسع في الفتح وضم مناطق أخرى إلى البلاد المفتوحة سابقاً وأسس مدينة القيروان وجعلها قاعدة للجيوش الاسلامية وعاصمة للفتح والاستقرار واختار لها مكاناً بعيداً عن البحر حتى يجنبها غارات البيزنطيين الغادرة. ولما استدعي عقبة إلى المشرق عام 55هـ أوفد معاوية، أبا المهاجر دينار مولى مسلمة بن مخلد والي مصر لمواصلة الفتح فتفقد الأحوال، وأسس أسوة بعقبة مدينة أخرى إلى جانب القيروان سماها (تيكروان) وأهمل مدينة عقبة، ثم اتجه بعد ذلك إلى الجهات الغربية حيث الجزائر الحالية ومر بمدينة بسكرة ونواحيها وحارب بعض الولاة ورؤساء القبائل في جهات قسنطينة وانتصر عليهم وذلك عام 59هـ (678م) واتخذ مدينة ميلا مركزاً لعملياته الحربية، ثم تقدم إلى جهات تلمسان وفي طريقه إليها حفر عدداً من الآبار للشرب والسقي ما تزال تدعى إلى اليوم عيون أبي المهاجر وظفر بخصمه كسيلة أمير الأوراسيين فعرض عليه الإسلام ولم يستجب فسلك معه مسلك اللين واحتفظ به معه في معسكره حيثما حل وارتحل وجعل يلاطفه ويؤلف قلبه ويحبب إليه دعوة الاسلام التي تدعو إلى المحبة والتوادد والمساواة بين كل الناس في الحقوق والواجبات، فأسلم وأصبح من قواده وأنصاره ومحبيه، ووقف إلى جانبه في المدة التي قضاها في هذه البلاد لنشر دعوة الإسلام. وقبل أن يرحل إلى المشرق بعث أحد قواده حنش الصنعاني يحاصر بقايا البيزنطيين في قرطاجنة لأنهم حاولوا أن يثيروا بعض المتاعب ضد السلطة العربية، فشدد عليهم الحصار حتى نزلوا له على شبه جزيرة شريك القريبة من قرطاجنة وأسلم على يده كثيرون من الأهالي.

## عقبة بن نافع مرة ثانية:

وفي خلافة يزيد بن معاوية أعيد عقبة إلى الحكم في ولاية إفريقيا عام 62هـ (682م) وجاء معه زهير بن قيس البلوي فجدد بناء مدينة القيروان التي أهمل شأنها أبو المهاجر دينار، وأصلح شؤون الأهالي، وتفقد أحوال البلاد، ثم استخلف على مدينة القيروان زهير بن قيس البلوي، واتجه هو إلى المناطق الغربية لمواصلة الفتح ونشر دعوة الاسلام، وصحب معه في هذه الجولة أبا المهاجر وصديقه كسيلة مقيدين لموجدة في نفسه عليهما، ففتح باغاية قرب خنشلة، وحارب الروم في قلعة لامبيس، واستولى على إقليم الزاب، وتيهرت، وبلاد تلمسان وغيرها حتى وصل إلى مدينة طنجة وفتحها. ولم يبق أمامه إلا مياه المحيط الأطلسي، فقيل إنه اقتحمها بفرسه ورفع يده إلى السماء بأعلى صوته قائلا: أللهم فاشهد أني قد بلغت، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل في سبيلك حتى لا يعبد أحد من دونك. ولم يقف عند هذا الحد بل أخذ يتوسع جنوباً حتى اقتحم إقليم السوس الأقصى وأخضع المصامدة في جبل درن وشدد على الصنهاجيين حتى أسلموا وانقادوا للحكم العربي الإسلامي.

ولقد كانت حملات عقبة في جولته الثانية هذه تجربة أخرى للدعوة الإسلامية في هذه البلاد أثبتت أن الأهالي تقبلوها بصدر رحب، وآمنوا بصاحبها عن اقتناع وطواعية، وليس بعامل السيف كما يزعم البعض إلا في بعض الحالات والظروف الخاصة. أما كثرة الثورات والأضطرابات في هذه البلاد فالسبب المباشر لها في أغلب الأحيان هو ظلم الولاة والمسيرين بصفة خاصة وقدوم كثير من الشخصيات الغريبة ذات الطموح إلى أعلى المناصب أو نشر فكرة وعقيدة خاصة، ومن هنا نلحظ قدوم كثير من زعماء الخوارج الذين كانوا يضطهدون في الشرق ويجدون المجال واسعاً هنا بالمغرب.

## إستشهاد عقبة ورفاقه:

وعندما اعتزم عقبة الرجوع إلى القيروان أمر الجيش الإسلامي أن يسبقه إلى هناك وأبقى معه حوالي ثلاثمائة من أصحابه وفيهم أبو المهاجر الذي ما يزال مقيداً بالاغلال، واتجه بهم إلى جهات مدينة تهودة لتفقد الأحوال هناك والتأكد من سير الأمور، ولم يتفطن عقبة لفرار كسيلة من معسكره وكان قد أساء معاملة صديقه وولي نعمته أبي المهاجر، فلم يتحمل ذلك الموقف وأخذ يجمع ما استطاع من الرجال والعتاد حتى كون قوة كافية واعترض بها عقبة وأصحابه وجرت معركة حاسمة استبسل فيها عقبة وأصحابه حتى استشهدوا جميعاً عام 682م. ودفنوا هناك وبني على قبورهم مسجد وقرية ما تزال إلى اليوم تدعى قرية «سيدي عقبة» وتعتبر أكبر مزار تاريخي إسلامي في الجزائر.

ولم يقتنع كسيلة بالقضاء على عقبة وأصحابه فتوجه إلى القيروان وأخرج منها زهير بن قيس البلوي الذي تراجع إلى برقة واستقر بها عام 65هـ (684م). ولمدة أربع سنوات حدثت خلالها ثورات واضطرابات عديدة، ثم بعث له الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان نجدة عسكرية عام 69هـ (688م) من الشام وطلب إليه أن يعيد الكرة على المغرب ويركز فيها الحكم الإسلامي. فاتجه إلى القيروان وفر منه كسيلة إلى بلاد الأوراس فتبعه زهير واشتبك معه في معركة فاصلة انتهت بمقتله هو ومعظم أصحابه فقل الخطر على الجيش الإسلامي، وأصلح زهير الأوضاع وشيد عدداً من الحصون لتكون مراكز دفاعية ضد الغزاة والمتمردين، ثم استعفى الخليفة من ولايته وقفل راجعاً إلى الشرق، ولما اقترب من شواطيء برقة سمع برسو بعض السفن البيزنطية هناك فجمع من كان معه من الأصحاب، وهم في قلة، واشتبكوا مع قواتها حتى استشهدوا جميعاً.

## حسان بن النعمان والكاهنة:

ولم يهمل عبد الملك بن مروان الأمر فعين حسان بن النعمان حاكماً على مصر وإفريقيا عام 77هـ (696م). وجهز له جيشاً من أربعين ألفاً وكلفه أن يزحف على المغرب، فخرج من مصر إلى برقة وطرابلس والقيروان، ومنها اتجه إلى قرطاجنة وحاصرها مرتين، وفي الثالثة استولى عليها وهدم أسوارها وخربها حتى لا يبقى للرومان أي أمل في الرجوع إليها، وهي المرة الثالثة التي تخرب فيها هذه المدينة.

وكانت بلاد الأوراس تحكمها امرأة تدعى «دهيا» من قبيلة جراوة، ويطلق عليها الناس إسم «الكاهنة» لادعائها معرفة الأمور الغيبية ولالتزامها بعض الطقوس الدينية الموسوية على ما قيل. وعندما علمت هذه الكاهنة بقدوم حسان رحلت من مراكزها وعسكرت ببلدة باغاية لتكون قريبة من مواطن قبيلتها، ولم تطمئن لمركزها فخربت أسوار باغاية حتى لا يتحصن بها العرب وانتقلت إلى بلدة مسكيانة وعسكرت بها.

أما حسان فإنه اتجه إلى مدينة تبسة ثم عرج نحو الشمال الشرقي عبر وادي مسكيانة بين العين البيضاء وتبسة. والتقى بالكاهنة وجموعها وجرت معركة كبيرة انكسر فيها الجيش الإسلامي الذي كان ما يزال مرهقاً من معارك قرطاجنة، وأسرت الكاهنة عدداً من جنود حسان ثم أطلقت سراحهم إلا واحداً على ما قيل. ولم تقتنع بهذا الانتصار فطاردت حساناً وأصحابه حتى أخرجتهم من مناطق حكمها فتراجع حسان بجيشه إلى برقة ثم كاتب الخليفة عبدالملك بما حصل فرد عليه بأن ينتظر هناك حتى تصله تعليمات أخرى جديدة.

وفي فترة الانتظار هذه التي دامت ثلاث سنوات ونيفاً طبقت الكاهنة في البلاد سياسة احراق الأراضي وتخريب العمران واتلاف المزارع اعتقاداً منها أن العرب لا يهدفون من وراء غزواتهم وحربهم إلا الحصول على مزيد

من الغنائم والأموال ولا يحتفظون إلا بالمدن، فإذا أتلفت كل ذلك فان العرب سيتوقفون عن غزوهم ويرحلون، ولا يفكرون في العودة مرة أخرى. واستناداً إلى هذا الزعم الطائش أحرقت كل ثروات البلاد من زرع وشجر، وهدمت كثيراً من المدن والحصون، وأتلفت خيرات الأهالي فسخطوا عليها وعلى تصرفاتها الحمقاء وكان ذلك من أسباب انهزامها في جولة حسان الثانية عندما جاءته الامدادات من الشام عام 81هـ (700م) وأصبحت الظروف كلها في صالحه وضد الكاهنة، فاتجه إلى معاقلها مصمماً القضاء عليها مهما كلفه ذلك من ثمن، ورحب به الأهالي في كل المناطق التي مر بها وأمدوه بالأموال وزودوه بالأخبار، فتأكدت الكاهنة من مصيرها واستأمنت لولديها من حسان ثم واجهته في معركة فاصلة انهزمت فيها وتراجعت إلى الوراء ولاحقها حتى تمكن من قتلها في عام 82هـ (701م)، وأمن أصحابها وأدخلهم في قواته العسكرية، وعين أكبر أبنائها حاكماً على قومها حتى يبعث في نفوسهم روح الثقة والاطمئنان، وأخذ بعد ذلك يبذل الجهود لإصلاح ما أفسدته الكاهنة من أرض وزرع وعمران فحقق كثيرا من الاصلاحات في مختلف الميادين حتى أعاد للبلاد شبابها وازدهارها. وهكذا يعتبر عهد حسان عصر وضع النظم الادارية، وانشاء الدواوين، وبناء المصانع، وتكوين القوات العسكرية للدفاع عن البلاد أغلب عناصرها من الأهالي، ومن مؤسساته دار الصناعة بتونس.

**موسى بن نصير وطارق بن زياد:**

ولما استدعي إلى المشرق عام 85هـ (704م) أوفد الوليد بن عبدالملك البطل الإسلامي موسى بن نصير ففتح عدداً من المدن الجديدة منها زغوان بتونس، ثم دخل إلى المغرب الأوسط (الجزائر) عام 89هـ (707م) وتفقد أحوال الناس والبلاد وركز السلطة العربية الإسلامية، واجتاز بعد ذلك إلى المغرب الأقصى ومهد وأصلح شؤونه وعين طارق بن زياد حاكماً على مدينة طانجة فاتصل به جوليان حاكم مدينة سبتة البيزنطي وأغراه على غزو الأندلس

فجمعه طارق بموسى وأكد له استعداده بان يضع أسطوله تحت تصرفه ليحمل فيه قواته إلى الشاطيء الإسباني، فجرب موسى الأمر بحملة طريف التي بعثها لتستكشف له الأمور وتستخبر عن أحوال البلاد فعادت محملة بالغنائم وجاء الأمر من الخليفة بالموافقة، فجهز حينئذ حملة كبيرة من اثنى عشر ألف جندي، سبعة آلاف منها أفارقة والباقي عرب، وعين عليها طارق بن زياد وأمره بغزو الأندلس فعبر المضيق إلى الشاطيء المقابل الذي أصبح يحمل اسمه (جبل طارق) منذ ذلك الوقت، وعسكر على أرض الجزيرة الخضراء عام 90هـ (708م) وخطب في جيشه تلك الخطبة المشهورة التي ألهب بها حماسته، ثم التحم مع جيش رودريك وحمل بقواته عليه حتى شتته وأفنى معظمه، وقتل رودريك على يد طارق نفسه، وتعرف هذه المعركة بمعركة (وادي لكة) أو معركة (شيش) لأنها وقعت على ضفاف هذا الوادي. ثم أخذ طارق يزحف نحو الشمال في اتجاه طليطلة واستولى في طريقه إليها على مدن قرطبة ومالقا، ومرسية وغيرها، وأخيراً اقتحم طليطلة، ولما وصلت هذه الأخبار إلى موسى بإفريقيا جهز جيشاً آخر ولحق بطارق عن طريق آخر استولى فيه على اشبيلية وغيرها من المدن في الناحية الغربية، ثم سارا معاً في اتجاه الشمال وفتحا معظم مدن شبه الجزيرة الاسبانية حتى بلغا إلى جبال البرانس (البيريني) ومهدا بفتوحاتهما هذه إلى قيام الدولة العربية الإسلامية التي دامت هناك قرابة ثمانية قرون وامتدت رقعتها حتى بلغت إلى مشارف مدينة بوردو بفرنسا، وما تزال معالمها الفكرية والعمرانية والحضارية تتحدث بآيات الفن والخلق والابداع في قرطبة واشبيلية وغرناطة وجيان، وطليطلة وغيرها. وعندما استدعي موسى ومولاه طارق إلى المشرق استخلف على افريقيا ابنه عبدالله، وعلى الأندلس ابنه عبدالعزيز عام 95هـ (714م) ولكن الخليفة سليمان سرعان ما عزلهما عندما آلت إليه الخلافة في العام الموالي 96هـ (715م) واستعمل على إفريقيا محمد بن يزيد الذي فشت في عهده فتن الخوارج وثوراتهم، وكثر دعاة الفتنة منهم فلقي اتعاباً كثيرة وبقي كذلك حتى تولى عمر بن عبدالعزيز الخلافة فعزله وعين

مكانه اسماعيل بن عبدالله أبي المهاجر دينار عام 100هـ (718م) وبعث معه عشرة فقهاء لشرح مبادىء الإسلام وتعاليمه الصحيحة إلى الأهالي بدلاً من استعمال القوة والسيف ومنهم: أبو عبدالرحمن عبدالله رئيس البعثة، واسماعيل بن عبيد، وأبو الجهم عبدالرحمن بن نافع التابعي. وكان عمر بن عبدالعزيز يعزف عن استعمال القوة وإسالة الدماء، ويميل إلى الاقناع بالحجة والمنطق، ولهذا اختار أن يجرب مع الأفارقة هذه الطريقة الخاصة بعد أن علم أنهم لا ينقادون لغيرها، وأن اخفاق من قبله في جلبهم إلى الإسلام والطاعة انما كان سببه استعمال القوة ووسائل القهر.

## ظهور الخوارج بإفريقيا:

وفي خلافة يزيد بن عبدالملك تولى أمر إفريقيا يزيد بن أبي مسلم عام 102هـ (720م) فثار عليه الخوارج وقتلوه، وجاء بعده بشر بن صفوان الكلبي في العام الموالي 103هـ (721م) وحاول إعادة الأمن إلى نصابه، وغزا جزيرة صقلية وغنم، وفي طريق عودته توفي فخلفه عبيدة بن عبدالرحمن السلمي على شؤون إفريقيا عام 110هـ (728م) وبقي في منصبه إلى أن عزله هشام بن عبدالملك وأرسل بدله عبيدالله بن الحبحاب عام 116هـ (734م) فأخذ يعمل على القضاء على الفتن والاضطرابات في مختلف مناطق المغرب، وامتد نفوذه إلى بلاد السوس الأقصى بجنوب مراكش، وبعث حملة خاصة إلى جزيرة صقلية صادفت نجاحاً باهراً وعادت بغنائم كبيرة. وفي أواخر عهده قوي ساعد الخوارج واجتمعت جموعهم تحت زعامة ميسرة المطغرى أحد رؤسائهم، وزحفوا على مدينة طانجة وطردوا منها حاكمها عمر بن عبدالله المرادي نائب ابن الحجاب، وبايعوا عبدالأعلى بن جريج مدة قليلة ثم انقلبوا عليه وقتلوه، وبايعوا ميسرة نفسه بالخلافة عام 122هـ (740م) ولكنه أساء السيرة فيهم فثاروا عليه هو الآخر وقتلوه وبايعوا خالد بن حميد الزناتي، وأخذوا يشنون الغارات المتعددة على المناطق الخاضعة لنفوذ ابن الحبحاب في المغربين الأقصى والأوسط فنهض

ابن الحبحاب للوقوف دون امتداد نفوذهم وتوسعهم على حساب حكومة القيروان، وأرسل إليهم حملة كبيرة بقيادة خالد بن حبيب الفهري الذي التقى بجموعهم على ضفاف نهر الشلف وجرت معركة الأشراف المشهورة انكسرت فيها حملة ابن الحبحاب وقتل قائدها خالد الفهري وكثير من أصحابه. فغضب هشام بن عبدالملك وعزل ابن الحبحاب وأرسل بدله كلثوم بن عياض القشيري (من قبيلة قشير) عام 123هـ (741م) فزحف بقوات كبيرة من الشرق وتقدم حتى وصل إلى طانجة مركز الثورات والفتن واصطدم بقوات خالد بن حميد الزناتي في ضواحيها والتحم معها في معركة كبيرة حتى استشهد وتضعضعت قواته وانقسمت على نفسها، فانحاز أهل الشام مع بلخ بن بشير القشيري إلى مدينة سبتة وعاد الباقي إلى القيروان، وطاردت هذه الأخبار إلى الخليفة هشام فأرسل حنظلة بن صفوان الكبي خلفاً لكلثوم عام 124هـ (742م) وسل سيفه في وجه الخوارج وقاومهم بعنف وقوة وبعث في نفوسهم الرعب، وتمكن من القضاء على ثورة عكاشة بن أيوب الصفري الخارجي، وأخذه هو أسيراً، وقتل زميله عبدالواحد بن يزيد الخارجي قرب مدينة القيروان. وحتى يبعد عن نفسه أخطار أحفاد عقبة وطموحهم أرسل عبدالرحمن بن حبيب الفهري إلى الأندلس عساه يستطيع أن يسيطر عليها وتشتغله عن ولاية إفريقيا، ولكنه لم ينجح في تحقيق ذلك فعاد إلى إفريقيا وأخذ يدعو لنفسه عام 127هـ (745م)، ووجد في الناس استجابة لدعوته وعزوفاً عن حنظلة الذي اضطر أن يغادر المغرب إلى المشرق فأقر مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، عبدالرحمن في منصبه، وبدأ بذلك عهد الأمراء الفهريين من ذرية عقبة في إفريقيا الذين استأثروا بحكم المغرب مدة من الزمن.

ولما آلت الخلافة إلى بني العباس بايع عبدالرحمن أول خلفائهم أبا العباس السفاح، ومن بعده جعفر المنصور، وبقي في منصبه إلى أن تآمر عليه إخوته وقتلوه عام 137هـ (765م) فحدثت اضطرابات كثيرة، وتنازع على السلطة كل من الياس بن حبيب، وحبيب بن عبدالرحمن

الفهريين؛ واستقل الأخير من عام 138هـ حتى عام 140هـ (758م). ثم ثار عليه كل من عاصم بن جميل الورفجومي، وعبدالملك بن أبي الجعد اليفرني بجهات الأوراس وتمكن الأخير من قتل حبيب والسيطرة على القيروان فاستحل مسجدها وأهان أهلها حتى أثار استنكارهم وغضبهم جميعاً. وزاد في تحرج الأمور التفاف بعض القبائل التي تدين بالاباضية مثل نفزاوة وورفجومة حول بعض زعمائها وتعاونهم على فرض سيطرتهم السياسية والمذهبية بمختلف الوسائل ومنها إهانة الأهالي وإباحة بعض المعالم الدينية التي تخالف عقيدتهم.

وكان أبو الخطاب عبدالأعلى بن السمح المعافري أحد زعمائهم يقيم بطرابلس عندما حصلت هذه الأحداث بالقيروان، فلم يرتح لها وجمع قوات كبيرة وزحف بها على القيروان وأدب الورفجوميين والنفزاويين وظفر بعبدالملك وقتله وذلك عام 141هـ (759م). وفرض سيطرته على اقليم إفريقيا (تونس) ثم استخلف على القيروان القاضي الاباضي عبدالرحمن بن رستم، وقرر هو العودة إلى طرابلس لقمع ثورات وفتن ورفجومة، وليقف في وجه الحملات التي يعتزم الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور ارسالها إلى بلاد المغرب لمحاربة الخوارج.

وفي عام 143هـ (762م). بعث أبو جعفر المنصور، محمد بن الأشعب الخزاعي والياً على مصر وكلفه بالزحف على إفريقيا لإعادة الأمن والهدوء إليها، والقضاء على ثورات الخوارج الذين عاثوا فساداً في أهلها وخيراتها وعمرانها. فزحف عليها من مصر في عام 144هـ (763م). والتقى بأبي الخطاب وجموعه في جهات سرت وتمكن من قتله وتشتيت قواته قبل أن تصله النجدات من تونس فواصل السير إلى إفريقيا واستعاد القيروان من الخوارج، ولاحق ابن رستم إلى جهات الأوراس في شرقي المغرب الأوسط، وشتت جموعه وأرغمه على الفرار إلى الناحية الغربية.

وبينما كان محمد بن الأشعب يبذل الجهود لاعادة الأمن إلى البلاد نشبت ثورات حادة من طرف بعض القبائل تزعمها عيسى بن عجلان، وعلي بن موسى الخراسانيان عام 148هـ (766م). وتعب ابن الأشعب في مقاومتها فرحل إلى مصر، وعين المنصور حاكم اقليم الزاب الأغلب بن سالم التميمي والياً على القيروان وكلفه بقمع الثورات، فترك في مكانه بالزاب عمر بن حفص بن قبيصة المهلبى (أبا الدوانق) وذهب إلى القيروان وأخذ يمهد الأمور ويحاول اعادة الأمن إلى البلاد، فثار عليه المغيليون واليفرينيون بزعامة أبي قرة المغيلي بجهات تلمسان، وخرج عليه الحسن بن حرب الكندي بجهات قابس وانضم إليه كثير من الجنود الذين خلعوا طاعته فحفت به الأخطار من كل جهة وحاول أن يقف في وجهها وتبادل مع خصومه النصر والهزيمة حتى قتل عام 150هـ (767م). قرب سبخة تونس. فخلفه نائبه على الزاب عمر بن حفص شقيق المهلب بن أبي صفرة، وباشر عمله في بداية عام 151هـ (768م). واستقر له الأمر حوالي ثلاث سنوات ثم أخذ الخوارج يتحزبون ضده وزحفوا عليه بقوات كبيرة في مدينة طبنة من اقليم الزاب حيث كان يجدد عمرانها بأمر من الخليفة فتمكن من تفريق جموعهم وتشتيتها بالدهاء والمكيدة وشراء ضمائر بعض زعمائهم بالأموال. وبعد مدة أعادوا عليه الكرة وحاصروه بمدينة القيروان تحت زعامة أبي حاتم يعقوب بن حبيب المغيلي الاباضي وشددوا عليه الحصار حتى قتلوه عام 154هـ (770م). قبل أن تصل إليه نجدة المنصور من المشرق بقيادة يزيد بن حاتم المهلبي. وعندما وصل يزيد باشر الأمور بجد وتمكن من قمع ثورات الخوارج فاندحروا إلى الناحية الغربية والتفوا حول عبدالرحمن بن رستم بمدينة تيهرت وبايعوه بالإمارة عام 160هـ (776م). وبقي يزيد بن حاتم في الامارة بالقيروان إلى أن توفي عام 170هـ (787م). فخلفه داود مدة قليلة حتى حضر من الشرق روح بن حاتم بأمر من هارون الرشيد وكان والياً على فلسطين فسير الأمور إلى أن توفي عام 174هـ ((701م). فجاء بعده نصر بن حبيب المهلبي. ولم يلبث أن عزله الرشيد عام 177هـ (794م).

وعين بدله الفضل ابن روح فثار ضده عبدآلله بن الجارود وطرد المغيرة من حكم مدينة تونس وأحوازها وأخذ يزحف على القيروان حتى تمكن من اقتحامها واعتقال الفضل وأتباعه فأمر بقتلهم جميعاً عام 178هـ (795م). وانتهى بذلك حكم المهالبة من إفريقيا.

وعندما وصلت هذه الأخبار إلى الرشيد جمع قوة كبيرة وعين عليها القائد الإسلامي الشهير هرثمة بن أعين وكلفه بالزحف على إفريقيا فجاء إليها عام 179هـ (796م). وأعاد الهدوء إلى البلاد وأصلح شؤون الأهالي وسار فيهم سيرة حسنة. وبعد أن مهد الأمور، وأرغم الناس على الطاعة استعفى الخليفة وعاد إلى الشرق فعين الرشيد أخاه في الرضاع محمد بن مقاتل العكي والياً على إفريقيا وجاء إليها عام 181هـ (798م). ولم يكن ذا سيرة حسنة فأساء في الناس السيرة وتماطل في اصلاح شؤونهم فثار عليه الجند وخلعوا طاعته وبايعوا مخلد بن مرة الأسدي. ولم يلبث أن قتل فثار عليه نائبه على مدينة تونس تمام بن تميم التميمي وزحف عليه في القيروان وحاصره حتى تمكن من طرده إلى طرابلس عام 183هـ (799م). فاستنجد بحاكم اقليم الزاب ابراهيم بن الأغلب، وجاءه بقوات كبيرة إلى القيروان وطرد منها تماماً إلى تونس من جديد وأعاد الهدوء إلى المدينة واستقدم العكي من طرابلس وأعاده إلى منصبه. ولكن الأهالي كانوا يكنون له كرهاً شديداً ورفضوا طاعته وتداخلوا لدى ابراهيم أن يلي هو شؤونهم بدلاً منه، فاستمهلهم حتى كتب إلى هارون الرشيد بذلك وعرض عليه أن يدفع للخلافة أربعين ألف دينار كل سنة، ويعفيها من المساعدات المالية التي كانت تدفعها لحكومة القيروان كل سنة لكي تصرفها على شؤون الإدارة. فاستشار الرشيد مستشاريه ومنهم هرثمة بن أعين وحبذوا له الفكرة خاصة بعد أن ظهرت دولة الادارسة بالمغرب الأقصى والدولة الأموية بالأندلس، فأرسل موافقته لابراهم بن الأغلب بالولاية له ولأبنائه من بعده خلفاً عن سلف وذلك عام 184هـ (800م). على أمل أن تقف هذه الامارة الجديدة في وجه الادارسة والأمويين إذا ما أرادوا الزحف إلى المشرق وبذلك ظهرت الامارة الأغلبية في إفريقيا.

# نشأة الإمارة الرستمية

## 160 هـ 296هـ ، 776 ـ 909م

عندما استولى أبو الخطاب ابن السمح المعافري على مدينة القيروان، عين الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، محمد بن الأشعث والياً على مصر وإفريقيا وطلب إليه أن يوجه الجيوش لمحاربة الخوارج فجهز جيشاً بقيادة أبي الأحوص عمرو بن الأحوص العجلي وأمره بالاتجاه إلى إفريقيا. ولما علم أبو الخطاب بذلك عين عبدالرحمن بن رستم على القيروان واتجه هو إلى طرابلس عام 141هـ. ليقف في طريق هذه الجيوش واستطاع أن يهزم ابن الأحوص عام 142هـ. فقرر ابن الأشعث أن يخرج بنفسه إلى إفريقيا وصحب معه قوات كافية، وقد استنجد أبو الخطاب بابن رستم، لكن ابن الأشعث كان أسرع منه ففاجأ أبا الخطاب في معركة حاسمة وقتله عام 144هـ. وعندما بلغ الخبر إلى ابن رستم وهو ما يزال في مدينة قابس قرر العودة إلى القيروان ولكنه وجدها ثائرة ضده فحمل أهله وذويه وتسلل إلى بلاد المغرب الأوسط (الجزائر) ونزل عند قبيلة لماية التي كانت تدين بالمذهب الأباضي فشاع أمره واجتمع حوله الخوارج وأخذوا ينظمون أمورهم ويسعون لإنشاء إمارة مستقلة بهم، فعلم ابن الأشعث بأمرهم وهاجمهم فجأة وشتت شملهم وفر ابن رستم إلى الناحية الغربية ونزل ببلدة تيهرت التي تدعى اليوم تاكدمت على سفح جبل غربي مدينة تيارت الحالية واتخذ من ذلك المكان مركزاً منذ عام 148هـ (765م).

وعندما اشتد أمره وكثر مساعدوه بايعه أنصاره بالإمامة عام 160 هـ (776م). وبذلك ظهرت الامارة الاباضية التي دامت قرناً وثلاثاً

وثلاثين عاماً ومدت نفوذها على المنطقة ما بين بلاد الزاب وتلمسان، وبلغ عدد أئمتها ثمانية هم:

1 ــ عبدالرحمن بن رستم 160هـ ــ 776م.
2 ــ عبدالوهاب بن عبدالرحمن 171هـ ــ 787م.
3 ــ أفلح بن عبدالوهاب 190هـ ــ 805م.
4 ــ أبو بكر بن أفلح 240هـ ــ 854م.
5 ــ أبو اليقظان بن أفلح 241هـ ــ 855م.
6 ــ أبو حاتم بن أبي اليقظان 281هـ ــ 894م.
7 ــ يعقوب بن أفلح 282هـ ــ 895م.
8 ــ اليقظان بن أبي اليقظان 294هـ ــ 906م.

ولقد كان نظام الحكم في هذه الامارة شورياً يطبق أئمتها أحكام القرآن والسنة، وسعوا جهدهم لاصلاح الأوضاع فانتشرت الثقافة العربية بشكل ملحوظ كما راجت الأعمال التجارية والفلاحية والعمرانية، وغدت مدينة تيهرت التي جددوا بناءها ووسعوا عمرانها ــ ملتقى القوافل التجارية ووفود طلاب العلم ــ وعندما دب الخلاف والشقاق بين أئمتها على الحكم والسيطرة أخذت الدعوة الشيعية تنتشر لصالح العبيديين الفاطميين، وانتهى أمر الامارة الرستمية بمجرد أن سلم الامام اليقظان نفسه للعبيديين وتشتت الاباضية وتفرقوا في كل مكان، فذهب جانب كبير منهم إلى الجهات الصحراوية وأقاموا حول بئر الصفا وأسسوا بلدة صدراته جنوب مدينة ورقلة. وفي القرن العاشر الميلادي هاجر الاباضيون مدينة صدراته كذلك بسبب هجوم أهل ورغلان عليهم وطردهم من هناك، إلى جانب زحف النورمان وانتشار الملاريا وقلة المياه، وتوجهوا إلى منطقة وادي ميزاب ببلاد الشبكة، وأسسوا هناك مدنهم السبع وهي: العطف، وبونوره، وبنويزقن، ومليكة، وغرداية، ثم بريان، والقرارة.

## تيهرت عاصمة المغرب الأوسط:

شهد المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط قيام عدد من العواصم والحواضر، العلمية، والسياسية ازدهرت فيها الحضارة العربية الإسلامية إزدهارا واسعاً، وشهدت تطورات كبيرة في ميادين العمران، والثقافة، والاقتصاد والعلوم، لا تقل عما شهدته عواصم المشرق، والمغرب. ومن أهم هذه الحواضر: القيروان، وفاس، وتيهرت، والمهدية، والمسيلة، وقلعة بني حماد وبجاية وتلمسان، ويهمنا هنا الحديث والتاريخ لمدينة تيهرت الرستمية الاباضية.

## تأسيس مدينة تيهرت وموقعها:

تأسست هذه المدينة على أيدي عبدالرحمن بن رستم أول أئمة الرستميين، ورفاقه الذين فروا معه من القيروان على أثر ثورة عبدالرحمن بن حبيب الفهري بها.

وقد مر عبدالرحمن بن رستم وإبنه عبدالوهاب، ومملوكه، على جبل سوفجج[1] وتحصن به فوفد عليه عدد من العلماء والأتباع، والأنصار، تقوى بهم جانبه و لم يستطع ابن الأشعث أن ينازلهم ويهاجمهم لحصانة الجبل فرفع الحصار عنهم، وانسحب. وعندئذ غادر ابن رستم ورجاله الجبل وقصدوا إلى جهة تاهرت الرومانية القديمة التي كان يسكنها، وما حولها، بعض القبائل البربرية مثل: هوارة، ومكناسة، ولماية، ومزاته، وغيرها. وأغلبها كانت تدين بالمذهب الإباضي، ويعد أفرادها بمآت الألوف.

---

(1) لم يحدد الكتاب والمؤرخون موقع هذا الجبل ومكانه ولكن يبدو أنه في أحواز جبل نفوسة بطرابلس، أو بمنطقة الجريد. ولا يوجد هذا الاسم حاليا في الخرائط. ولعله قد غير بإسم آخر حديثا.

وهناك أشار عليه بعض أصحابه بضرورة انشاء إمامة بعد تأسيس مدينة حصينة ومنيعة، تكون مقرًّا لإمامتهم وملجأ لهم في السلم والحرب فأستحسن رأيهم ووافقهم على ذلك. وأختاروا عددا من أهل العلم، والخبرة بالأرض ليختاروا لهم مكانا جيد الهواء، كثير المياه، خصبا قابلا للعمارة، مأمونا من الأعداء. ووقع رأيهم على المكان الذي بنيت عليه تيهرت الجديدة، في سفح جبل قزول بين ثلاثة أنهر غرب مدينة تيارت الرومانية القديمة بحوالي خمسة أميال. وكان هذا المكان مشجرا بغابة كثيفة، فحرقوها ونقوا المكان من الأحراش وبقايا الأشجار وتعهدوا بدفع خراج معلوم لأصحابها كتعويض لهم وشرعوا بعد ذلك في بناء المسجد الجامع بالمكان الذي كانوا يصلون فيه خلال تنقية الأرض وإعدادها للبناء وذلك عام 144هـ (761 ــ 762م). واختطوا منازل، وقصورا، وأسواقا وحمامات، ومساجد، وفنادق، وأحاطوها بعد ذلك بسور حصين، وتفنَّنوا تدريجيا في عمارتها، وتنظيمها حتى أصبحت «عروس تلك الأقطار، وفخر تلك الديار، وعراق المغرب، وبلخ المغرب، وقاعدة المغرب الأوسط»(1).

إزدهرت فيها الحضارة الإسلامية، وراجت سوق المعارف والتجارة الواسعة في الداخل ومع بلدان الخارج مثل: السودان، والصحراء الكبرى، والأندلس، والمغرب الأقصى، وتونس، ومصر، وبلاد الشام، والحجاز، وبغداد، واليمن. وكان لها مراسي عديدة على سواحل البحر المتوسط ترسو بها السفن والمراكب البحرية التجارية ومنها مرسى فروخ ببطيوة. ومرسى أرزيو. وتتبعها مدن عديدة عامرة بالأسواق التجارية المزدهرة، والحصون العامرة. والمساجد، والمدارس، والأبنية العمرانية المختلفة.

(1) [illegible]، سليمان بن عبدالله النفوسي؛ كتاب الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية. (بدون تاريخ ومكان) ص 6 ــ 13.

وقد ذكر ابن خلدون تاريخ بنائها في الجزء السادس من تاريخه وهو عام 144هـ الذي ذكره كل من الشماخي في كتابه السير[1] وأبي زكرياء في تاريخه[2] والدرجيني في كتابه الطبقات[3]، والبرادي في الجواهر[4].

## وصف مدينة تيهرت في كتب الرحالة والمؤرخين:

وقد أشاد عدد من الرحالة والمؤرخين بمدينة تيهرت ووصفوها. فقال أبو العباس الدمشقي في تاريخه المطبوع بالهند إن تاهرت إسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب كثيرتي الأشجار، والثمار والمياه.

وقال اليعقوبي ابن واضح العباسي في تاريخه المطبوع بليدن عام 1760م: والمدينة العظمى، مدينة تاهرت جليلة القدر عظيمة الأمر تسمى عراق المغرب، بها أخلاط من الناس تغلب عليهم قوم من الفرس يقال لهم بنو محمد بن أفلح بن عبدالوهاب بن عبدالرحمن بن رستم الفارسي. وكان عبدالرحمن يتولى إفريقيا، وصار ولده إلى تاهرت فصاروا إباضية ورأس الإباضية. فهم رؤساء إباضية المغرب، ويتصل بتاهرت بلد عظيم ينسب إلى تاهرت في طاعة محمد بن أفلح بن عبدالوهاب بن عبدالرحمن بن رستم. والحصن الذي على ساحل البحر الأعظم، ترسى (كذا) به مراكب تاهرت يقال له مرسى فروخ[5].

---

(1) كتاب السير لأحمد الشماخي جمع فيه مناقب وسير عدد كبير من علماء وأئمة المذهب الإباضي من المغاربة والمشارقة لا يماثله، الاكتاب سير نفوسة الكبير الذي نقل منه الشماخي المتوفي في عام 928هـ (1521 ـ 1522م) والذي له مزار مشهور في قصبة مادي بجبل بني يفرن في جبال نفوسة.

(2) سير أبي زكريا تاريخ متوسط فيه كثير مما لا يوجد في سير الشماخي. طبع مؤخرا في لبنان، وأعيد طبعه في الجزائر عام 1984 بتحقيق من اسماعيل العربي.

(3) كتاب الطبقات لأحمد بن سعيد الدرجيني أرخ لأئمة وعلماء المذهب الإباضي المشهورين. حققه، ونشره ابراهيم طلاي بالجزائر عام 1974 في جزئين.

(4) كتاب الجواهر لأبي الفضل أبي القاسم البرادي صغير الحجم عظيم الفائدة أتم فيه ما أهمله صاحب كتاب الطبقات من الأخبار والحوادث.

(5) المؤرخ اليعقوبي عاش في النصف الأول من القرن الثالث الهجري. وكان معاصرا لبني رستم، ومعلوماته جيدة، ومهمة.

وواصل اليعقوبي وصفه لتاهرت قائلا: تاهرت مدينة كبيرة آهلة بين جبال وأودية ليس لها فضاء، بينها وبين البحر المالح مسيرة ثلاثة مراحل في مستوى من الأرض، وفي بعضها سباخ وواد يقال له وادي شلف. وعليه قرى، وعمارة يفيض كما يفيض نيل مصر يزرع عليه القصب والكتان، والسمسم، وغير ذلك من الحبوب، ويصير إلى جبل يقال له أنقبق. ثم يخرج إلى بلد نفزة، ثم يصير إلى البحر المالح. وشرب أهل مدينة تاهرت من أنهار وعيون يأتي بعضها من صحراء، وبعضها من جبل قبلي يقال له جزول، لم يجدب زرع ذلك البلد قط إلا أن يصيبه ريح أو برد وهو متصل بالسوس، يسميه أهل السوس درن ويسمى بتاهرت جزول ويسمى بالزاب أو راس[1].

أما أبوعبدآلله الشريف السبتي الادريسي فقد ذكر في كتابه الجغرافي نزهة المشتاق في اختراق الآفاق أن مدينة تاهرت كانت فيما سلف من الزمن مدينتين كبيرتين احداهما قديمة، والأخرى محدثة، والقديمة من هاتين المدينتين ذات سور، وهي على قمة جبل قليل العلو وبها ناس، وجمل من البربر لهم تجارات، وبضائع، وأسواق عامرة وبها مزارع وضياع جمة وبها من نتاج الخيل والبراذين، وكل حسن. وأما البقر والغنم فكثير بها جدا، وكذا السمن والعسل، وسائر غلاتها مباركة. وبمدينة تاهرت مياه متدفقة، وعيون جارية تدخل أكثر ديارهم ويتصرفون فيها، ولهم على هذه المياه بساتين وأشجار تحمل ضروبا من الفاكهة الحسنة. وبالجملة فهي بقعة حسنة.

وعن الشريف الإدريسي، نقل الشيخ مقيدش الصفاقصي وصف تيهرت بتصرف في تاريخه الذي طبع بتونس.

(1) ابن خلدون عبدالرحمن: كتاب العبر، ج5 (م. بولاق 1270هـ)، ص 39.

وذكرها ابن خلدون عرضا فقال. وفتح أبو القاسم الشعبي سنة 315هـ بلد مزاتة، ومطماطة، وهوارة، وسائر الإباضية والصفرية ونواحي تاهرت قاعدة المغرب الأوسط[1].

وقد أورد السلطان المؤيد أبو الفداء في تقويمه نقلا عن العزيز بن المغربي، بأن تاهرت القديمة، وهي تاهرت عبدالحق، وبينها وبين تاهرت الجديدة مرحلة، وهي مدينة جليلة، وكانت تسمى قديما. عراق المغرب، وبها من أعمالها مرسى على البحر يقال له مرسى فروخ. ومدينة تاهرت الأولى على جبل متوسط، وبها منبر. وكذلك الحدثة بها منبر، وهي أعظم من القديمة، ولأهلها مياه تخرق دورهم قال ابن سعيد وكان لتيهرت في المملكة الرستمية صيت عظيم وبها كرسي ملك الإباضية.

ونقل أبو الفداء رواية ابن حوقل وقال. وتيهرت مدينة كبيرة كثيرة الزرع، وقد قيل ان كورة تيهرت من إفريقيا وهي غرب سطيف. وكانت قاعدة المغرب الأوسط، وكان بها مقام بني رستم ملوك المغرب الأوسط حتى انقرضت دولتهم بدولة الخلفاء الفاطميين الذين صاروا ملوك مصر.

وذكر في كتاب الأطوال: بأن تاهرت العليا طولها وعرضها كما ذكر ثم قال. تاهرت السفلى طولها (كو = 5) وعرضها (ركط = 31) فدل على أن هناك مكانا أخر يسمى تاهرت وتاهرت السفلى طولها (يطن) وعرضها (لديه)، وعن الادريس بأن تيهرت كانت فيما سلف مدينتين كبيرتين، والقديمة على جبل ليس بالعالي ولها سوق[2].

ولعل في رواية صاحب كتاب الاستبصار ما يوضح أكثر أهمية موقع تيهرت حيث قال: «مدينة تيهرت مدينة مشهورة قديمة كبيرة عليها سور

---

(1) ابن خلدون. نفس المصدر. ص 39.
(2) الملك المؤيد: التقويم. (طبعة باريس 1840م)، ص 124 وما بعدها.

صخري، ولها قصبة منيعة تسمى المعصومة. وهي في سفح جبل يسمى قرقل. وهي على نهر يأتيها من ناحية الغرب يسمي مينه، ولها نهرا آخر يجري من عيون تجتمع يسمى تانس، ومنه تشرب أرضها وبساتينها، وكان لها بساتين كثيرة فيها جميع الثمار وفيها سفرجل يفوق سفرجل جميع البلاد حسنا ومطعما ورائحة. وبلد تاهرت شديدة البرد كثيرة الغيوم والثلج[1].

وأورد الكرخي: تاهرت في القسم الشرقي من أقسام المغرب وقال: «وأما المغرب فهو نصفان يمتدان على بحر الروم نصف من شرقه، ونصف من غربه فأما الشرقي فهو. برقة وإفريقيا، و تاهرت، وطنجة، والسوس، وزويلة، وما في أضعاف هذا الاقليم. وأما الغربي فهو الأندلس[2].

أما القزويني فقال: «تاهرت اسم مدينتين متقابلتين بأقصى المغرب يقال لاحداهما تاهرت القديم وللأخرى الحديث. وهما كثيرتا الأشجار، وافرتا الثمار، سفر جلهما يفوق سفرجل الآفاق طعما وحسنا، وبهما كثرة الأمطار والأنداء والضباب، وشدة البرد، قلما ترى الشمس بها»[3].

وأطنب ياقوت الحموي في معجمه في وصف تاهرت فقال ناقلا عن عدد من المؤرخين: «تاهرت بفتح وسكون الراء وتاء فوقهما نقطتان اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب يقال لإحداهما تاهرت القديمة وللأخرى تاهرت الحديثة، بينهما وبين مدينة المسيلة ستة مراحل، وهي بين تلمسان، وقلعة بني حماد، وهي كثيرة الأنداء والضباب والأمطار حتى أن الشمس بها قل أن ترى ودخلها أعرابي من أهل اليمن يقال له أبو حلال ثم خرج إلى أرض السودان، فأتي عليه يوم له وهيج، وحر شديدة وسموم. في تلك

(1) كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار (طبعة وبغ 1852) ص 66

(2) أبو اسحاق الفارسي الكرخي تارخ، نقلا عن كتاب صورة الأقاليم للبلخي (ليدن 1870)، ص 45 وما بعدها.

(3) القزويني أبو بكر تارخ، ص 113 وما بعدها

الرمال فنظر إلى الشمس مضحية راكدة على قمم الرؤوس، وقد صهرت الناس فقال مشيرا إلى الشمس: أما والله لئن عززت في هذا المكان لطالما رأيتك ذليلة بتيهرت، وأنشد.

ما خلق الرحمن من طرفه أشهى من الشمس بتاهرت

وذكر صاحب اقليم جغرافية أن تاهرت في الاقليم الرابع وأن عرضها ثمان وثلاثون درجة. وهي مدينة جبلية وكانت تسمى قديما عراق المغرب ولم تكن في طاعة صاحب إفريقيا ولا بلغت عساكر المسودة إليها قط ولا دخلت في سلطان بني الأغلب، وانما كان آخر ما في طاعتهم مدن الزاب.

وقال أبو عبيد: تاهرت مسورة لها أربعة أبواب: باب الصفا، وباب المنازل، وباب الأندلس، وباب المطاحن. وهي في سفح جبل يقال له جزول لها قصبة مشرفة على السوق تسمي المعصومة وعلى نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى مينة وهو في قبلتها، ونهر آخر يجري من عيون تجتمع تسمى تاتس، ومنه شرب أهلها وأرضها. وهو في شرقيها، وفيها جميع الثمار، وسفر جلها يفوق سفرجل الآفاق حسنا وطعما، وهي شديدة البرد، كثيرة الغيوم والثلج ومن أشعار بكر بن حماد التاهرتي في تاهرت قوله:

مـــا أحسن البرد ورعيانـــــه وأطـــرف الشمس بتاهـــــرت
تبدو من الغيم إذا ما بـدت كـــأنها تـــنشر مـــــن تحت
فنحـــــن في بحر بــــــلا لجة تجري بنا الــريح على السمت
نفرح بالشمس إذا ما بــدت كفـــرح الذمـــي بـــــالسبت[1]

ثم يواصل ياقوت الحموي وصفه لمدينة تاهرت ويقول: ونظر رجل إلى توقد الشمس بالحجاز، وهو من أهل تاهرت ذهب حاجا، فقال أحرقي

(1) ياقوت الحموي: معجم البلدان. ص 813 وما بعدها.

ما شئت والله انك بتاهرت لذليلة وقال. وهذه تاهرت الحديثة، وهي على خمسة أميال من تاهرت القديمة، وهي حصن أبي بخاته، وهو شرقي الحديثة ويقال انهم لما أرادوا بناء تاهرت القديمة كانوا يبنون بالنهار، فإذا جن الليل وأصبحوا وجدوا بنيانهم قد تهدم فبنوا حينئذ تاهرت السفلى، وهي الحديثة وفي قبلتها لواته، وهوارة، في قرارات. وفي غربيها، زواغة، وبجنوبيها مطماطة، وزناته، ومكناسة.

وكان موضع تاهرت ملكا لقوم مستضعفين من مداسة، وصنهاجة، فأراد عبدالرحمن بن رستم أن يشتريه منهم فرفضوا ولكنهم قبلوا أن يدفع لهم الخراج من الأسواق مقابل السماح له ولرجاله ببناء المنازل والمساكن فبنوا وسموا الموضع معسكر عبدالرحمن بن رستم، وبما أن المكان الذي نزل فيه عبدالرحمن بن رستم مربع لا شجر فيه قالت البربر أنه نزل تاهرت ومعناه الدفء .

ومن أقوال العلامة أبي عبدالله البنا المعروف بالبشاري من علماء المائة الرابعة للهجرة في تاريخه عن تيهرت قوله: تاهرت هي اسم القصبة أيضا، وهي بلخ المغرب قد أحدقت بها الأنهار والتفت بها الأشجار، وغابت في البساتين ونبعت حولها الأعين، وجل بها الإقليم، وانتعش فيها الغريب، واستطابها اللبيب يفضلونها على دمشق وأخطأوا وعلى قرطبة وما أظنهم أصابوا، هو إقليم تاهرت بلد كبير كثير الخير رحب، رفق، رشيق الأسواق غزير المياه جيد الأهل، قديم الموضع، محكم الرَّصف، عجيب الوصف، غير أنه متى يقاس المغرب بالشام وأين مثل دمشق في الاسلام، ولقرطبة اسم وذكر وشأن بهاجا معان على ثلثي البلد قد بنيا بالحجارة والحيل قريبان من الأسواق من دوربها المعروفة أربعة: درب مجانة، ودرب المعصومة، ودرب حارة القفير، ودرب البساتين، بقربها مدينة تسمى. رها وقد خربت، وتنس مسورة على البحر، شربهم من نهر وكذا قصر الفلوس. وتاهرت السفلى على واد عظيم ذات أعين وبساتين(1).

---

(1) تاريخ ابن البناء: (ليدن — 1876م) ص 46 — 47 وما بعدها.

وبما ذكره المؤرخ ابن الصغير في تاريخه على تيهرت قوله: ثم شرعوا في العمارات، والبناء، وأحياء الموات وغرس البساتين في البلد، وتفسحوا فيه. وأتتهم الوفود والرفاق، من كل الأمصار وأقاصي الأقطار، فقل أحد أن ينزل بهم من الغرباء إلا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم لما يراه من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه، وعدله في رعيته، وأمانه على نفسه وماله، حتى لا ترى دارا إلا قيل هذه لفلان، وهذا مسجد القرويين، ومربعتهم، وهذا مسجد البصريين، وهذا مسجد الكوفيين واستعملت السبل إلى بلاد السودان، وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب، بالتجارة، وضروب الأمتعة إلى أن قال في حق الإمام أفلح: وشمخ في ملكه، وابتنى القصور واتخذ أبوابا من الحديد، وبنى الجفان، وأطعم فيها الجيعان وعمرت معه الدنيا وكثرت الأموال والمستغلات، وأتته الرفاق والوفود، من كل الأمصار والآفاق، بأنواع التجارات، وتنافس الناس في البنيان حتى ابتنى الناس القصور والضياع.

وذكر ابن خلدون بأن الإباضية شرعوا في بناء مدينة تاهرت في سفح جبل كزول السياح على تلول منداس، واختطوها على وادي ميناس النابعة منه عيون بالقبلة وتمر بها وبالبطحاء إلى أن تصب في وادي شلف، فأسسها عبدالرحمن بن رستم واختطها سنة أربع أوربعين ومائة فتمدنت واتسعت خطتها(1).

أما ابن حوقل فقد قال: والتجار، والتجارة بتيهرت المحدثة أكثر، ولهم مياه تدخل أكثر دورهم وأشجارهم وبساتين كثيرة وحمامات وخانات وهي احدى معادن الدواب والماشية، و الغنم، والبغال، والبراذين، والفراهيد، ويكثر عندهم العسل والسمن، وضروب الغلات(2).

---

(1) ابن خلدون العبر: ج6، ص 121.
(2) المسالك والممالك (ليدن 1872م)، ص 6 وما بعدها.

وقال ابن عذاري: فاجتمع على عبدالرحمن، الاباضية وعزموا على بنيان مدينة تجمعهم فنزلوا بموضع تيهرت، وهي غيضة بين ثلاثة أنهار فبنوا مسجدا من أربع بلاطات واختط الناس مساكنهم، وكانت في الزمان الخالي مدينة قديمة فأحدثها الآن عبدالرحمن بن رستم وبقي بها إلى أن مات وكانت حول تيهرت بساتين من أنواع الثمار كثيرة الأشجار، وهي شديدة البرد كثيرة الأمطار قيل لبعض الظرفاء من أهلها كم الشتاء عندكم من شهر في السنة فقال ثلاثة عشر شهرا[1].

## أشهر المدن التابعة لتاهرت:

هناك عدد من المدن في بلدان المغرب العربي كانت تابعة لتاهرت سواء بصفة مباشرة أو عن طريق انتشار المذهب الإباضي بها، وأغلبها في المغرب الأوسط ومنها:

1 ــ مدينة تنس: بفتح التاء والنون، وتقع على ساحل البحر، وتبعد عن مدينة تاهرت بثلاثة مراحل، وعن وهران في الغرب بثمانية أيام وعن مليانة في الجنوب بثلاثة أيام. هكذا ذكر البكري، ونقل عنه ياقوت الحموي. وهي مدينة مسورة وحصينة، بداخلها قلعة صعبة ومسجد جامع وأسواق كثيرة، وبجوارها نهر ينزل من جبال الظهرة على مسافة يوم من جهةالقبلة ويلف حولها من جهة الشرق ليصب في البحر. وتسمى تنس الحديثة. وعلى البحر حصن يذكر أهل تنس بأنه قديم، ومعمور قبل بناء تنس الحديثة التي أنشأها عدد من البحارة الأندلسيين وعلى رأسهم. الكركدن، وأبو عائشة، والصقر، في منتصف القرن الثالث الهجري (262هـ 904 ــ 905م) وهم من أهل البيرة، وأهل تدمر إلى جانب أهل تنس من ولد إبراهيم بن سليمان العلويين.

---

(1) البيان المغرب، ص 203.

وكان هؤلاء الأندلسيون يحضرون إلى تنس في الشتاء ليشتوا بها في مرساها بالاستقرار بداخل القلعة القديمة، وأحداث الأسواق والمنازل والمساكن بها ففعلوا وبذلك ظهرت تنس الحديثة وتقاطر الناس إليها من الأطراف لسكناها خاصة من قرية سوق إبراهيم المجاورة لها.

وقد هجاها سعد ابن أشكل التاهرتي رغم كونه مات بها فقال:

نأى النوم عني واضمحلت عرى الصبر — وأصبحت عن دار الأحبة في أسر
وأصبحت عن تيهرت في دار غربة — وأسلمني مر القضاء من القدر
إلى تنس ذات النحوس فانها — يساق إليها كل منتقص العمر
هو الدهر والسياق والماء حاكم — وطالعها المنحوس صمصمة الدهر
بلاد بها البرغوث يحمل راحلا — ويأوي إليها الذئب في زمن الحر
يرجف منها القلب في كل ساعة — بجيش من السودان يغلب بالوفر
ترى أهلها صرعى دَوِي أم ملدح — يروحون في سكر ويغدون في سكر

وهاجها آخر فقال:

أيها السائل عن أرض تنس — مقعد اللوم المصفى والدنس
بلدة لا ينزل القطر بها — والندى في أهلها حرف درس
فصحاء النطق في (لا) أبدا — وهم في (نعم) بكم خرس
فمتى يلمم بهاجاهلها — يرتحل عن أهلها قبل الغلس
ماؤها من قبح ما خصت به — نجس يجري على ترب نجس
فمتى تلعن بلادا مرة — فاجعل اللعنة دأبا لتنس

ومما ذكره الشريف الادريسي في وصفها قوله: ومدينة تنس على مقربة من ضفة البحر المالح على بعد ميلين منه، وبعضها على جبل وقد أحاط به السور وبعضها في سهل الأرض. وهي مدينة قديمة أزلية عليها سور حصين وحضيرة مانعة دائرة بها. وشرب أهلها من عين. ولها في جهة الشرق واد كثير المياه وشربهم منه في أيام الشتاء والربيع، وبها فواكه وخصب، وإقلاع، وحط وبها أقاليم وأعمال، ومزارع، وبها الحنطة ممكنة جدا وسائر الحيوانات موجودة، وتخرج منها إلى كل الآفاق في المراكب وبها من الفواكه

كل طريفة، ومن السفرجل الطيب المعتق ما يفوت الوصف في صفته وكبره، وحسنه. وبينها وبين تلمسان تسعة مراحل تقطنها عدة بطون من زناتة مثل ورما كسين، ورشفانة، ومغراوة، وبنو راشد، وزقارة. وهم أصحاب هذه الفحوص، وأقوام رحالة ضواعن ينتجعون من مكان إلى مكان غيره لكنهم متحضرون وفرسان يركبون الخيل ولهم عادية لا تؤمن، ولهم معرفة بارعة، وحذق، وكياسة، ويد جيدة في علم الكتف.

وذكرت دائرة المعارف الإسلامية بأنها مدينة عظيمة ذات تجارة واسعة مع عرب اسبانيا وقد خربها الماء في حدود ستمائة ونيف وعشرين وتراجع إليها بعض أهلها ودخلها أبو الربيع الملياني في تلك المدة. وهم ساكنون بين الخراب. ومنذ القرن الثالث عشر الميلادي صارت قصبه مملكة صغيرة خربها خير الدين عام 1518م[1].

2 ـــ مدينة وهران إلى الشمال الغربي من تاهرت.

3 ـــ مدينة الشلف.

4 ـــ المدينة الخضراء على مسافة يوم واحد من مليانة كثيرة البساتين على شاطيء نهر، وتعتبر من أخصَبِ مدن إفريقيا حسب رواية ياقوات الحموي. أما الادريسي فقال: هي مدينة صغيرة حصينة على نهر صغير عليه عمارات متصلة وكروم. وبها من السفرجل كل بديع ولها سوق يحضر إليه الناس من كل جهة، وحمام.

5 ـــ مدينة افكان تقع إلى الشرق من تيهرت على ثلاثة مراحل قال عنها الادريسي ان بها أرحاء (جمع رحاوات) تدور بالماء، وحمامات وقصور،

(1) الواقع أن الذي غزاها هو عروج شقيق خيرالدين لتأديب أميرها يحي الثابتي الذي كان يتعاون مع الاسبان المحتلين لوهران والمرسى الكبير ولم يخربها وانما عاقب أميرها وضم تنس إلى الحكومة المركزية بالجزائر العاصمة.

وفواكه كثيرة، وكان عليها سور من تراب تهدم، وبقية أثره موجودة. وواديها يشقها إلى نصفين متجها إلى تاهرت. وقال ابن حوقل: وإيفكان مدينة لها أرحية، وحمامات، وقصور. وكانت على عهد يعلي بن محمد اليفريني ذات سور شديدة الارتفاع والعرض وواديها يشقها إلى نصفين، ومنها إلى تاهرت بالعرض إلى المشرق. ثلاثة مراحل. وايفكان على واديها أعمال عريضة، وأجنة ومزارع. وهي اليوم خراب على أي حال.

6 ــ ومدينة غزة: وهي صغيرة القدر كما قال الادريسي بها أسواق مشهورة يرد إليها الناس في أيام معلومة، وبها مساكن حسنة وحمام، ومزارع. وأشاد بها ابن حوقل وقال انها مدينة صالحة.

7 ــ مدينة سوق ابراهيم، وبينها وبين غزة مرحلة واحدة قال عنها ابن حوقل بأنها مدينة صغيرة، وبها حمام وسوق، وتقع على نهر الشلف.

8 ــ مدينة واريفن على مرحلة واحدة من مدينة تنس، على جبال وعرة شاهقة، وعلى مرحلة واحدة من الخضراء كذلك لها كروم وجنات ذات سوان لزروع البصل، والكمون، ومعظمها من نهر الشلف.

9 ــ مدينة أوزكي قال عنها الادريسي انها من بلاد مسوفة ولمطة وهي أول مراقي الصحراء بينها وبين سجلماسة ثلاثة عشر مرحلة وبينها وبين نول سبعة مراحل، وليست كبيرة، ولكنها متحضرة وأهلها يلبسون مقندرات ثياب الصوف، ويسمونها القداور. وتسمى هذه المدينة بالبربرية «أزقى» وبالقناوية «قوقدم» والذي يريد الدخول إلى بلاد سلي، وتكرور، وغانة، من بلاد السودان لابد من ان يمر بهذه المدينة. ورغم بعدها الكبير عن تاهرت إلا أنها كانت تابعة إليها على غرار جبل نفوسة بطرابلس الحالية (والغالب أنها مدينة سعيدة الحالية).

10 ــ مدينة الغدير على بعد نصف يوم من قلعة بني حماد قال عنها الادريسي، انها مدينة حسنة أهلها بدو لهم مزارع وأراضي مباركة

والحرث بها قائم الذات، والاصابة في زروعها موجودة، والبركات في معاملاتهم كثيرة وقال صاحب الاستبصار: هي مدينة كبيرة أزلية بين جبال قد أحدقت بها، ولها نهر يجتمع من العيون في موضع دهس يخرج منه هذا النهر، ويسمى نهر سهور ويمشي من هناك إلى مدينة المسيلة. وهو نهرها. ثم قال وبقرب مدينة الغدير فحص عجيسة، وهو فحص مدبر كثير الزرع والضرع، إلا أنه شديد البرد والثلج. ولقد دخلت هذا الفحص في زمان الصيف، فرأيت الجليد ينزل فيه بالغدو، وفي أمثال تلك البلاد. برد عجيسة في الصيف وأما في الشتاء لسكرات الموت.

11 ـــ مدينة تلاغ: قال عنها صاحب الاستبصار إنها في قلعة أبي جندب وكانت مدينة كبيرة لها أسواق وجنات وأشجار كثيرة الزرع والضرع مشحونة بالعمائر متصلة المحارث والمزارع في السهول، والجبال منها جبل زالغ (تلاغ) وهو مشرف على مدينة فاس كان فيه حصن بناه المظفر بن أبي عامر.

12 ـــ مدينة يلل غير بعيدة عن غزة قال الادريسي عنها ان بها عيونا ومياها كثيرة، وفواكه، وزروع، وبلادها جيدة الفلاحة وزروعها نامية. وكانت دار امارة اباضية صغيرة مستقلة عن تيهرت.

13 ـــ مدينة قصر الفلوس غير بعيد عن وهران.

14 ـــ مدينة كرا (كران) وهي حصن قريب من مدينة شلف ذكره ابن حوقل وقال هو حصن أزلي يقال له سوق كران وبينه وبين مليانة مرحلة، وبينه وبين أشير ثلاثة مراحل له مزارع وأسواق يقع على نهر الشلف وله سوق يعمر يوم الجمعة ويقصده الكثير من التجار. وذكره ياقوت الحموي بنفس الأوصاف.

15 ـــ مدينة أنكاد على بعد ثلاثة مراحل من تيهرت غربا في ناحية تلمسان كانت قديما ذات سور من تراب شديد الارتفاع والعرض ويشقها

واديها إلى نصف كما ذكر ذلك ياقوت الحموي ((وهي مدينة أنقاد ببني سناسن في حوض ملوية)).

16 ــ مدينة مازونة وهي تل حصين فروخ في البر إلى الشرق على ستة أميال من البحر. قال عنها الإدريسي إنها مدينة بين أَجْبُلٍ وهي أسفل خندق ولها أنهار ومزارع وبساتين، وأسواق عامرة ومساكن مونقة ولسوقها يوم معلوم يتسوق إليه البربر بمختلف سلعهم وفواكههم وألبانهم، والسمن، والعسل بها كثير، وهي من أحسن البلاد صفة، وأكثرها فواكه وخصبا.

17 ــ مدينة قلعة هوارة. قال عنها صاحب كتاب الاستبصار هي قلعة منيعة في جبل خصيب فيه بساتين، وثمار وأشجار، ومزارع، وأعناب وتحتها فحص طوله نحو أربعين ميلا يشق به نهر سيراط ويسقي أكثر أرضه يسمى ذلك الفحص سيرات باسم النهر. ونهر سيرات كبير مشهور يقع في البحر عند مدينة أزواوا. وهي مدينة قديمة رومية. وفحص سيرات يسكنه قبائل كثيرة من البربر مطغرة، وغيرهم من قبائل زناتة. وزناتة تشعبت على قبائل كثيرة، وبلادهم واسعة. وللمغرب الأوسط مدن كثيرة الخصب والزرع، كثيرة الغنم. وفي النخبة «أن قلعة هوارة تسمي»: ((تاشقدالت» بالبربرية. وانها على جبل فيه معدن الحديد والزئبق.

18 ــ مدينة مليانة على ثلاثة مراحل من تيهرت، ومرحلة واحدة من مدينة الخضراء، قال عنها الإدريسي إنها مدينة قديمة البناء حسنة البقعة، كريمة المزارع ولها نهر يسقي أكثر مزارعها، وحدائقها، وجناتها، ولها أرحاء على نهرها المذكور تدور بقوة الماء، ولإقليمها حظ من سقي نهر شلف، وعلى ثلاثة مراحل منها، وفي جنوبها الجبل المسمى بجبل وانشريس يسكنه قبائل من البربر منها، مكناسة، وأوربة، وبنو أبي خليل وكتامة، ومطماطة، وبنو مليلة، وبنو ورتجان، وبنو أبي خليفة، ويصلاتن، وزولات، وزواوة، ونزار، ومطغرة ووارتزين وبنو أبي بلال، وايزكرو، وبنو أبي حكيم،

وهوارة، وطول هذا الجبل أربعة أيام، وينتهي طرفه إلى قرب تاهرت. وقال صاحب كتاب الاستبصار. مدينة مليانة قريبة من نهر أشير) وهي مدينة كبيرة من بنيان الروم جددها زيري بن مناد أيضا وفيها أثار قديمة. وهي مدينة حصينة في سفح جبل يسمى زكار وشعاب هذا الجبل كله ريحان وتنبعث منه عين خرارة عظيمة تطحن عليها الأرحية لقوتها. ولمدينة مليانة مياه سائحة وبساتين، فيها جميع الفواكه وهي من أخصب بلاد افريقيا وأرخصها أسعارا. ومدينة مليانة مشرفة على فحوص واسعة، وقرى كبيرة عامرة، ومزارع واسعة، وحولها قبائل كثيرة من البربر ويشق تلك الفحوص نهر شلف وهو نهر كبير مشهور، وعلى نهر شلف مدينة أزلية فيها أثار أولية تسمى شلف، وإليها ينسب النهر الكبير، وهو اليوم خراب، وبمثل هذه الأوصاف ذكرها ياقوت الحموي كذلك.

19 ــ مدينة تاجنة بفتح الجيم وتشديد النون، مدينة صغيرة بينها، وبين تنس مرحلة. وكذلك سوق إبراهيم ذكر ذلك ياقوت الحموي.

20 ــ مدينة أشير. بناها زيري بن مناد الصنهاجي، وتعرف بأشير زيري. وكانت مدينة قديمة، فيها آثار عجيبة، وانما بني زيري سورها وحصنها وعمرها فليس في تلك الأقطار أحسن منها. وهي بين جبال شامخة محيطة بها وداخل المدينة عينان لا يبلغ لهما غور ولا يدرك لهما قعر من بناء الأوائل، وبالقرب من المدينة بنيان عجيب يعرف بمحراب سليمان، لم ير بنيان أعظم منه ولا أحكم. فيه من الرخام والأعمدة، والنقوش، ما يقصر عنه الوصف. هذا ما ذكره عنها صاحب الاستبصار.

21 ــ مدينة معكسر بينها وبين تاهرت مرحلة كما قال الادريسي وهي قرية عظيمة لها أنهار وثمار. ومنها إلى جبل فرحان مارا مع أسفله إلى قرية عين الصفصاف مرحلة، وبها فواكه كثيرة، وزروع ونعم، ومنها إلى مدينة يلل مرحلة.

هذه هي أهم المدن الكبيرة التي كانت تتبع مدينة تيهرت، أما القري الصغيرة فلا يمكن عدها لكثرتها. وقد أشار إلى كل هذه المدن الشيخ عبدالله الباروني النفوسي في الجزء الثاني من كتابه: الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية. وعليه اعتمدنا نحن في تلخيص هذه العجالات عن هذه المراكز العمرانية التي تدل على مدى اتساع النفود السياسي لتاهرت، والدولة الرستمية من مدينة أوزكي على أبواب السودان الغربي إلى سواحل البحر المتوسط شمالا. ومن مدينة أنكاد في بلاد بين سناسن غربا إلى جربة وجبال نفوسة بطرابلس شرقا. أما النفوذ الروحي المذهبي، فهو أوسع من ذلك إذ يمتد إلى اليمن وعمان، في جنوب شبه الجزيرة العربية، وإلى جزر نجبار وجزر القمر، وطانجانيقا في شرق إفريقيا.

# اعلام الفكر والثقافة والاجتهاد
# في تيهرت الرستمية الإباضية

لم تكن تاهرت مدينة بسيطة وعادية، بل كانت قاعدة لدولة وعاصمة للعلم والفكر والثقافة، ومركزا حيويا للاقتصاد والتجارة والعمران، وموطنا مهما للفلاحة وتربية الحيوانات وغراسة الأشجار المثمرة على اختلاف أنواعها وأشكالها. وذلك بفضل ما حباها آلله بها من تربة خصبة وغيث نافع منهمر لا ينقطع على مدار السنة حتى قيل ان فصلها الشتوي يمتد على مدى ثلاثة عشر شهرا ومن شعب لا يكل عن العمل، ولا يتوقف عن بذل الجهود تلو الجهود، في مختلف ميادين الحياة وأوجه الحضارة والرقي المادي والفكري. والعلمي والأدبي.

ولعل أهم ما يميز مدينة تاهرت عن غيرها من عواصم بلدان المغرب الإسلامي، هو اهتمام شعبها بالفكر والثقافة والعلوم، ودفاعه المستميت عن المذهب الإباضي، وتمسكه به حتى في أحلك فترات تاريخه عندما داهمه أبو عبدآلله الشيعي الصنعاني، ومن جاء بعده من قادة الشيعة، واضطر أن يهاجر إلى مواطن أخرى في ورجلان، وبني مصعب، أو بني ميزاب بوادي الشبكة وفي جربة، وجبال نفوسة، وزنجبار، وعمان، واليمن وسجلماسة وغيرها.

ان إشعاع تاهرت الحضاري يمتد على رقعة جغرافية واسعة في شمال إفريقيا وغربها، وشرقها، وفي جنوب شبه الجزيرة العربية. كما أوضحنا. وقد أنجبت هذه الرقعة الجغرافية الرستمية الاباضية، عددا كبيرا قدلا يحصى من العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء، وقادة الفكر المجتهدين خاصة في المذهب

الاباضي، تركوا بصماتهم على كل جوانب الفكر الفقهي، والفلسفي والجدل وعلم الكلام، وفي النظريات الاقتصادية والاجتماعية، والسياسية والاخلاقية، وأعطوا للفكر الاسلامي دفعة قوية الى الامام في مجالاته المختلفة، خاصة ما يتصل بنظم الحكم والعقيدة والمنطق.

ورغم أن تاهرت كعاصمة سياسية، لم تعمر أكثر من قرن ونصف القرن، إلا أن تاثيرها العلمي، وإشعاعاتها الفكرية والمذهبية بقيت خالدة حتى اليوم في مواطن عديدة بالجزائر وخارجها وهذا مما يضفي الأهمية على تاريخ هذه المدينة الحضاري، ويستلزم ابرازه كجزء من تاريخ الجزائر الوطني أساسا، وتاريخ المغرب الاسلامي والحضارة الاسلامية بصفة عامة.

ومع أن هناك عددا من كتب السير حاولت أن تبرز هذا الدور وتؤرخ لماضي تيهرت، ودورها السياسي والحضاري ولعلمائها وائمتها، وفقهائها مثل:

1 — سير أبي زكريا يحي الصدراتي الورجلاني.
2 — وسير أبي عمار عبدالكافي التناوتي.
3 — وسير أبي سهل إبراهيم.
4 — وسير أبي الربيع سليمان بن عبدالسلام الوسياني.
5 — وسير أبي نوح صالح بن إبراهيم.
6 — وسير أبي القاسم البرادي الدمري.
7 — وسير أبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي.
8 — وسير أبي العباس أحمد بن يخلف المزاتي الدرجيني.
9 — وسير أحمد بن سعيد الشماخي.

إلا أن ذلك لم يكن كافيا، خاصة وأن هذه الكتب غير متداولة إلاّ لدى الخاصة أو خاصة الخاصة. ولا يعرف مجتمع المثقفين العام عنها إلا الشيء القليل.

وقد ترجم الشيخ أحمد بن سعيد الدرجيني في كتابه القيم: طبقات المشايخ بالمغرب لحوالي بمائة وأربعين عالما وفقيها من المجتهدين، ذوي الباع الواسع في الفكر والثقافة، والفلسفة، والجدل، وعلم الكلام، والبلاغة والمنطق، والشعر، والأدب، تطفح سيرهم بالمواقف الجادة، وتزخر بالأخلاق العالية، والفكر المبدع، والثقافة الواسعة، وبالدفاع المستميت عن المذهب الإباضي الذي يعتنقه عن ايمان واقتناع، ذلك المذهب الذي يتسم معتنقوه بالطهر الاخلاقي حتى اليوم.

وعلماء تاهرت وفقهاؤها منهم من كان إباضي المذهب ومنهم من كان على غيره، مالكيا، وهذا مما يثبت ويؤكد سماحة الإباضيين وعدم تعصبهم حتى يوم أن كانوا في عز قوتهم إبان وجود الدولة الرستمية الإباضية.

## بعض العلماء الإباضيين:

ان الفكر الإباضي يستمد أصوله وقواعده، من جهود عدد لا بأس به من المجتهدين الأوائل خارج الجزائر أمثال: عبدآلله بن وهب الراسي، وجابر بن زيد الأزدي، وأبي عبيدة مسلم، بن أبي كرمة رفيق جابر، والشيوخ الخطباء الخمسة الميامين الذين نقلوه من المشرق إلى المغرب وهم: أبو الخطاب عبدالأعلى بن السمح المعافري، وعبدالرحمن رستم، وأبو داود القبلي، وعاصم الصدراتي، واسماعيل بن درار الغدامسي، ثم الربيع بن حبيب.

وسنكتفي نحن في هذه الدراسة المختصرة باستعراض قائمة صغيرة لأسماء بعض هؤلاء الفقهاء والمجتهدين ثم نثنيها بإستعراض سيرة اثنين أو ثلاثة منهم كنموذج للماضي المشرق لهذه المدينة تيهرت، وللرقعة الجغرافية الرستمية الإباضية بمفهومها الواسع داخل الجزائر والمغرب، وخارجهما، ولما أداه شعبها وعلماؤها من خدمة وجهد للفكر الإسلامي، وللحضارة الإسلامية والانسانية بصفة عامة، ومن هؤلاء:

1 ـــ الشيخ مهدي النفوسي ( ق 3 هـ)، حجة في علم الاستدلال والبرهان.

2 ـــ أبو مسور يصنيتن النفوسى (ق 3 هـ) أحد المجتهدين في المذهب.

3 ـــ أبو زكرياء يحي بن يونس (ق 3 هـ)، زاهد، وورع.

4 ـــ أبو عبدآلله محمد بن عبدآلله بن الشيخ قاضي الإمام أبي اليقظان.

5 ـــ أبو محمد عبدآلله قاضي الإمام أبي حاتم.

6 ـــ أبو سهل مترجم للإمامين. أفلح، ويوسف، أقام بمرسى الخرز وقيل مرسى الدجاج، والف باللغة البربرية الأمازيغية.

7 ـــ أبو عثمان سعيد بن أبي يونس عامل الإمام أفلح على قنطرارة.

8 ـــ أبو مسور يسجا بن يوجين اليراسني (ق 4 هـ).

9 ـــ أبو خزر يغلى بن زنتاف الوسياني (ق 4 هـ).

10 ـــ أبو نوح سعيد بن زنغيل، رفيق أبي خزر (ق 4 هـ).

11 ـــ أبو زكرياء فيصل أبي مسور الجربي (ق 4 هـ).

12 ـــ أبو نوح سعيد بن يخلف المزاتي القيرواني (ق 4 هـ).

13 ـــ أبو عبدآلله محمد بن بكر الأريغي (ق 5 هـ).

14 ـــ أبو عمران موسى بن زكرياء المزاتي (ق 5 هـ ).

15 ـــ أبو عبدآلله محمد بن سليمان النفوسي فقيه مجتهد (ق 5 هـ).

16 ـــ أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي (ق 5 ).

17 ـــ أبو الربيع سليمان بن موسى الزلفيني (5 ق هـ).

18 ـــ أبو زكرياء يحي الصدراتي الورجلاني صاحب كتاب السير (ق 5 هـ ).

19 ـــ أبو محمد عبدآلله بن محمد اللواتي. كان جده وزيرا للإمام أفلح.

20 ـــ أبو عمار عبد الكافي التناوتي صاحب كتاب السير (ق 6 هـ).

21 ــ أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم الصدراتي (ق 6 هـ ).
22 ــ أبو الربيع سليمان بن داود (ق 6 هـ ).
23 ــ أبو الربيع سليمان بن عبدالسلام الوسياني (ق 6 هـ ).
24 ــ نفاث بن نصر. رفيق أبي سعيد عثمان بتاهرت.
25 ــ عيسى بن فرناس، مستشار الامام أبي اليقظان.
26 ــ محمود بن بكر مستشار أبي اليقظان ورفيقه الخاص.
27 ــ عبدآلله بن اللمطي.
28 ــ عبدالعزيز بن الأوز والفقيه بن العفير.
29 ــ بكر بن حماد التاهرتي الشاعر، والأديب، والفقيه.
30 ــ أبو مرداس التبرستي رفيق الإمام عبدالوهاب بن أفلح.

## علماء تاهرت غير الإباضيين:

ومن العلماء غير الإباضيين الذين أنجبتهم تاهرت أو عاشوا بها:

1 ــ زكرياء بن بكر بن أحمد الغسالي الملقب بابن الأشج، ولد بتاهرت عام 310هـ (922 ــ 923م)، وتوفي بها عام 393هـ (1002 ــ 1003م) وقيل بقرطبة.

2 ــ عبدآلله بن حمود بن هلوب بن داود بن سليمان المكنى بأبي محمد طنجي التاهرتي.

3 ــ أبو الطيب محمد بن أبي بردة الشافعي (ق 4 هـ ) هاجر مدة إلى الأندلس ثم عاد إلى تاهرت.

4 ــ محمد بن عيسى بن حنين التميمي التاهرتي نزيل فاس ثم سبتة، ويدعى ابن الدقاق.

5 ــ عبدآلله بن محمد بن حسين التميمي التاهرتي نزيل سبتة كذلك.

6 ــ الحسن بن علي بن طريف التاهرتي النحوي نزيل سبتة كذلك، ومن تلاميذة القاضي عياض السبتي صاحب كتاب الشفاء.

7 ــ قاسم بن عبدالرحمن التاهرتي تلميذ بكر بن حماد التاهرتي.

8 ــ ابنه أبو الفضل أحمد بن قاسم التاهرتي البزاز ولد عام 309 هـ وهاجر إلى الأندلس عام 317هـ، وتوفي عام 396هـ وممن درس عليه وروى عنه العالم المشهور أبو عمران موسى بن عيسى الفاسي فقيه القيروان، واستاذ الفقيه عبدآلله بن ياسين داعية المرابطين، ومؤسسة دولتهم بالصحراء الكبرى والمغرب الأقصى.

9 ــ سعد ابن أشكل التاهرتي الذي هجا مدينة تنس شعرا.

10 ــ أبو محمد عبدآلله بن منصور التاهرتي.

11 ــ أبو الربيع سليمان بن زرقون النفوسي الذي درس في سجلماسة على الشيخ ابن الجمعي، وفي توزر كذلك مع ابن كيداد، ثم رجع إلى قريته: «تا بديوت» بجبل تير شيوين في نفوسة، وتصدى للتدريس والأقراء، والوعظ، والإرشاد في ديوان خاص به، وتردد كثيرا على القيروان.

12 ــ أحمد بن فتح ابن الخراز التاهرتي الذي سافر إلى بصرة فاس، وأعجب بنسائها وقال في إحداهن مادحا ومتغزلا:

ما حاز كل الحسن الاقينة ... وجناتها هيفاء غير مخاض
قبح الاله الدهر إلاقينة ... بصرية في حمرة وبياض
الخمر في لحظاتها والورد في ... وجناتها والكشح غير نغاض
في شكل مرجي ونسك مهاجر ... وعفاف مني وسمت إباض
تيهرت أنت خلية وبرقة ... عوضت عنك ببصرة فاعتاض
لا عذر للحمراء في كلفي بها ... أو تستفيض بأحمر وبياض

# بكر بن حماد التاهرتي الشاعر والمحدث
# (200 ــ 296هـ ــ 815 ــ 909م)

أبو عبدالرحمن بكر بن حماد بن سهل بن أبي اسماعيل الزناتي التاهرتي، ولد بمدينة تاهرت حوالي عام 200هـ (815م) ونشأ بها شغوفا بحب العلم والمعرفة والفكر والأدب، فجلس إلى علماء عصره وأدبائه، للتزود بعلومهم ومعارفهم، ثم رحل إلى المشرق في وقت مبكر من شبابه عام 217هـ (832م) طلبا للعلم والمعرفة كذلك ــ وتنقل بين بغداد، والبصرة، والكوفة، وجلس إلى حلقات علمائها وأدبائها، ودرس على مسدد الأسدي البصري، والتقى بكبار الأدباء والشعراء أمثال: شاعر الهجاء دعبل الخزاعي واللغوي الراوية، العباس بن الفرج الرياشي، والشاعر الأديب علي بن الجهم ابن بدر، وسهل بن محمد السجستاني الشاعر واللغوي، ومسلم بن الوليد صريع الغراني وحبيب بن أوس الطائي، وأبو تمام الشاعر، وابن الأعرابي، وغيرهم فانتفع بعلومهم ومعارفهم ووثق صلاته بالخليفة العباسي المعتصم ومدحه ورد على دعبل الخزاعي الذي هجاه فقال في حقه:

أيهجــو أمير المؤمـــنين ورهطـــه ويمشي على الأرض العريضة دعبل
أما والـذي أرسى ثبيرا مكانـــه لقد كادت الدنيا لـذاك تزلـزل
ولكـــن أمير المؤمـــنين بفضلـــه يهم فيعفـو أو يقـــول فيفعـــل
وعاتبني فيـه حبيب وقـــال لي لسانك محذور وسمك يقتـــــل
وإني وان صرفت في الشعر منطقي لأنصف فيما قلت فيـه وأعـدل

كما هجا عمران بن حطان الخارجي الذي مدح عبدالرحمن بن ملجم قاتل الإمام علي كرم الله وجهه وقال في مطلع قصيدته:

قل لابن ملجم والأقدار غالبـة هـدمت ويلك لـلإسلام أركانـا
قتلت أفضل من يمشي على قدم وأول النـاس إسلامـا وإيمانـا
وأعلم النـاس بالقـرآن ثم بما سن الرسول لنا شرعا وتبيانا
صهرا لنبـي ومـولاه ونـاصره أضحت مناقبه نـورا وبرهانـا
فلا عفا آلله عنه مـا تحملـه ولا سقي قبر عمران بن حطانا

ومن العراق عاد بكر بن حماد إلى القيروان التي مر بها مرور الكرام في بداية رحلته إلى المشرق وذلك عام 239هـ (853م) وأخذ يتردد بينها وبين رقادة، ويتصل بأمرائها من بني الأغلب خاصة زيادة آلله الثالث، ويمدحهم بأشعاره، وممن أخذ عنهم بالقيروان، عون بن يوسف الخزاعي، والقاضي سحنون بن سعيد التنوخي القيرواني.

وقد طالت إقامة بكر بن حماد بالقيروان ورقادة وكثر تردده على بيت الحكمة برقادة، وجلوسه إلى علمائها ومدرسيها، ومحدثيها وفقهائها، ووثق صلاته بالوزير الأديب عبدآلله بن الصائغ وزير الأمير زيادة آلله الثالـث.

وابتداء من عام 274هـ (887م) تفرغ بكر للتدريس في جامع القيروان والتف حوله عدد من الطلبة منهم قاسم بن أصبغ البياني القرطبي الأندلسي.

ومن أشعاره في هذه الفترة مدحه لأمير بصرة فاس أحمد ابن القاسم. بن ادريس:

ان السماحـة والمروءة والنـدى جمعوا لأحمد من بنى القـاسم
وإذا تفاخرت القبائـل وانتـمت فافخـر بـفضل محمـد وبفاطـم
وبجعفر الطيـار في درج العـلا وعلي الـعضب الحسام الصارم
اني لمشتـاق إلـيك وانما يسمـو العقاب إذا سما بقـوادم
فابـعث إلي بمركب أسمو بـه علي أكـون علـيك أول قـادم
وأعلم بـأنك لـن تنـال محبـة إلا بـبعض مـلابس ودارهـم

وفي عهد الأمير أبي حاتم يوسف بن محمد بن أفلح (281 ـ 294هـ ـ 894 ـ 908م) حضر إلى تيهرت وعاش أحداث التآمر عليه فاعتذر إليه بقطعة شعرية يبدو منها أنه شارك في المؤامرة وندم:

ومؤنسة لي بالعراق تركتها وغصن شبابي في الغصون نضير
فقالت كما قال النواسي قبلها عزيز علينا أن نراك تسير
فقلت جفاني يوسف بن محمد فطال علي الليل وهو قصير
أبا حاتم ماكان ما كان بغضة ولكن أتت بعد الأمور أمور
فاكرهني قوم خشيت عقابهم فداريتهم والدائرات تدور
وأكرم عفو يأثر الناس أمره إذا ما عفا الإنسان وهو قدير

وعاد بعد هذه الحادثة إلى القيروان ولكنه تعرض لمضايقة أميرها زيادة الله الثالث، واضطر أن يعود إلى مسقط رأسه تيهرت عام 295هـ (907م) صحبة ابنه عبدالرحمن وفي الطريق إليها هاجمهما اللصوص وجرحوا بكرا، وقتلوا إبنه فرثاه بالمقطوعة الشعرية التالية:

بكيت على الأحبة إذ تولوا ولو أني هلكت بكوا علي
فيانسلي بقاؤك كان ذخرا وفقدك قد كوى الأكبادكيا
كفى حزنا بأني منك خلو وأنك ميت وبقيت حيا
ولم أكن يائسا فيئست لما رميت الترب فوقك من يديا
فليت الخلق إذ خلقو أطاعوا وليتك لم تكن يا بكر شيئا
تسر بأشهر تمضي سراعا وتطوي في لياليهن طيا
فلا تفرح بدنيا ليس تبقى ولا تأسف عليها يا بنيا
فقد قطع البقاء غروب شمس ومطلعها علي يا أخيا
وليس الهم يجلوه نهار تدور له الفرا قد والثريا

وقبل أن يسلم بكر بن حماد روحه إلى ربه في شهر شوال عام 296هـ، مدح تيهرت ووصف قساوة بردها فقال:

ما أحسن البرد وريعانه وأطرف الشمس بتاهرت

تبدو من الغيم إذا ما بدت كأنها تنشر من تخت

فنحن في بحر بلا لجة تجري بنا الريح على السمت

نفرح بالشمس إذ ما بدت كفرحة الذمي بالسبت

ورثاها عندما خربها جنود الشيعيين العبيديين في الشهور الأخيرة من حياته عام 296هـ وقال:

... منازل قوم ... يزورونا إنا لفي غفلة عما يقاسونا

لو ينطقون لقالوا الزاد ويحكم حل الرحيل فما يرجو المقيمونا

الموت أجحف بالدنيا فخربها وفعلنا فعل قوم لا يموتونا

فالآن فابكوا فقد حق البكاء لكم فالحاملون لعرش الله باكونا

ماذا عسى تنفع الدنيا مجمعها لو كان جمّع فيها كنز قارونا

توفي بكر بن حماد في شهر شوال من عام 296هـ (جوان جويلية 909م) بقلعة أبي حمة في جوف مدينة تيارت عن عمر ستة وتسعين عاما بعد سقوط مدينة تاهرت في أيدي العبيديين الفاطميين ببضعة شهور ولكن ذكراه بقيت حية كأحد أبرز شعراء الجزائر في القرن الثالث الهجري.

# الشيخ الحسن بن علي بن طريف التاهرتي
# توفي في ذي الحجة (501هـ ـ 8/7/1108م)

عالم نحوي ولغوي، درس في تاهرت مدَّة ثم رحل إلى الأندلس ودرس هناك على عدد من علمائها. وعندما عاد إلى بلاده أصبح عميد الأدباء ومن تلاميذه القاضي عياض السبتي صاحب كتاب الشفاء، الذي أشاد به وقال عنه في فهرسته: شيخ بلدنا في النحو، مشهور بالصلاح، ودرس عليه جماعة من أصحابنا، وشيوخنا، ومن ضمن الكتب التي درسناها عليه في النحو واللغة والحديث:

ـ كتاب علوم الحديث للحاكم أبي عبدالله.
ـ كتاب مشكل الحديث لأبي بكر بن فورك.
ـ كتاب الجمل لأبي القاسم الزجاجي.
ـ كتاب الواضح للزبيدي.
ـ كتاب الكافي لأبي جعفر النحاس.
ـ كتاب المقتصد للمبرد.
ـ كتاب أدب الحكمة لابن قتيبة.
ـ كتاب الايضاح للفارسي.
ـ كتاب فصيح الكلام لثعلب.
ـ كتاب الأمالي لأبي علَي القالي.
ـ كتاب الكامل للمبرد.

# أبو يعقوب يوسف إبراهيم الورجلاني
# (500 — 570 هـ ـ 1106 ـ 1174م)

ولد بمدينة ورجلان في مطلع القرن السادس الهجري (12م) واعتكف في بلده على الدراسة والتحصيل منذ صغره ثم رحل إلى قرطبة وتفرغ لدراسة مختلف فنون اللغة والأدب، ونبغ فيها حتى لقب بالجاحظ ثم عاد إلى وطنه ورجلان، وقام برحلة إلى المشرق وتجول في معظم عواصمه العلمية للدراسة، والتحصيل، والاطلاع والمشاهدة، ثم عاد إلى إفريقيا وتجول في أ قاليمها حتى بلغ إلى الأقاليم الاستوائية كما ذكر بنفسه في كتابه: الدليل والبرهان لأهل العقول. وبعد ذلك عاد إلى ورجلان وانكب على التدريس والتأليف، ولازم داره سبعة أعوام كاملة، لم يكن يرى فيها كما قال الشماخي إلا ناسخا وللأقلام باريا، وللدراسة فاعلا، وللحبر طابخا، وللدواوين مقابلا، وللكتب مفسرا، ووصفه الدرجيني فقال. ((كان له في كل جو متنفس، ومن كل نار مقتبس وهذا الشيخ له يد في علم القرآن، وفي علم اللسان، وفي الحديث والأخبار، وفي رواية السير والآثار، وعلم النظر والكلام والعلوم الشرعية، عباداتها والأحكام، وعلم فرائض المواريث ومعرفة رجال الحديث، ولم يخل من اطلاع على علوم الأقدمين، بل حصل على ملازمة السنة قطعة من علم الحكماء المنجمين، ومن كتبه:

— تفسير القرآن في سبعين جزءا (يوجد جزء منه في روما).
— كتاب فتوح المغرب في التاريخ (توجد نسخة منه في ألمانيا).
— كتاب مروج الذهب في الفلسفة والحكمة. ترجم إلى عدة لغات أوروبية.
— كتاب الدليل والبرهان إلى أهل العقول.

— كتاب ترتيب مسند الربيع بن حبيب.
— القصيدة الحجازية من 350 بيتا سجل فيها أحداث رحلته إلى المشرق.

ويعتبر كتاب الدليل والبرهان موسوعة تحدث فيه عن الحكمة والفلسفة والإلهيات، والأصول، وعلم الكلام، والمنطق والهندسة، والتفسير، ومناقشة المذاهب، وغيرها.

وقد اطلع البرادي على جزء من كتابه تفسير القرآن في أريغ بوادي سوف وقال: رأيت في بلاد ريغ سفرا كبيرا لم أر ولا رأيت قط سفر أضخم منه ولا أكبر منه قررت أنه يجاوز سبعمائة ورقة أو أقل أو أكثر فيه تفسير فاتحة الكتاب والبقرة وآل عمران. فلم أر ولا رأيت أبلغ منه ولا أشفى للصدر في لغة أو اعراب أو حكم مبين، أو قراءة ظاهرة أو شاذة، أو ناسخ أو منسوخ، أو جميع العلوم منه. يقال إنه يوجد من هذا التفسير اليوم جزء واحد بأحدى خزائن روما عاصمة إيطاليا.

بعد هذا العرض ومن خلاله يمكن أن نستخلص النتائج التالية:

أولا — ان مكانة تيهرت الحضارية كعاصمة للدولة الرستمية الإباضية، لا تقل عن غيرها من العواصم الكبرى المغربية والمشرقية والأندلسية، رغم قصر عمرها. وهذا ما جعل البعض يشبهها ببغداد العراق، وبلخ، وسجستان، ودمشق الشام، وقرطبة الأندلس، وما ذلك إلا بفضل ما أنجبته من علماء وأدباء، وشعراء، وفقهاء وما استقطبته من رجال الفكر والثقافة مشارقة ومغاربة وأندلسيين. تجاوزت سمعتهم ومكانتهم حدود الجزائر، والمغرب إلى الأندلس، والمشرق، وكان البعض منهم أساتذة لعلماء أجلاء أمثال القاضي عياض السبتي، ولعدد من الخلفاء والأمراء بالقيروان، ورقادة وبغداد، والبصرة، والكوفة، وقرطبة، وكانوا ذوي باع في مختلف فروع المعرفة، ولهم انتاج فكري وأدبي، وفقهي، متنوع وكثيف، مايزال الكثير منه مغمورا في الدهاليز لم يقدر له أن يرى النور.

ثانيا ــ كان معظم أئمة الدولة الرستمية علماء، وأدباء وشعراء، يهتمون بالعلم، وقضايا الفكر، والثقافة. ويجلون العلماء والفقهاء، والشعراء، ويتخذون منهم مستشارين لهم، ويقربونهم منهم، ويسندون إليهم مناصب الوزراء، والقضاة، وحكام الأقاليم، ويعقدون معهم مناظرات، ومحاورات علمية: فكرية، وأخلاقية، وتنظيرية، ويهتمون بجمع الكتب، ونسخها، واستجلابها من كل مكان حتى من أقاصي المشرق.

فالإمام أفلح مدح العلم ورجاله، وأشاد بهما في شعره وقال في قصيدة طويلة له من أربعين بيتا:

| | |
|---|---|
| العلم أبقى لأهل العلم آثارا | يريك أشخاصهم روحا وأبكارا |
| حي وان مات ذو علم وذو ورع | ما مات عبد قضى من ذاك أو طارا |
| وذو حياة على جهل ومنقصة | كميت قد ثوى في الرمس أعطارا |
| لله عصبة أهل العلم ان لهم | فضلا عن الناس غيابا وحضارا |

والإمام عبدالوهاب بن أفلح اهتم بجمع الكتب ونسخها واقتنائها فأرسل إلى إباضي البصرة بالعراق ألف دينار ليشتروا له الكتب فأشتروا بها ورقا، ونسخوا له كتبا حملوها إليه على أربعين بعيرا، وضعها في مكتبة قلعة المعصومة التي قيل ان بها مالا يقل عن ثلاثمائة مجلد في مختلف فنون العلم، والفكر والمعرفة. وهي التي أحرقها أبو عبد.لله الشيعي الصنعاني عندما هاجم تيهرت عام 296هـ (909م) بعد أن انتقى منها الكتب التي تتصل بالحساب والهندسة والفلك، وغيرها من المواد العلمية.

ثالثا ــ اهتم علماء تيهرت والبلاد التابعة لها بالعلوم الدينية والمذهبية، والقضايا الأخلاقية، وعلم الألهيات وذلك نظرا للظروف الصعبة التي أحاطت بفرق الخوارج عامة ومنها الإباضية في القرون الهجرية الثلاثة: الثاني والثالث، والرابع، تلك الفترة التي تصارعت فيها الفرق المذهبية الإسلامية، وتحاورت، وتقاتلت فيما بينها واصطدمت أكثر من مرة، وفي أكثر من

موطن. ولذلك تجند علماء الإباضية للرد على الخصوم، وشرح نظرياتهم، وتوضيح مواقفهم،، وفلسفات شيوخهم وأئمتهم، والمجتهدين منهم فأثروا بذلك الفكر الفقهي الإباضي إثراء كبيرا، وألفوا كتبا كثيرة ومتنوعة في مختلف القضايا، ما تزال حتى اليوم مرجعا هاما للمختصين والمجتهدين الذين يهتمون بالفقه المقارن.

رابعا — كثر اهتمام علماء المذهب الإباضي في تيهرت وغيرها بعلم الكلام، والمنطق، والجدل، والفلسفة، والحكمة، وبالقضايا الاخلاقية. فبعثوا في الفكر الإسلامي حيوية منقطعة النظير ساعدت العلماء والمفكرين على الإبداع الفكري، والتنظير المذهبي خاصة في القضايا الفقهية المذهبية، ونظم الحكم، والمنطق الجدلي.

إن بصمات العلماء الإباضيين في تاهرت وخارجها في العلوم والمعارف الإسلامية، واضحة وبارزة، ولا تحتاج إلى أي دليل، وان جهودهم في هذا الميدان تمثل احدى الروافد الكبرى للحضارة العربية الإسلامية في هذه البلاد. وهو ما يفخر به شعب الجزائر ويعتز به شباب اليوم، ويتخذه قدوة، وهو يخطو الخطوات العملاقة في مجال البناء والتشييد سعيا للحاق بركب المتقدمين الذين سبقونا بفارق زمني كبير كم نتمنى ان نختصره ونختزله. وليس ذلك بصعب أو عزيز على الشعب الجزائري الذي حقق المعجزات في ميدان البطولة والفداء والاستشهاد وفي ميدان تخطي كل الصعوبات والعراقيل، والمعيقات وما أكثرها، وأقساها، وما أصعبها.

ان التعرف على أمجاد الأجداد ضروري ليتم بناء الحاضر والمستقبل عليه، كأساس متين.

# بعض مراجع البحث


ـ الإدريسي (محمد بن عبدالعزيز الشريف)؛ صفة المغرب وأرض مصر والسودان تحقيق دوزي (ليدن ـ 1866م).

ـ باجية (صالح)؛ الإباضية في الجريد. (تونس ـ 1964م).

ـ الباروني (سليمان)؛ الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية (المطبعة البارونية ـ بدون تاريخ). القسم الثاني، 311ص.

ـ البرادي الدمري (أبو القاسم)؛ الجواهر المنتقاة مما أخل به كتاب الطبقات.

ـ بن أبي بكر (أبو زكرياء يحي)؛ كتاب الأئمة وأخبارهم المعروف بتاريخ أبي زكرياء تحقيق العربي اسماعيل (الجزائر 1984) 308ص.

ـ البكري (أبو عبدآلله)؛ كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب تحقيق دي سلان (باريس ـ 1965).

ـ ابن بطوطة (أبو عبدآلله محمد)؛ تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. تحقيق د. المنتصر الكتادي طبعة 2 (بيروت 1975).

ـ الجيلالي عبدالرحمن: تاريخ الجزائر العام ج1. ط 4 (الجزائر 1982).

ـ الحموي (ياقوت)؛ معجم البلدان 8 أجزاء (القاهرة 1323 ـ 1325هـ) (بيروت دار صادر 1964م).

ـ ابن خلكان شمس الدين؛ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان تحقيق إحسان عباس 8 مجلدات (بيروت دار الثقافة 1971م).

ـ ابن خلدون عبدالرحمن؛ كتاب العبر ج 6 و 7 (بيروت 1968م).

ـ دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الفرنسية 5 أجزاء.

ـ الدباغ أبو زيد عبدالرحمن، والتنوخي ابن الفضل؛ معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان (القاهرة 1972م) ج 2.

ـ الدرجيني أبو العباس أحمد بن سعيد؛ كتاب طبقات المشائخ بالمغرب تحقيق طلاي ابراهيم (الجزائر قسنطينة دار البعث 1974) 2 أجزاء.

ـ ابن أبي دينار أبو عبدآلله محمد؛ المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس (تونس 1967م).

ــ السائحي محمد الأخضر بن عبدالقادر، بكر بن حماد شاعر المغرب العربي في القرن الثالث الهجري (الجزائر 1986م) 199ص.

ــ ابن سعيد علي بن موسى المغربي:

أ ــ كتاب الجغرافيا، تحقيق اسماعيل العربي (بيروت 1970).

ب ــ كتاب المغرب في حلي المشرق، والمشرق في حلي المغرب. تحقيق د. شوقي ضيف (القاهرة ــ 1953 ــ 1954م) 2 ج.

ــ الشماخي أحمد بن سعيد، كتاب السير (قسنطينة ط حجرية).

ــ شاوش محمد بن رمضان، الدر الوقاد في شعر بكر بن حماد التاهرتي. (الجزائر مستغانم 1966م).

ــ ابن الصغير، تاريخ ابن الصغير المالكي. تحقيق موتيلينكسي. طبع الأوراق التونسية (تونس ــ 1975).

ــ عبدالوهاب حسن حسني)، ورقات عن الحضارة بإفريقيا التونسية (تونس ــ م. المنار 1965).

ــ أبو الفداء الملك المؤيدة اسماعيل، المختصر في أخبار البشر 4 أجزاء (بيروت).

ــ القاضي النعمان بن أحمد، رسالة افتتاح الدعوة تحقيق وداد القاضي. (بيروت 1070م).

مجهول. كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار. تحقيق سعد زغلول عبدالحميد (الأسكندرية 1958م).

ــ معمر علي يحي، الإباضية في موكب التاريخ 3 أجزاء (القاهرة 1964م).

ــ مكي د. محمد علي، بكر بن حماد شاعر المغرب العربي التاهرتي في القرن الثالث الهجري، مجلة العربي عدد 53 (الكويت 1963م).

ــ الميلي مبارك بن محمد. تاريخ الجزائر في القديم والحديث ج 2 (الجزائر 1963م).

ــ نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى منتصف القرن العشرين (بيروت 1971م).

ــ الوسياني أبو الربيع، سير مشايخ المغرب تحقيق العربي إسماعيل (الجزائر).

# عهد الإمارات الإدريسية

# 172 ــ 311هـ / 788 ــ 923م

عندما آلت الخلافة الإسلامية إلى بني العباس بالمشرق، اضطهدوا آل علي ابن أبي طالب الذين يدّعون انهم أحق بالخلافة، ويطالبون ويلحون أن تعود إليهم بأي وسيلة كانت، ونتيجة لذلك تفرق آل علي في مختلف البلاد الإسلامية. وفي خلافة موسى الهادي العباسي ثار الحسن بن علي بن حسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، على عامل المدينة وتغلب عليه ثم توجه إلى مكة في موسم الحج وانضم إليه جماعة من عبيدها وتلاقى مع بعض وجوه العباسيين الذين قدموا إلى الحج فنشبت الحرب بينهم وانهزم الحسن وقتل في موقعة فخ المشهورة قرب مكة مع جماعة من أصحابه عام 129هـ، ونجا إدريس بن عبدآلله الكامل بن الحسن المثنى ففر متنكراً إلى مصر في زي تاجر ومنها إلى بلاد المغرب مع صاحب بريد مصر المتشيع، ومرّ بالقيروان، ثم تلمسان فطانجة وأخيراً مدينة وليلى التي تقع على سفح جبل زرهون وتسمى آثارها اليوم بقصر فرعون وذلك في أول ربيع الأول عام 172هـ، فأكرمه عاملها اسحاق بن محمد بن عبدالحميد الأوربي الذي كان يميل إلى فكرة الشيعة والاعتزال، ثم دعا قومه وأهالي مدينته ليبايعوا إدريس فاستجابوا لذلك وعقدوا له البيعة في شهر رمضان من نفس السنة. فخطب فيهم وطلب إليهم ألا يطيعوا غيره، واعلن عن رغبته في انشاء خلافة علوية تناهض العباسيين بالمشرق والأمويين بالأندلس، وتسعى حتى تسترجع حقها في الخلافة على كل العالم الإسلامي. ولم يمض طويل وقت حتى انتشر نفوذه في مناطق المغرب الأقصى فاتجه بعد ذلك إلى المغرب الأوسط وبايعه أمير تلمسان محمد بن خزر المغراوي. ثم توالت بعد ذلك

بيعة القبائل له حتى بلغ نفوذ الادارسة في عهد إدريس الثاني جهات نهر الشلف وهو الذي عقد اتفاقاً مع أمراء الاغالبة بتونس على أن يكون نهر الشلف الحد السياسي بين الدولتين. وهنا تجب الملاحظة بأن الإمارتين، الرستمية والادريسية، لم تتمتعا بالقوة اللازمة و لم تحققا الوحدة الاقليمية الكافية كذلك، وليست لهما صفات الدولة ولا مقوماتها الأساسية، كما لم يكن انشاؤهما استجابة لواقع البلاد القومي والتاريخي والجغرافي. وهذا القول ينطبق على كثير من الامارات التي ظهرت في هذه البلاد. وتلك ظاهرة عامة في تاريخ العصور الوسطى شاعت في مختلف البلدان تقريباً وتميزت بتغلب النزعة الشخصية والاقليمية معاً. ولقد كون الادارسة مجموعة من الامارات الادريسية لهم بالمغرب الأوسط منها:

1 ـ إمارة تلمسان التي استمرت حتى سقطت في يد موسى بن أبي العافية المكانسي عامل الشيعة عام 319هـ 931م.

2 ـ إمارة متيجة حول مدينة الجزائر.

3 ـ إمارة هاز شرقي مدينة الجزائر ما بين بلدة البويرة وزاغر الشرقي. أما مدينة هاز فيقال إنها قرب مدينة المسيلة. وبقيت هذه الامارة حتى قضى عليها جوهر الصقلي قائد المعز لدين آلله الفاطمي.

و لم يحدث في عهد هذه الامارات الادريسية أي تطور يذكر عدا شيء من الاستقرار النسبي وبعض الرخاء في الحياة الاقتصادية، ولم يدم ذلك طويلاً لأن حكام هذه الامارات الداخلية دأبوا على التطاحن والخصام بل والحروب فيما بينهم في بعض الأحيان، فكثرت في البلاد الاضطرابات، ووجد دعاة الشيعة في ذلك خير فرصة لهم فانقضوا على البلاد واحتلوها منطقة بعد أخرى وساعدهم الأهالي على ذلك لأنهم تذمروا من المعاملة السيئة التي كانوا يلاقونها من الأمراء الأدارسة، وسقطت فاس عاصمة الادارسة في يد دعاة الشيعة العبيديين واستسلم لهم آخر ملوكهم وهو

الحسن الحجام عام 311هـ — 923م. أما في الجزائر فقد استمر الامارات الادريسية قليلاً حتى عام 342هـ — 953م. حيث سقط تنس آخر امارة لهم بيد زيري بن مناد الصنهاجي حليف العبيدين ونائب بالمغرب الأوسط.

وليس للادارسة آثار مهمة بالجزائر عدا مسجد أغادير بتلمسان ومدينة البويرة شرقي الجزائر العاصمة، وبعض مؤسسات أخرى ليست لها أهمية. أما في المغرب الأقصى فقد أسسوا مدينة فاس، وجامع القرويين بها، وما يزال قبر ادريس الأكبر في مدينة فاس أعظم مزار إسلامي في بلاد المغرب الأقصى. وفيمايلي قائمة بأسماء أمراء الأدارسة

1 — إدريس الأول 172هـ — 788م.
2 — إدريس الثاني 177هـ — 793م.
3 — محمد بن ادريس الثاني 213هـ — 828م.
4 — علي الأول بن محمد 221هـ — 835م.
5 — يحي الأول بن محمد 234هـ — 848م.
6 — يحي الثاني بن يحي الأول 234هـ — 848م.
7 — علي الثاني بن عمر 234هـ — 948م.
8 — يحي الثالث بن القاسم 234ه — — 848م.
9 — يحي الرابع بن ادريس 292هـ — 904م.
10 — الحسن بن محمد بن القاسم الحجام 310هـ — 922م.
11 — موسى بن أبي العافية (مغتصب) 313هـ — 926م.
12 — القاسم كنون بن إبراهيم بن محمد
13 — أبو العيش أحمد بن كنون 337هـ — 948م.
14 — الحسن بن كنون 343هـ — 954م.

# عهد الإمارة الأغلبية

## 184 ــ 296هـ ــ 800 ــ 909م

في الوقت الذي كان هارون الرشيد خليفة المسلمين ببغداد كان أخوه في الرضاع محمد بن مقاتل العكي والياً على القيروان، ولم يكن حاكماً رشيداً بل كان ظلوماً طاغياً فثار عليه الأهالي وآزرهم في ثورتهم عامله على تونس تمام بن تميم، ولم يستطع ابن مقاتل أن يصمد أمام هذا الهيجان ففر إلى طرابلس، وبعث إلى ابراهيم بن الأغلب حاكم اقليم الزاب بمدينة طبنة (بريكة) يطلب النجدة منه. وكان الأغلب والد ابراهيم والياً على إفريقيا عندما قتل بالقيروان في ثورة عام 767م وأصله من مرو. فقام ابنه ابراهيم بجهود هامة حتى أعاد الأمن والاستقرار إلى نصابهما، وفي عام 795م عهد إليه بولاية اقليم الزاب جنوب شرقي الجزائر على جانبي بسكرة.

وعندما استنجد به محمد بن مقاتل العكي من طرابلس وهو خليفة أبيه على القيروان خف لنجدته عام 183هـ (799م)، فأعاد الأمن إلى نصابه، وأعاده هو إلى مركزه بسرعة، ولكن الأهالي كرهوا حكمه ورفضوا اعلان الولاء والطاعة له، وطلبوا من ابراهيم أن يتولى هو شؤونهم. فكتب بذلك إلى الخليفة هارون الرشيد الذي أجاب رغبته ورغبتهم. وكافأه على حسن بلائه وجهوده وعقد له ولأبنائه من بعده خلفاً عن سلف، بولاية العهد على إفريقيا مقابل خراج سنوي تدفعه إمارته إلى الخليفة ببغداد مقداره أربعون ألف دينار وذلك عام 184هـ (800م). فأنشأ ابراهيم بن الأغلب مدينة العباسية على بعد ثلاثة أميال من القيروان. وعظم شأنه حتى أصبح يفد عليه سفراء شرلمان ملك الفرنجة بفرنسا سعياً وراء عقد علاقات ديبلوماسية مع المسلمين وإبرام تحالف ضد الدولة الأموية بالأندلس

وهكذا استقلت إفريقيا عن الخلافة بالمشرق ابتداء من عام (800م). مع احتفاظ الأغالبة بذكر اسم الخليفة على المنابر وإرسال جزية سنوية له. وقد امتد نفوذهم بالمغرب الأوسط حتى مدينة عنابة في الشمال، وإلى بلاد الزاب في الجنوب وإلى طرابلس الغرب شرقاً.

وبعد أن بسط الأغالبة نفوذهم في افريقيا على الشكل السابق اتجهوا إلى الجزر المجاورة فبعثوا مزيداً من الحملات على جزيرة صقلية وقاد الحملة الأولى القاضي الافريقي أسد بن الفرات في عهد الأمير زيادة آلله (817 ـ 838م)، وقد استولى الأغالبة على مدينة باليرمة عام 831، ولم يأت عام 840 حتى كان المسلمون قد فتحوا ثلث جزيرة صقلية تقريباً. واستولوا على مسانا عام 841 وعلى مدينة سرقوسة عام 875م. ورغم تعدد الحروب والاضطرابات في الجزيرة فإن المسلمين ثبتوا أقدامهم فيها ونشروا الحضارة العربية بصورة جلية جعلت النورمانديين الذين خلفوا العرب في حكم هذه الجزيرة عام 1060م (في عهد روجار) يأخذون عن العرب نظامهم الإداري، ويقتبسون العناصر الأساسية للثقافة الاسلامية في حياتهم الفكرية، وليس هذا فقط بل ان الرحالة العربي الادريسي ألف لروجار الثاني كتابه المشهور في وصف الأرض: «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق». وعني فريدريك الثاني (1197 ــ 1250م) بالتراث العربي كذلك لشدة اعجابه بعلوم العرب وآثارهم الفكرية.

وفي عهد محمد الثاني أبي الغرانيق (250هـ ــ 864م) تم فتح جزيرة مالطة نهائياً عام (255هـ ــ 871م) وضمت إلى امارة إفريقيا. وفي نهاية ولاية ابراهيم الأصغر وبداية حكم ابنه العباس عبدآلله توجهت حملة إفريقية لغزو ايطاليا بقيادة ابراهيم الأصغر نفسه، وفتحت عدة جهات واستشهد ابراهيم في بعض تلك المعارك. وكان المسلمون قد استولوا عام 841م على باري القاعدة البيزنطية في جنوب شرقي ايطاليا، وأرغموا البابا عام 876م على دفع غرامة مالية سنوية كبيرة لهم. والخلاصة أن الأغالبة قد تمتعوا

بغنى مادي وقوة عسكرية هامة بسبب خصوبة أرض إفريقيا، وكثرة الموانى والثغور البحرية المسيطرة على تجارة البحر المتوسط. وهكذا نشط الأغالبة في تدعيم مركزهم الداخلي، وأسسوا حرساً وطنياً للأمن الداخلي، وجيشاً برياً، وأسطولاً بحريا كبيراً للدفاع عن البلاد، والمشاركة في الغزوات الاسلامية الهادفة إلى المزيد في نشر الدعوة الاسلامية، ووضع حد لاطماع النورمان الذين يحاولون في الشرق والغرب كبيرا وقوفاً في وجه هذه الدعوة، ولمحاولة استرجاع بعض ما فتحه المسلمون.

ويمكن اعتبار فترة امارة الدولة الأغلبية أول عهود الاستقلال لبلاد شمالي إفريقيا الاسلامية عن الخلافة، وكانت قبل ذلك تابعة للخليفة ببغداد أو دمشق أو إلى والي مصر الذي يستمد سلطته من الخليفة أيضاً.

ولم يختلف نظام الأغالبة الاداري عن غيرهم، ولم يتسع نفوذهم كثيراً كما لم تدم فترات السلم والهدوء طويلاً. فحدثت عدة اضطرابات داخلية بعضها من الطامحين إلى السيطرة والبعض الآخر من الأهالي المتذمرين من عسف الولاة وظلمهم. وكانت حركة أبي عبدآلله الشيعي أخطرها جميعاً وقدر لها أن تكون الضربة القاضية على الأغالبة، فواجه زيادة آلله الثالث آخر أمراء الأغالبة، أبا عبدآلله الشيعي في معركة الأربس عام 296هـ (909م) ولم يقو على منازلته فاضطر إلى الهروب بمن استطاع أن يصحبه من ذويه وأهله إلى المشرق، ودخل أبو عبدآلله مدينة رقادة وانتهى بذلك أمر بني الأغلب. وفيما يلي أسماء أمرائهم الذين تداولوا الحكم في إفريقيا:

إبراهيم بن الأغلب 184 هـ — 800م.
أبو العباس عبدآلله الأول 197هـ — 817م.
زيادة آلله الأول 201هـ — 817م.

أبو عقال الأغلب 223هـ ـ 838م.

أبو العباس محمد الأول 226هـ ـ 841م.

أبو إبراهيم أحمد 242هـ ـ 856م.

زيادة الله الثاني 249هـ ـ 863م.

أبو الغرانيق محمد الثاني 250هـ ـ 864م.

إبراهيم الأصغر 261هـ ـ 875م.

أبو العباس عبد الله الثاني 289هـ ـ 902م.

زيادة الله الثالث 290هـ ـ 903م.

# عهد الدولة العبيدية الفاطمية

## 296 ـ 361هـ ـ 909 ـ 972م

بدأت الدعوة للفاطميين في عهد إمارة الادارسة بالمغرب وتولى الدعوة لهم أتباع المذهب الاسماعيلي الباطني الذين يقولون **ويدّعون** بإمامة اسماعيل بن جعفر الصادق الذي توفي في حياة والده. وقد سخّر أنصار الشيعة الاسماعيلية العقائد الإسلامية خدمة أغراضهم السياسية كما فعل القرامطة في إيران. وفسروا القرآن تفسيراً مجازياً باطنياً. وكانوا يختارون الدعاة الاكفاء لنشر دعوتهم ومذهبهم في مختلف الأوطان الاسلامية وأرسلوا إلى المغرب داعيتين هما: السفياني والحلواني وأخذا يدعوان الناس لفكرة الاسماعيلية حتى توفيا. فخلفهما أبو عبدالله الشيعي الصنعاني الذي جعل يدعو للمهدي المنتظر ظهوره من ذرية علي من فاطمة. وكان عبيد الله بن أحمد بن اسماعيل الثاني بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق قد ولد في قرية السلمية ببلاد الشام عام 260هـ ـ 873م واختلف في نسبه هذا حتى قيل انه مجوسي من سلالة ميمون القداح المجوسي ولكن هذا الطعن لا يمكن الأخذ به لأنه صادر عن خصومه خاصة العباسيين الذين لا يريدون أن يشاركهم أحد في الخلافة، كما لا يمكن اثبات كونه من سلالة فاطمة بسهولة فالأمر يحتاج إلى تحقيق. وقد تعرض عبيدالله المهدي لمزيد من الضغط والاضطهاد من طرف العباسيين فاضطر إلى الاختفاء عن الأنظار وكلف داعيته الكبير أبا عبدالله الصنعاني أن يقوم بالدعوة لفكرته في بلاد المغرب النائية عن مركز الخلافة وعن أعين العباسيين وأمره أن يبدأ عمله هناك بالدعوة للمهدي المنتظر حتى لا يتعرض للمقاومة.

وكان أبو عبدآلله هذا متضلعا في فكرة أهل الشيعة ماهرا في استمالة قلوب الناس إلى فكرته ودعوته، فاتصل بجماعة من أفراد قبيلة كتامة المغربية في موسم الحج بمكة واستمالهم إليه ليرافقهم إلى بلاد المغرب حيث باح لهم بأنه يدعو لقيام خلافة فاطمية فالتف حوله الناس وانتشرت دعوته بسرعة في المغربين الأوسط والأقصى، وزحف بجموع كبيرة على بني الأغلب عام 909م بالمغرب الأدنى (تونس) وهزم زيادة آلله الثالث آخر أمراء بني الأغلب ودخل مدينة رقادة عاصمة الأغالبة، ثم بعث لعبيدآلله الذي كان مختفياً في مصر يستقدمه فحضر إلى إفريقيا عن طريق طرابلس حيث مكث أياماً لدى أبي العباس شقيق أبي عبدآلله، ثم واصل السير حتى نزل ببلدة سجلماسة (تافيلالت) فقبض عليه واليها العباسي اليسع بن ميمون المنتصر. ولما وصل الخبر إلى أبي عبدآلله برقادة جنوب القيروان استقدم أخاه أبا العباس من طرابلس وأسند إليه شؤون المدينة، واتجه هو بقوات كبيرة إلى حيث عبيدآلله المهدي، واستولى في طريقه على تيهرت، وعدة مدن أخرى ومراكز، وفي سيجلماسة شن هجوماً قاضياً على عاملها اليسع وافتكّ منه عبدآلله وابنه ورجع بهما إلى رقادة، وعقدت البيعة لعبيدآلله بامارة المؤمنين يوم الجمعة 21 ربيع الثاني 297هـ (9/1/910م). فأعلن في الحال انفصاله عن الخلافة العباسية ببغداد. ولم يدم الود طويلاً بين عبيدآلله وداعيته أبي عبدآلله الذي كثرت الوشايا ضده ونمي إلى عبيدآلله أن داعيته وأخاه يدبران ضده مؤامرة لقتله فبادر هو بقتلهما وجدد ما فعله العباسيون عندما قتلوا داعيتهم الأكبر أبا مسلم الخراساني. وقد يكون صحيحاً ما قيل من أن أبا عبدآلله يتآمر على سيده ولكن خوف عبيدآلله من شعبية عبدآلله وطغيان شخصيته عليه واستغلال ذلك لصالحه هو الأقرب لما قام به المهدي الفاطمي من اغتيال داعيته هو وشقيقه.

وبعد أن سيطر الفاطميون على أقطار المغرب الأفريقي من طانجة إلى طرابلس أخذو يوجهون أنظارهم إلى مصر، وكان عبدآلله نفسه طموحاً إلى تحقيق هذه الرغبة فبعث حملة عام 914م احتلت مدينة الاسكندرية

ومنطقة الفيوم، ولكنها ما لبثت أن عادت إلى إفريقيا بسبب كثرة الصعوبات داخل إفريقيا وخارجها. وفي عهد ابنه القائم أبي القاسم محمد أندفع الفاطميون حتى وصلوا مصر العليا عام 921م ولكن مؤنس الخادم قائد جيش الخليفة العباسي المقتدر استطاع أن يخرجهم من البلاد.

وابتداء من عام 935م. ظهرت في مصر دولة الاخشيديين التي استطاعت أن تصد الفاطميين عن مصر جيلاً من الزمن. فقد جاء إلى مصر محمد بن طغج التركي أميراً عليها، وكان كل من جده وابنه في خدمة الخليفة العباسي ببغداد، واستطاع أن يثبت دعائم سلطته في مصر فالتمس من الخليفة الراضي أن يخلع عليه لقب الأخشيد الذي كان الأمراء من أسرته يحملونه في وطنهم فرغانة قبل أن يخضعوا للإسلام، وذلك لكي يتميز به على سائر الأمراء.

وعندما توفي ابن طغج عام 946م. نهض بأعباء الدولة نيابة عن ولديه (أنوجور وعلي) خصي له حبشي يدعى كافورا. ثم عندما توفي علي استولى كافور هذا على الملك وأقطعه الخليفة مصر عام 966م. فدافع عنها وعن سوريا أخطار الفاطميين والحمدانيين. وعندما توفي كافور عام 968م. وخلفه أبو الفوارس أحمد حفيد ابن طغج استأنف المعزّ لدين الله الفاطمي محاولة فتح مصر فبعث جيشاً كبيراً بقيادة البطل الافريقي جوهر الصقلي عام 358هـ (969م). استقبله وفد مصري في ضواحي الاسكندرية قدّم له فروض الطاعة والانقياد وأخبره باستسلام البلاد إليه. فرحب بهم وأعلن أنه قادم لهذه البلاد لتوطيد الأمن وتوفير عوامل الرخاء، ثم تقدم إلى مصر والتحم مع بعض فرق الجيش المصري المتمردة في منطقة أهرامات الجيزة، ودخل إلى مصر وخطب يوم الجمعة للمعز لدين الله الفاطمي ووعد الناس بالعمل على تحقيق مصالحهم واصلاح أحوالهم، ثم شرع في بناء عاصمة جديدة له في نفس الشهر (يوليو) سماها المعز عندما انتقل إليها «القاهرة المعزية» وأسس فيها كذلك الجامع الأزهر.

وبمجرد أن استولى جوهر على مصر أخذ يوجه الجيوش لفتح بلاد الشام والحجاز فاستولت على دمشق وغزة، وتوطد النفوذ الفاطمي في تلك البلاد، وعندئذ بعث جوهر إلى المعز ليبشره بالنصر، فقرر المعزّ أن ينتقل إلى مصر واستخلف على إفريقيا بلكين بن زيري الصنهاجي ورحل إلى القاهرة في رمضان 362هـ (973م). ويعتبر المعز رابع الأمراء الفاطميين الذين حكموا بالمغرب وهم:

عبيد الله المهدي 297هـ ــ 909م.
أبو القاسم محمد القائم بأمر الله 322هـ ــ 933م.
الظاهر اسماعيل المنصور 334هـ ــ 945م.
المعزّ لدين الله 341هـ ــ 952م.

ثم انتقل مركز الدولة إلى مصر وحكم هناك عشرة خلفاء، وانفصل المغرب عنهم في عهد المستنصر بن الظاهر، وانتهت دولتهم بموت العاضد في شهر محرم عام 567هـ (1171م). وكان وزيره صلاح الدين الأيوبي قد حول الدعوة إلى العباسيين والخليفة ما يزال على فراش الموت.

ولقد تمتعت الدولة الفاطمية بنفوذ قوي وتجاوزت سيطرتها شمالي إفريقيا إلى مصر والشام والحجاز. ونافست الخلافة العباسية في العزّ والسلطان، وكانت تملك قوات عسكرية مهمة وأسطولاً ضخما يجوب البحار بين أوروبا وإفريقيا ويقوم بالعناية به ملاحون مهرة في مرافيء إفريقيا خاصة مرفأ عنابة وميناء تونس، ويقوم هذا الأسطول بعمل التجارة الدولية، والغزو والفتح في جزر المتوسط وشواطيء أوروبا. أما النظام الاداري فكان يستند على تدعيم فكرة الشيعة ومقاومة العباسيين ببغداد وبني أمية بالأندلس، ويقوم داعي الدعاة بدور رئيسي في تدعيم الدولة من الجانب الدعائي، ويفوق نفوذه في عهد الفاطميين سلطة رئيس الوزراء حالياً، ويعتبر حقيبة أسرار الخليفة وأكبر مستشاريه. ولما كان الفاطميون يدعون انتسابهم

للسيدة فاطمة الزهراء فان العداء كان شديداً بينهم وبين العباسيين ببغداد والأمويين بالأندلس. واستحكم الخلاف والتآمر بين مراكز الخلافات الثلاث: بغداد، وإفريقيا، والأندلس. وقد ازدهرت الحركات الفكرية والثقافية في عهد الفاطميين ووجدت الأفكار الشيعية طريقها إلى الناس عن طريق حلقات الدروس التي كان ينظمها دعاة الفاطميين في مختلف المدن المغربية خاصة رقادة والقيروان وتلمسان وبجاية وغيرها.

وبنفس القدر ازدهرت كذلك الحالة الاقتصادية وأقبل الناس على فلاحة الأرض وزراعتها خاصة بعد أن وضع حد للنزاعات والثورات التي تنشب بين حين وآخر من جانب بعض القبائل مثل صنهاجة وزناتة.

وهكذا عم الرخاء والازدهار شمالي إفريقيا في عهد الأغالبة والفاطميين بسبب مد الطرق الكبيرة عبر الصحراء الكبرى إلى بحيرة تشاد وتمبوكتو، وبسبب انشاء ثغور عنابة ووهران، وسبتة وطانجة، وقامت حركة تجارية مزدهرة ربطت بلاد السودان بالبحر الأبيض المتوسط، وبلاد الشرق الإسلامي بالمغرب الإسلامي والأندلس.

# عهد بني زيري وبني حماد

# 361 ـ 547هـ ـ 972 ـ 1152م

**أسرة بني زيري:**

تعتبر قبيلة صنهاجة من كبريات القبائل القاطنة بالمغرب الأوسط، وتنتشر في عدد من الجهات، وتشارك في أحداث هذه البلاد باستمرار، ومن زعمائها مناد بن منقوش الذي كان من عمال الأغالبة في هذه البلاد، وعندما مات خلفه ابنه المشهور زيري الذي طلب منه المنصور الفاطمي أن يساعده ضد ثورة صاحب الحمار(1)، فلبى رغبته ولعب دوراً هاماً في القضاء عليه وعلى ثورته فأكرمه المنصور الفاطمي وعينه أميراً على قومه تقديراً لجهوده وخدماته. وحين قتل عين المعز الفاطمي ابنه بلكين عاملاً على ولايات أشير والمسيلة وتاهرت، ثم لما قرر الرحيل إلى مصر عام 361هـ (972م). استقدمه إلى إفريقيا (تونس) وعينه أميراً على بلاد المغرب كلها وسماه يوسف وكناه أبا الفتوح ولقبه سيف الدولة وكان ذلك بداية لظهور الدولة الصنهاجية بإفريقيا والمغرب الأوسط. ولقد تدرجت هذه الإمارة حتى أصبح نفوذها كبيراً وواسعاً جداً في هذه البلاد، وبدأت الدولة الفاطمية تتوجس منها وتتحذر من مغبة ثوراتها وانفصالها عنها فاخذت

---

(1) هو أبو يزيد بن مخلد بن كيداد التوزري الجريدي نشأ فقيراً واشتغل بتعليم الصبيان وكان يجاهر بعداء المذهب الفاطمي فكثر أعداؤه واضطر أن يهجر الجريد إلى أوراس حيث وجد أنصاراً عديدين وأخذ يدعو إلى عبدالرحمن الناصر الأموي بالأندلس متنقلاً من مكان إلى آخر على حمار في شكل متزهد، ولهذا سمي بصاحب الحمار وقد اهتم به عمال الفاطميين يحاربوه حتى قبض عليه جيش المنصور عام 336هـ. ومات مثخناً بجراحه.

تسعى بمختلف الوسائل لتضعيفها وتقليم أظافرها وكسر شوكتها، وأوعزت لبعض عملائها ممن كان لهم بعض النفوذ باعلان العصيان والتمرد عليها فأخذت المتاعب تواجه الأمراء الصنهاجيين وشعروا بنوايا الفاطميين السيئة نحوهم فكتموا غيظهم في البداية وبذلوا جهوداً كبيرة للقضاء على ثورات أبي فهم الكتامي 377هـ. وأبي الفرج الذي يدّعي انتسابه للقائم المنصور 379هـ. وأبي البهار حاكم تيهرت 379هـ. وفي عهد المعز بن باديس (406 — 454هـ 1016 — 1062م) اشتد عداء الناس للمذهب الفاطمي وكثرت عودتهم للمذهب السني المالكي فانضم المعز لهذا التيار وأعلن هو الآخر تأييده لعودة المذهب السني ودعا الناس إلى ذلك. ولم يكتف بهذا فقطع الدعوة كذلك للخليفة الفاطمي عام 440هـ. وحوّلها للعباسيين وأمر برفع راياتهم السوداء في البلاد ايذاناً بانفصال هذه البلاد عن الفاطميين الذين لم يستطيعوا أن ينتقموا عسكرياً فأوعزوا لعرب بني هلال وبني سليم أن يزحفوا على إفريقيا ليقضوا على قوة صنهاجة وأمرائها.

ورغم أن يحيى بن تميم بن المعز قد أعاد الدعوة للفاطميين كما أعادها من بعده ابنه علي بعد أن قطعها عليهم كذلك إلا أن الثورة كانت قد انتشرت. وتغلغل في قلوب الجماهير بغض المذهب الفاطمي واتجاههم وسلوكهم فلم يستطع أنصار الفاطميين أن يعالجوا الموقف كما لم يستطع أمراء صنهاجة أن يأخذوا موقفاً موحداً فانقسموا إلى فريقين وكون كل فريق منهما دولة خاصة به احداهما شرقية وعاصمتها المنصورة والثانية غربية وعاصمتها قلعة بني حماد، أولاً ثم مدينة بجاية ثانياً. ولم تعمر الدولة الشرقية طويلاً لأن كثيراً من الجهات انفصلت عنها زيادة عن الخراب والدمار الذي ألحقه بمملكتها عرب بني هلال وبني سليم خلال زحفهم على إفريقيا، ثم كان زحف النورمان على تونس واستيلاؤهم على عاصمتهم المهدية عام 543هـ — 1148م. الضربة القاضية والنهاية الحتمية لهذه الإمارة الشرقية الصنهاجية.

ولقد بذل أمراء صنهاجة الأولون جهوداً مشكورة في إطفاء نار ثورات وإصلاح أحوال البلاد ونشطت الحركة التجارية والحياة العمرانية، واشتغل الناس بأعمال الفلاحة والزراعة وأقبلوا على التعليم والثقافة بشكل ملحوظ. ولكن فترة الرخاء والازدهار لم تدم طويلاً، لأن الزحف الهلالي كان أقسى وأشد تأثيراً فقضى على معظم مظاهر الحياة البشرية والاجتماعية والزراعية، خاصة وأن عدد هؤلاء كان كثيراً جداً يبلغ حوالي أربعمائة ألف نسمة لا يفهمون للقيم الحضارية معنى ولا يدركون مزاياها زيادة عن أن الخليفة الفاطمي قد حقنهم بمزيد من الحقد ضد السلطة الحاكمة بإفريقيا الشمالية الغربية. ولقد انتشر بنو هلال وبنو سليم في هذه المرة بليبيا وطرابلس وقابس وتونس ووصل البعض منهم إلى المغرب الأوسط حتى إقليم تيارت وبني راشد. وفيما يلي أسماء أمراء دولة صنهاجة الشرقية:

| | |
|---|---|
| زيري بن مناد | 335هـ — 946م |
| بلكين بن زيري | 360هـ — 970م. |
| منصور بن بلكين | 373هـ — 983م. |
| باديس بن المنصور | 386هـ — 996م |
| المعز بن باديس | 406هـ — 1016م. |
| تميم بن المعز | 454هـ — 1062م. |
| يحيى بن تميم | 501هـ — 1107. |
| علي بن يحيى | 509هـ — 1115م. |
| الحسن بن علي | 515هـ — 1121م. |

## ظهور الإمارة الحمادية:

في عهد إمارة منصور بن بلكين الصنهاجي عقد لأخيه حماد على ولايتي أشير والمسيلة وطلب إليه أن ينهض لمواجهة ثورات زنانة فقام بهذا العبء وأظهر مقدرة وكفاءة نادرة فأقره على ولايته باديس بن المنصور

بعد موت أبيه عام 387هـ (997م). ولم يفلح زاوي وماكس أبناء زيري في ثورتهما ضد حماد لأنه تصدى لهما وقتل ماكس وأرغم زاوي على الرحيل إلى الأندلس (390هـ — 1000م).

وعندما عهد باديس لحماد بأمر محاربة زناتة الثائرة عام 395هـ (1005م). اشترط الأخير عليه أن يمنحه حكم المغرب الأوسط، وكل ما سيفتحه من جديد. وأن يعطي له الحرية أن ينشيء في أي مكان يختاره مدينة خاصة ليجعلها عاصمة لإمارته الجديدة. فقبل باديس هذه الشروط وبذل حماد جهوداً كبيرة حتى قهر الزناتيين ثم شرع في بناء عاصمته الجديدة مدينة «القلعة» عام 398هـ (1007م). قرب مدينة أشير جنوبي غربي برج بني عريريج وشمال شرقي مدينة المسيلة. وقد ارتفعت سمعة هذه الأمارة كثيرا في عهد حماد الذي عظمت هيبته وتعددت انتصاراته حتى أصبح باديس يتوجس خيفة منه ويتوقع عصيانه فأراد أن يكتشف نواياه واغتنم فرصة إرسال الخليفة الحاكم الفاطمي بولاية العهد إلى المعز ابنه فوجه رسولاً إلى حماد بالقلعة يطلب منه التنازل للمعز عن اقليمي تيجس وقسنطينة فرفض حماد وتطور الأمر إلى قيام حروب عديدة انتهت بتأسيس الدولة الحمادية بالقلعة عام 405هـ (1014م). بعد أن قطع حماد الدعوة للفاطميين وحولها للعباسيين.

ولقد كان حماد يتوقع الهجوم عليه من طرف أبناء عمومته بالمهدية فسعى لمطاردته وواجه جيوش باديس بقيادة هاشم بن جعفر وأوقع بها هزيمة قرب مدينة الكاف وتقدم إلى باجة وسيطر عليها كذلك وأخذ يدعو الناس في كل مكان إلى نبذ المذهب الفاطمي. وعندئذ خرج إليه باديس بنفسه فاضطر إلى التراجع أمامه وانسحب إلى آشير ولكنه وجدها ثائرة ضده حكمها صدد. فاستمر في التراجع حتى وصل إلى جهات نهر الشلف وحين ... باديس استولى على أشير والمسيلة ومناطق سهول السرسو والتحم مع حماد وهزمه مرة ثانية فالتجأ إلى القلعة حيث وصلته فيها أنباء

موت باديس ولم يستطع شقيقه كرامة أن يقف في وجه حماد الذي تنفس الصعداء فتفرق أنصاره عنه وفر والتحق بالمعز بن باديس بالقيروان عام 407هـ (1014م).

ولم يكن حظ المعز أكثر من حظ أبيه في محاربة حماد رغم انتصاره عليه في عدة وقائع، ولهذا ركن الاثنان إلى صلح طويل وتبادلا الرسل والهدايا. ومدت الامارة الحمادية نفوذها وسيطرتها على المغرب الأقصى، ومعظم المغرب الأدنى وشملت سلطتها في الجنوب بلاد الزاب ووادي ريغ وورقلة.

وفي عهد هذه الامارة الحمادية زحف الهلاليون مرة ثانية على المغرب الأوسط وانتشروا في جنوب الأوراس ومناطق الزاب، وفي القالة وعنابة وقسنطينة والقل وجبال البابور والبيبان وفي قرى ومناطق أخرى بوادي الساحل. ولم يخل عهد هذه الامارة من بعض الازدهار في الآداب والثقافة، والتجارة والعمران، وكانت مدينة القلعة ومن بعدها مدينة بجاية تعجان بوفود الطلاب وقوافل التجار التي تغدو وتروح بين مختلف الجهات. ومن مآثر الحماديين انشاء مدينتي القلعة وبجاية وتجديد غيرهما واقامة بعض السدود والخزانات لري الأراضي وسقي الأهالي في المدن.

وفي أخريات حياة هذه الامارة أحاطت بها ظروف ومتاعب صعبة، منها ضعف نفوذ أمرائها واختلافهم، ثم ظهور قوى الموحدين التي أخذت تنمو وتزحف من المغرب الأقصى. وكان الأمير يحي بن العزيز مستهتراً بشؤون الامارة مهملاً لأحوال أهلها فغضب عليه جانب كبير من الأهالي ومنهم وزيره ميمون بن حمدون الذي كان يحز في نفسه تردي سمعة الأمارة إلى الحضيض وكثرة هجمات النورمان على بلاد المغرب من صقلية فتواطأ مع الأمير الموحدي عبدالمؤمن بن علي ورغبه في فتح المغرب الأوسط وطرد الأمير الخليع يحي بن العزيز فرحب بالفكرة وخرج من مراكش في اتجاه

الجزائر عام 546هـ (1151م). واقتحم الحدود بسهولة واستولى على مدينة الجزائر دون قتال وعين عليها الحسن بن علي آخر أمراء صنهاجة بالمهدية الذي وجده هناك. ثم تقدم إلى بجاية واستولى عليها بعد عدة معارك عام 547هـ (1152م). ففر منها يحي بن العزيز إلى عنابة حيث أخوه الحارث ولكنه لم يرحب به فتحول إلى قسنطينة حيث أخوه الآخر الحسن بن العزيز فأكرمه وتنازل له عن الولاية.

أما عبدالمؤمن فقد اتجه بعد ذلك إلى القلعة وحاصرها واستولى عليها بعد قتال عنيف وقتل عاملها جوشن بن العزيز شقيق يحي بن العزيز، ومنها اتجه إلى قسنطينة وسيطر عليها، واستسلم له يحي بن العزيز وبايعه بنفسه فصحبه معه عبدالمؤمن إلى المغرب الأقصى بعد أن انتهى من السيطرة كذلك على اقليم تونس ومدينة المهدية عام 555هـ (1160م). وأنزله مع ابن عمه الحسن في قصر واحد بمدينة سلا.

وعندما سقطت امارة عنابة الحمادية في يد الموحدين عام 551هـ (1156م). انتهى بذلك أمر الحماديين بعد قرن واثنين وأربعين عاماً من الحكم والسيطرة.

وكان الأمراء الحماديون يحكمون امارتهم من مدينة القلعة ويترددون بينها وبين مدينة أشير حتى أسسوا مدينة بجاية عام 460هـ (1067م). قرب مركز صلداي الفينيقي في عهد الناصر فانتقلوا إليها وسموها أولاً مدينة الناصرية ثم غلب عليها اسم بجاية. وفيما يلي أسماء أمراء الحماديين:

| | |
|---|---|
| حماد بن بلكين | 405هـ — 1014م. |
| القائد بن حماد | 419هـ — 1028م. |
| محمد بن القائد | 446هـ — 1054م. |

| | |
|---|---|
| بلكين بن محمد بن حماد | 447هـ — 1055م. |
| الناصر بن علناس | 454هـ — 1062م. |
| المنصور بن الناصر | 481هـ — 1089م. |
| باديس بن المنصور | 498هـ — 1104م. |
| العزيز بن المنصور | 498هـ — 1105م. |
| يحيى بن العزيز | 515هـ — 1121م. |

# مركز بجاية الحضاري ودوره في إثراء الحضارة العربية الإسلامية وفي نهضة إيطاليا وجنوب غرب أوروبا

## أوضاع شبه جزيرة المغرب قبل الإسلام:

كان اقليم شمال إفريقيا الغربي، أو شبه جزيرة المغرب، قبيل الفتح الإسلامي، يعاني ويعيش اضطرابات خطيرة سياسية، واقتصادية، واجتماعية، عرضته للتمزق والتشتت، والتحطيم لأنه بلي بالاستعمار الروماني الشرس ذي الطابع العسكري الذي كان همه الوحيد وهدفه الأساسي هو تسخير واستغلال امكانياته الاقتصادية والبشرية لخدمة مصالح روما وإيطاليا. وهكذا فعل الوندال والبيزنطيون بعده فعانى شعب هذا الاقليم أعباء مرهقة وشاقة وقاسى ما لا يتصور من الأتعاب والكوارث الاقتصادية والاجتماعية، والسياسية والدينية والثقافية، ولم يعد هناك من وسيلة للتخلص سوى التمرد والثورة. ومد زعماؤه أيديهم إلى حلفاء جدد خارج الاقليم يتمثلون في المسلمين الجدد القادمين من شبه الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي، حاملين معهم العقيدة الإسلامية الجديدة بقيمها السماوية، ومثلها العليا.

وكان مما ساعد على فك عرق الإرتباط بين شعوب شمال إفريقيا الغربي، والإدارة البيزنطية، انعدام الانسجام بينهما رغم القرون الطويلة التي قضاها الغزاة الرومان والبيزنطيون في هذه البلاد وهذا يذكرنا أيضا بالعهد الفرنسي حديثا الذي دام في هذه البلاد قرنا وثلث القرن، ولكنه لم ينجح حتى في إحكام مجرد الصلة العادية والبسيطة مع شعب هذا الاقليم رغم كونه سلك نفس السياسة، وطبق نفس الأساليب.

## ما قدمه الإسلام لشعب هذا الاقليم:

وقد استطاع العرب المسلمون، بيسر وسهولة، وفي وقت قصير جدا، أن يفرضوا سيطرتهم السياسية على هذه البلاد ويندمجوا مع سكانها الأمازيع، ويؤثروا فيهم بفضل المبادىء السمحة والمثل العليا السماوية، للدين الإسلامي الجديد، الذي جاؤوا به ومن أجله إلى هذه البلاد. وأعاد هذا الاندماج السريع بين المسلمين الوافدين الجدد وبين سكان هذه البلاد الأصليين، الوحدة الوطنية والقومية للإقليم، وأزال ذلك التشتت والتمزق الذين خلفهما العهد البيزنطي السابق، وما قبله وبذلك انسجمت الوحدة الجغرافية والتاريخية للإقليم، مع الوحدة السياسية، والدينية واللغوية الجديدة.

وبعد تحقيق هذه الوحدة السياسية في إطار الدين الإسلامي الجديد الوافد ربط الأقليم بالخلافة الاسلامية في المدينة المنورة أولا، ودمشق ثانيا، وبغداد ثالثا وأخيرا، وبقي على هذه الحال حتى عهد هارون الرشيد، ثم حدثت تطورات جديدة فرضتها الأحداث الجارية، وبرزت زعامات محلية اقليمية جديدة، سعت لتحقيق استقلالها، عن الخلافة الاسلامية بالمشرق، ولكن في إطار الاسلام دائما، وهو أمر له أهميته في بقاء شعب الإقليم مسلما حتى اليوم وإلى أن يرث ٱلله الأرض ومن عليها.

## قيام المراكز الحضارية المغاربية:

وكان أهم شيء قدمه الاسلام الجديد الوافد لهذا الاقليم وشعبه هو وحدة اللغة والعقيدة إلى جانب الوحدة العرقية والجغرافية والتاريخية التي كانت له قبل ذلك وهو أمر هام جدا لم يستطيع الرومان، ولا مسيحية بيزنطة أن تقدمه وتوفره لهما. وبفضل وحدة اللغة والعقيدة هذه انكب شعب الاقليم على البناء والابداع الحضاري في أوسع مجالاته وفي جو من الحرية السياسية، والبحبحة الاقتصادية وقامت بالاقليم مراكز ثقافية حضارية هامة لا تقل مكانة عن مراكز الشرق الاسلامي مثل القيروان، وفاس،

زتيهرت، وأشير، وقلعة بن حماد، وبجاية، ومراكش، وتلمسان، إلى جانب حواضر الأندلس الكبرى وصقلية الإسلامية التي تعتبر جزءا من هذا الاقليم المغاربي ومن صنعه وابداعه.

وقد أخصب فيها الفكر، ونفقت التجارة وتطور العمران واتسع وازدهرت الفلاحة والصناعة والحياة الاقتصادية بصفة عامة، وتطورت الحياة الاجتماعية وازدهرت، ونما السكان وكثروا وأبدعوا أيما ابداع في كل مجالات الحضارة.

وأنجب الاقليم أبطالا من عظماء الرجال، وذوي المكانة العالمية، أمثال: طارق بن زياد، وأسد بن الفرات، وجوهر الصقلي، وجعفر بن فلاح، وزيري بن مناد، وبلكين بن زيري، وحماد بن بلكين، والناصر بن علناس، وعبدالمؤمن بن علي، وياعمراسن الزياني، أمتد تأثيرهم إلى خارج الاقليم وكان من نتيجة أعمالهم فتح الأندلس وصقلية ونشر الاسلام بهما. وتأسيس مدينة القاهرة والأزهر الشريف في مصر، وغرناطة في الأندلس. كما أنجب الاقليم فطاحل الأدباء والشعراء والفقهاء والكتاب، والمفكرين والفلاسفة، أمثال ابن رشيق المسيلي، وسحنون القيرواني وابن عرفة التونسي والقاضي عياض السبتي، والشريف السبتي الأدريسي، وابن مرزوق الخطيب والحفيد، وحفيد الحفيد، وابراهيم الآبلي، وأحمد المقري، وسعيد العقباني التلمسانيين، وأحمد الغبريني، وأحمد بن إدريس، وعبدالرحمن الوغليسي، وابن معطي النحوي، والشيخ بن مروان العنابي، وعبدالرحمان الثعالبي، وعبدالرحمن بن خلدون وأخيه يحي، وغيرهم. شاركوا كلهم في بناء صرح الحضارة العربية الاسلامية وإثراها: تلك الحضارة التي ستكون أهم رافد لنهضة أوروبا ويقظتها[1].

---

(1) يحي بوعزيز: جهود الجزائر الفكرية في موكب الحضارة العربية، الأصالة عدد 19 (الجزائر مارس، أبريل 1974) ص 287 ــ 301.

## دور بلدان المغرب الإسلامي في نهضة أوروبا:

ان حضارة هذا الاقليم الاسلامية هي التي حملها شعب هذا الاقليم نفسه إلى أوروبا عبر جناحيه: شبه جزيرة إيبيريا في شماله الغربي وبجاية وصقلية في شماله الشرقي، ومن هناك تسربت، وانتقلت إلى معظم بلدان أوروبا الجنوبية والوسطى والغربية، التي كانت تعيش أزمة تخلف حادة ورهيبة في كل مجالات الحياة: السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية ويسودها الظلم والجبروت والفقر والجهل والمرض وتتحكم الكنيسة في رقاب الناس وتطغى ظاهرة الرق، وأقنان، الأرض والطبقية الاجتماعية المقيتة[1].

وتعتبر جزيرة صقلية المثلثة الشكل احدى المعابر الأربعة للحضارة العربية الاسلامية في طريقها إلى بلدان أوروبا المختلفة[2] وهي تقسم البحر المتوسط إلى قسمين ولا تبعد كثيرا عن الحذاء الايطالي إذ لا يفصلها عنه سوى مضيق مسينا الذي لا يزيد عرضه على ثلاثة كيلومترات. وقد فتحها الأغالبة أوائل القرنين الثالث الهجري (212هـ) والتاسع الميلادي (827م). وبقيت تحت الحكم الاسلامي حوالي ثلاثة قرون، واهتموا فيها بتطوير أنماط الفلاحة ووسائل الري، واستصلاح الأراضي وإقامة الترع والسدود، والقنوات، والمجاري المائية، وأدخلوا إليها زراعة القطن، وغراسة قصب السكر، واستغلوا ثرواتها المعدنية كالحديد، والنحاس والفضة، في صناعات العملات، والنقود، وبعض الأدوات، كما أدخلوا اليها صناعة الحرير والورق، ونشطوا الحركة التجارية، وطوروها ثم اتجهوا إلى النشاط العلمي، والابداع

(1) د. سعيد عبدالفتاح عاشور: أوروبا في العصور الوسطى ج2 نظم وحضارة القاهرة 1959، ص 43 — 91.
(2) المعابر الأخرى هي: الأندلس، وبلاد الشام مع مصر، وشبه آسيا الصغرى.

الثقافي حتى حولوا الجزيرة إلى معقل للعلوم والمعارف الاسلامية، والانسانية، مما جعل الشريف الادريسي والرحالة ابن جبير، يتغنيان، ويشيدان بمفاخرها العمرانية والاقتصادية وبقصور ومساجد واحياء مدن: باليرمو، وسرقوسة، ومازرة، ومرسى علي، وغيرها[1].

وعندما سقطت هذه الجزيرة في أيدي النورمان، في مطلع النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي، اهتم ملوكهم بالتراث العربي الاسلامي، على عكس الأسبان في الأندلس، فشجع روجر الأول ROGER مظهر الحركة الفكرية والثقافية الاسلامية، وزعماء الجالية الاسلامية الافريقية بها، وكتب على مراسيمه باللغة العربية إلى جانب اللاتينية واليونانية، كما كتب على نقوده بها، وكذلك فعل روجر الثاني، فكلف الشريف السبتي الادريسي بتأليف كتاب له عن جغرافية الأرض وأقاليمها، فأنجزه له، وما يزال حتى اليوم في متحف نورمبورق الرداء الحريري الذي كان ملوك النورمان يرتادونه خلال التتويج، وهو مطرز بكتابات عربية بالخط الكوفي يعود تاريخه إلى عام 1133م. وحتى فريدرك الثاني في القرن الثالث عشر أحاط نفسه بالمظاهر العربية الاسلامية، وبحاشية اسلامية افريقية حتى دعي بالامبراطور نصف الشرقي، لأنه كان يشجع العلماء والجغرافيين والفلكيين والأدباء المسلمين ويرعاهم، ويجمعهم حوله، ويستعين بآرائهم ويجلهم[2].

ومن هذه الجزيرة الصغيرة حجما، والعظيمة تقدما، وتحظرا، وبفضل الاسلام الذي حمله إليها مسلموا القيروان، والمسيلة، والمهدية، وجيجل، وبجاية، أخذت الحضارة الاسلامية الافريقية طريقها إلى مدن الحذاء الايطالي، (قلورية) مثل: أمالفى، وبيزة، وجنوة، وسالرنو، وغيرها، ومنها إلى فرنسا، وكل بلدان غرب أوربا ووسطها.

---

(1) أحمد توفيق المدني: المسلمون في جزيرة صقلية وحروب ايطاليا، ط 1 (الجزائر 1365هـ)، ص 284

(2) نفس المصدر وكذلك د. جمال الدين الشيال، أثر الاسلام والعرب في النهضة الأوروبية (القاهرة 1970). ص 365–389.

ووجد الأوربيون عندما استيقظوا من نومهم، تراثا اسلاميا هائلا، ومعينا لا ينضب من العلوم والمعارف والمؤلفات العربية الاسلا مية، في شتى فروع العلوم والفنون فاستغلوها واستفادوا منها ووجدوا ظالتهم، التي غرضتهم عن كابوس الكنيسة، وتزمتها وعن الدائرة الثقافية الضيقة التي حاولت الكنيسة أن تفرضها عليهم، فتطلعوا إلى حياة علمية وفكرية أكثر حسا وتنوعا وفي جو من الحرية التي أعتاد عليها ابن رشيق، وسحنون، وابن رشد وأمثاله من الأدباء والمفكرين والفلاسفة المسلمين وانكبوا على دراسة مظاهر الحضارة الاسلامية بشغف، وحماس، وفهم وشراهة، منقطعي النظير، ترك آثارا واضحة في الحياة الفكرية الأوروبية وفي جامعات أوروبا منذ أواخر القرن الثاني عشر الميلادي.

وكانت جامعة بادوا بايطاليا من بين الجامعات الأوروبية التي كان نفوذ الفكر الاسلامي بها لا يقل شأنا عنه في مونبيلي بفرنسا، وأصبحت الدراسات الاسلامية ذات شأن كبير جعلت بترارك يصيح في وجه مواطنيه قائلا: يا للعجب لقد استطاع شيشرون أن ينبغ في الخطابة بعد ديموستين واستطاع فرجيل ان ينبغ في قرض الشعر بعد هيوم فهل قدر علينا نحن ألا نكتب بعد العرب لقد أدركنا الأغريق، وجميع الشعوب وسبقناها في بعض الأحيان ما عدا العرب (المسلمين) فياللحماقة؟ وياللجهل؟ وياللعبقرية الايطالية الخامدة[1] انه نداء وتحسر فيه ما فيه من المرارة والحسرة والالم.

## قيام مركز بجاية الحضاري:

تأسست مدينة بجاية في بداية النصف الثاني من القرنين: الخامس الهجري، (460هـ) والحادي عشر الميلادي (1067م)، على أيدي الأمير الناصر بن علناس الحمادي، كصنوة لقلعة بني حماد التي هي صنوة لمدينة أشير.

---

[1] ول. ديورات: قصة الحضارة. ترجمة محمد بدران ج17 ط 2 (القهرة 1966) ص 15—16.

وكانت في الأصل ميناء بحريا قديما يدعى صلداي، يرد عليه البحارة منذ عهد الفنيقيين وعندما أسسها الناصر سماها: الناصرية ولكن الناس غلبوا عليها اسم «ابقايث»، البربري الذي كان اسما لإحدى القبائل الأمازيغية القاطنة هناك حسب رواية ابن خلدون. وما تزال هذه التسمية الأمازيغية حتى اليوم مستعملة من طرف سكان المنطقة ذوي الأصول الأمازيغية وهي التي صحفت بالعربية وأصبحت هكذا بجاية في المصادر العربية والنطق العربي.

وقد أسست بجاية على السفح الشرقي للجبل الذي يشرف على البحر إلى جوار مصب وادي الصومام الكبير غربا. وعندما انتقل إليها الناصر بن علناس عام 461هـ أسس فيها ورشتين لبناء السفن والمراكب البحرية الحربية والتجارية، وقصرا لزوجته بلارة بنت تميم بن المعز أمير المهدية الصنهاجي، وتوسع عمرانها بعد ذلك حتى أصبح بها إحدى وعشرون حيا، و 72 مسجدا و 150 ألف ساكن، وقصور وحمامات ودكاكين وتكايا ووكالات، وكتاتيب، وورش لصناعة الخشب، والأدوات الطينية، والنحاسية والحديدية والحلي الفضية والذهبية، وجلب إليها الماء عبر السواقي والقنوات العلوية واهتم الفلاحون حولها وفي فحصها بفلاحة الحبوب وغراسة: الأشجار المثمرة وتربية الحيوانات وتوفير المؤن والأغذية والحبوب والخضر والفواكه، واللحوم، ونشطت بها صناعة الأسلحة والذخائر والعتاد الحربي كالحبال، وصناعة الشموع، والأدوات الخشبية والطينية والطرز، والنسيج ونسخ الكتب، وصناعة الورق ومن أبرز قصورها: قصر اللؤلؤة، وقصر أميمون بجوار ضريح سيدي التواتي، وقصر الكوكب، وقصر بلارة، وقصر الرياض البديع الغربي، وقصر الرياض البديع الشرقي.

وقد وصف صاحب الاستبصار قصر اللؤلؤة فقال: وفي بجاية موقع يعرف باللؤلؤة وهو أنف من الجبل قد خرج في البحر متصل بالمدينة فيه قصور من بناء ملوك صنهاجة لم ير الرائون أحسن منها بناء ولا أنزه موضعا، فيها طاقات مشرفة على البحر عليها شبابيك الحديد والأبواب المخرمة

المنحنية، والمجالس المقرضة المبنية حيطانها، بالرخام الأبيض من أعلاها إلى أسفلها قد نقشت أحسن نقش وأنزلت بالذهب والأزورد وقد كتبت فيها الكتابات المحسنة، وأنزلت بالذهب وصورت فيها الصور الحسنة فجاءت من أحسن القصور منزها وجمالا[1].

وكان الشريف الادريسي أبلغ في إبراز ما وصلت إليه بجاية من رقي وتطور حضاري هائل في منتصف القرن السادس الهجري (12م) فقد قال: «بجاية في وقتنا هذا (548هـ — 1153 — 1154م) مدينة المغرب الأوسط، وعين بلاد بني حماد، والسفن إليها مقلعة، وبها القوافل منحطة والأمتعة إليها برا وبحرا، مجلوبة، والبضائع نافقة، وأهلها مياسير تجار. وبها من الصناعات ما ليس بكثير من البلاد، وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق وبها تحل الشذوذ وتباع البضائع بالأموال المقنطرة. ولها بواد، ومزارع والحنطة والشعير، بها موجودان كثيران والتين وسائر الفواكه بها منها ما يكفي لكثير من البلاد وبها دار صناعة لانشاء الأساطيل والمراكب والحرابي لأن الخشب في أوديتها وجبالها كثير موجود، ويجلب إليها من أقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران، وبها معادن الحديد الطيب موجودة وممكنة وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة وعلى بعد ميل منها نهر يأتيها من جهة المغرب، من نحو جبال جرجرة وهو نهر عظيم يجاز عند فم البحر بالمراكب، وكلما بعد عن البحر، كان ماؤه قليلا. ومدينة بجاية قطب لكثير من البلاد وهي قد عمرت بخراب القلعة التي بناها حماد»[2].

وقد وطد الحماديون في أول عهدهم صلاتهم الودية بروما، والجمهوريات الأيطالية الأخرى وابرم الناصر معاهدة مع بيزا، وخول تجارها حق المتاجرة مع بلاده، وتراسل مع البابا قريقوري السابع الذي

---

(1) الاستبصار (ط. فيينا 1852)، ص 21.
(2) الشريف الادريسي: وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية المأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (الجزائر 1957م)، ص 63.

أجابه برسالة أبلغه فيها سروره على قبوله بتعيين أسقف مسيحي في كنيسة بعنابة، وعلى إطلاقه سراح أسرى مسيحيين، وتعهد. باطلاق سراح كل من يقع في الأسر بمملكته. وجدد الموحدون هذه المعاهدة مع بيزا وجنوة والبندقية ومرسيليا، وقطالونية، وبروفانس وكثر تردد تجار هذه المدن على بجاية للتجارة والاستفادة، من المعارف الاسلامية المزدهرة بها[1].

## رواد الفكر والثقافة في مركز بجاية الحضاري:

شهدت بجاية نهضة علمية وفكرية هائلة خلال العصر الحمادي، والعصور التي تلته إلى مطلع القرن السادس عشر الميلادي، وقامت بها مدارس ومعاهد علمية ذات شهرة، ومساجد جامعة، وزوايا صوفية عريقة، ونبغ بها علماء أجلاء، وفقهاء ذوو الرأي في الشريعة الاسلامية وشعراء فحول وحكماء متضلعون في الفلسفة والحكمة وعلم التوحيد ولغويون مبرزون، ومحدثون أمناء ومدققون في الرواية، ومتصوفون في القمة، ورياضيون مبتكرون وطلاب علم ومعرفة من كل أنحاء العالم الاسلامي شرقه وغربه من الأندلس إلى بلاد فارس ومن بلاد أوروبا، خاصة إيطاليا وجنوب فرنسا، وبلاد اليونان.

وحسب رواية أبي حامد الصغير الحسن بن محمد المسيلي، فان بجاية وحدها كان بها تسعون مفتيا أواخر القرنين 6 هـ و 12م[2]. كما كان بها أطباء ورياضيون ومقرئون. وذكر ياقوت الحموي بأنه حتى العوام والعمي في بجاية كانوا يحفظون عن ظهر قلب كتب البخاري، والمدونة والموطأ ويشرحونها للناس من ذاكرتهم[3] وهي شهادة لها مغزاها ومدلولها.

ج3، ص 253.
(1) [illegible] تاريخ الجزائر [illegible] ج1 ط3 (الجزائر — 1982م) ص 320 — 321
(2) [illegible]
(3) ياقوت الحموي: معجم البلدان: ج3 (بيروت 1957)، ص 113.

ومن أبرز الأعلام التي يمكن الاشارة إليها في هذا الميدان: الفقيه الفضل بن سلمة البيجائي (319هـ ــ 931م)، والرحالة المقرىء أبو القاسم يوسف البسكري (403 ــ 465هـ ــ 1012 ــ 1072م) والفقيه الفيلسوف محمد بن علي بن الرمامة (478 ــ 567هـ ــ 1085 ــ 1171م) والفقيه المحدث أبو عبدالملك مروان البوني (439هـ ــ 1047م). واللغوي النحوي الحسن بن علي التيهرتي (501هـ ــ 1108م) والعلامة يوسف الورجلاني (500 ــ 570هـ ــ 1106 ــ 1174م) والفقيه الفيلسوف أبو حامد الصغير المسيلي (580هـ ــ 1185م) والحجة الحافظ أبو عمران الأشيري (859هـ ــ 1193م) والقاضي الفيلسوف محمد بن ابراهيم الأصولي (612هـ 1216م) والأديب المؤرخ محمد بن حماد الصنهاجي (628هـ ــ 1230م) والفقيه المقرىء أبو محمد عبدالسلام الزواوي (589 ــ 681هـ ــ 1193 ــ 1282م) والنحوي اللغوي يحي بن معطي الزواوي (628هـ ــ 1231م) والأديب محمد بن الحسن القلعي (673هـ ــ 1274م) والفقيه المقرىء والمؤرخ أبو زيان ناصر بن مزني البسكري (ت 23هـ ــ 1420م) والعالم ابراهيم بن فايد الزواوي (ت 847هـ ــ 1453م) والأديب الشاعر محمد عمر المليكشي (ت 740هـ ــ 1339م) والعلامة أحمد الغبريني (ت 644هـ ــ 704م) والصوفي أحمد بن إدريس، والفقيه المجتهد عبدالرحمن الوغليسي، ومحمد المشدالي (تت 864هـ ــ 1466م) وعبدالرحمن الثعالبي (ت 875هـ ــ 1470م) والقطب الصوفي أبو مدين شعيب بن الحسين (ت 595هـ) وغيرهم ممن يطول ذكرهم. وقد ترجم الغبريني في كتابه: «عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية» لأكثر من مائة وعشرة من العلماء، والفقهاء والأدباء والشعراء والأطباء والحكماء والرياضيين والفلكيين والمتصوفة والفلاسفة والمحدثين والمناطقة وغيرهم، ممن أنجبتهم بجاية أو جاؤوا إليها من الأصقاع البعيدة واستقروا

بها، ليتعلموا ويكتبوا ويؤلفوا الكتب وينسخوا المؤلفات ويقرئوا القرآن أو مروا بها وأقاموا مدة ثم رحلوا إلى المشرق أو المغرب.

وهذا الحشد من العلماء والمفكرين في هذا المركز الثقافي والحضاري البجائي برقعته الواسعة أثروا الحضارة العربية الاسلامية في مختلف مجالاتها، هنا بالجزائر وفي كل أصقاع المغرب والأندلس وبلدان المشرق الاسلامي وشاركوا في نهضتها وتطورها ورقيها وتوسيع مجالاتها ومفاهيمها، علما ودراية واستيعابا، وتأليفا وابداعا وكانوا في مستوى المطلوب.

## نماذج مما قدمه الغرب الاسلامي إلى أوروبا من مظاهر حضارية:

لقد شملت جهود المسلمين الحضارية ميادين كثيرة في الآداب والفلسفة والتاريخ والرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية والطب والجغرافية والفنون والصناعات وغيرها وكان لشعوب المغرب الاسلامي دور بارز ورائد في ذلك ابداعا وتأثيرا وايصالا إلى أوروبا بعد ذلك.

### في ميدان الأدب:

ففي ميدان الأدب كان الفكر اللاتيني يتصف بالجفاف، والجمود بينما الآداب الاسلامية تتصف بالخصوبة والابداع والحيوية ولذلك اتجه إليها الأوروبيون ليشفوا غليلهم ويشبعوا نهمهم، وليزيلوا ذلك الجمود الذي سيطر على عقولهم حقبا طويلة من الزمن مما جعل الباحث روسكين جب يقول «ولعل خير ما أسدته الآداب الاسلامية لآداب أوروبا أنها أثرت بثقافتها وفكرها العربي في شعر ونثر العصور الوسطى[1] وتمكن الأوروبيون بفضلها من خلق نزعة جديدة في آدابهم الأوروبية تتمثل في النزعة الرومانطيكية خاصة في ميدان الغزل الرقيق والرثاء الباكي[2].

(1) سيرهاملتون اليكساندر روسكين جب: تراث الاسلام (بيروت 1972)، ص 189—190.
(2) أحمد أمين: ظهر الاسلام ج3، ص 308.

وبالطبع فان الآداب العربي الإسلامي المغربي هو الذي أحدث ذلك التأثير الكبير والبالغ في الدراسات النثرية الأوروبية خاصة القصص الخرافية ذات المغزى الهادف الاخلاقي التي تتخذ الحيوان موضوعا لها، سواء عن طريق الأندلس أو بجاية، والقيروان، وصقلية. وهذا ما جعل جب، يؤكد بأنه لا يستطيع أحد ان ينكر أن ما تمتاز به آداب جنوب أوروبا من انبساطة وخيال خصب إنما يرجع إلى تأثرها بالبيئة العربية والى ما خلفته العربية في أهل الأندلس من تأثير(1) ونضيف نحن مسلمي صقلية وجنوب إيطاليا، والأمثلة على ذلك كثيرة مثل: إيزود ذات اليد البيضاء وفلوار **واليد** البيضاء والقاسني نيكولت، ودون كيشوف والكوميديا الالهية والدوكاميرون وغيرها(2).

**في ميدان الفلسفة:**

وفي ميدان الفلسفة يعتبر ابن رشد وابن طفيل وابن باجة على رأس قائمة فلاسفة المغرب الاسلامي الذين أثروا في فسلفة أوروبا وحرروها من الجمود والروحانية والخيالية غير الواقعية، ومن فكرة الالحاد. وفي رقعتنا الجغرافية البيجائية الجزائرية يمكن ان نشير إلى أبي حامد الصغير المسيلي المشار إليه سابقا، والذي شبه بغزالي المشرق، لاجتهاداته المتنوعة في الفلسفة والحكمة والفقه، والتوحيد.

ان تعاليم ابن رشد الفلسفية وتلاميذه من بعده، هي التي حفزت الأوروبين ودفعتهم إلى عصيان تعاليم الكنيسة والأخذ بمبدأ الفكر الحر وتحكيم العقل على أساس المشاهدة والتجربة كما أثرت في فلسفة توما الأكويني (1225—1274م) تأثيرا كبيرا**الدرجة أن** الفصول التي كتبها عن العقل والعقيدة وعن عجز العقل عن إدراك الأسرار الألهية. عبارة عن مقابلة لما كتبه ابن رشد في باب: فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة(3).

---

(1) روسكين جب. نفس المصادر، ص 277—279 غوستاف لوبون حضارة العرب: ترجمة عادل زعيتر (القاهرة 1964)، ص 474.

(2) منير الغضباني محمد علي مكي، أثر العرب والاسلام في النهضة الأوروبية (القاهرة 1970)، ص88—120.

(3) E. RENAN: AVEROES et AVERCISME (Paris - 1866) p. 12.

## في ميدان الرياضيات:

ولعل ميدان الرياضيات يبرز أكثر دور مركز بجاية الثقافي والحضاري ومدى تأثيره على جنوب أوروبا، وايطاليا بالذات، فقد خطا المسلمون خطوات هائلة ولربما عملاقة في تطوير علوم الحساب، والهندسة، والجبر، والميكانيكا، وحساب المثلثات والفلك فنقلوا أصول هذه العلوم من الاغريق والهنود، ثم عكفوا على دراستها والاستفادة منها، فأصلحوا ما بها من أخطاء وأكملوا ما بها من نقص، وأضافوا إليها بعد ذلك معلومات جيدة خاصة مادة الحساب لم يكن الأوروبيون على علم بها. ولم يتعرفوا عليها الا منهم وبواسطتهم. فهم الذين عرفوهم بنظام الأعداد العشرية، والصفر، اللذين يمثلان، ثورة في علم الحساب والرياضيات واستطاعوا بهما أن يزيلوا ذلك التعقيد الذي كان في النظام العددي الروماني واستعملوا نظام الترقيم بدلا من نظام الجمل الذي كان سائدا في العصور القديمة. فقد تمكن المسلمون من ايجاد نظام الخانات للأعداد، ووضع صفوف الآحاد، والعشرات، والمائات والآلاف، وما بعدها، وصار بالامكان تغيير قيمة الرقم، حسب الخانة التي يوضع فيها. والمسلمون هم الذين اختاروا سلسلتي: الأرقام الهندية والمستعملة حتى اليوم في بلدان المشرق الاسلامي، والأرقام الغبارية المستعملة في بلدان المغرب الاسلامي والأندلس. ومسلموا المغرب الاسلامي هم الذين استعملوا الدائرة صفرا، فنقلها عنهم الأوروبيون عبر الأندلس وبجاية وصقلية.

ومن اعلام المسلمين في الرياضيات بالمغرب الاسلامي مسلمة المجريطي (ت 1007م) وتلاميذه: ابن السمح، وابن الصفار، والكرماني، وأمية بن الصلت(1). ومن الذين نقلوا نظام الحساب الغباري، ونظام

---

(1) زيغريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب. أثر الحضارة العربية في أوروبا. ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي (بيروت 1964م)، ص 80 — 84.

الصفر إلى أوروبا من الأندلس البابا سلفيستر الذي كان يدعي جلبرت خلال حكم الخليفة الأموي أواخر القرن العاشر الميلادي(1).

ومن الذين نقلوه من بجاية بالجزائر، الرياضي البيزي لوناردو فيبوناتشي، الذي كان أبوه الطبيب، بوناتشيو رئيسا للمركز التجاري البيزي ببجاية. فقد ولد في ببيزا عام 1180م والتحق بوالده في بجاية بعد أن عين في تلك الوظيفة فاهتم بتعليمه وأوكله إلى أستاذ يدعى علي البجائي، ليعلمه ويثقفه، فانكب على دراسة مادة الحساب والرياضيات بصورة خاصة وعاشر التجار والحرفين البجائيين حتى تعلم وأخذ منهم ما عرف بطريقة العد السريعة مستخدما الأرقام الهندية الغبارية التسعة والصفر الدائري.

وبعد أن استنفذ ما عند أستاذه وشيخه سيدي علي البجائي شد الرحال إلى معظم بلدان المغرب الاسلامي وصقلية، والشام، ومصر، حيث أطلع على جهود المسلمين في الرياضيات واكتسب خبرات ومعارف واسعة فيها، فاعتكف على التأليف. ووضع كتاب العد عام 1202م وكتاب الهندسة التطبيقية عام 1220م، وكتابين آخرين في نفس المادة ابتكر فيهما طرقا وأساليب جديدة لحل معادلات حسابية وهندسية من الدرجة الأولى والثانية.

وبذلك كان من الرواد الأوروبيين الأوائل الذين استفادوا من الرياضيات الاسلامية بالجزائر ونقلوا إلى أوروبا الأرقام الغبارية، والصفر الدائري، والطريقة العشرية، والحساب والجبر والهندسة العربية بعد أن طورها المسلمون وهذبوها ونقحوها، وأضافوا إليها أشياء جديدة كما رأينا(2).

---

(1) نفس المصدر ص 88—90 وكذلك ديورانت ج17، ص 170 — 171.

(2) حلال مظهر: أثر العرب في الحضارة الأوروبية نهاية عصر الظلام وتأسيس الحضارة الحديثة، (بيروت 1967)، ص 291.

## في ميدان الفلك:

وهكذا أيضا زود الفلكيون المسلمون بالمغرب الاسلامي، أوروبا بالمعلومات والنتائج الفكلية الهامة التي توصلوا إليها، ومن أبرزهم ابراهيم الزرقالي (1029 ـ 1087م) الطليطلي وإبراهيم السهلي البلنسي، وجابر بن أفلح الاشبيلي والحسن المراكشي، واسحاق البطروجي الأشبيلي، وترجم تراثهم إلى اللغة اللاتينية وباقي اللغات الأوروبية الأخرى منذ القرن 13 إلى القرن 19م(1).

## في ميدان الطب والصيدّلة:

ولبجاية، ومعبر صقلية دور هام في إمداد أوروبا بتجارب مهمة في ميدان الطب، والعلاج والجراحة والصيدلة فقد قام المسلمون بترجمة تراث اليونان وطوروه ونقحوه، حتى أصبح علما مقننا بقواعد، وأصول، ووسائل. وتصدي جيل من العلماء المسلمين لذلك خصص لهم ابن أبي أصيبعة مجلدا خاصا من كتاب: «عيون الأنباء في طبقات الأطباء». للتعريف بهم وبمجهوداتهم العلمية وابتكاراتهم التي توصلوا إليها. لأنهم قاموا بتعديل الكثير من الحقائق الطبية الخاطئة وتصحيحها. وأضافوا أبوابا جديدة في الطب والصيدلة وطرق العلاج لم يسبقهم إليها أحد.

وذلك في نفس الوقت الذي كان فيه رجال الدين بأوروبا يعتبرون المرض نوعا من العقاب والجزاء الإلهي، لا ينبغي للإنسان أن يعالجه وانما عليه أن يهرع إلى دير أو كنيسة، ويبقي هناك لعل المعجزة تشفيه، وقد روى أسامة بن منقذ حوادث ونماذج كثيرة توضح الفرق الكبير بين مستوى

(1) حيدر بامات (ج. بريفوار): مجالي الاسلام. ترجمة عادل زعيتر. (القاهرة 1956)، ص 133ـ141.

المسلمين الرفيع ومستوى الفرنجة المنحط حتى في أبسط مبادىء الطب والعلاج خلال الحروب الصليبية ببلاد الشام(1).

ومن أبرز أطباء الغرب الاسلامي أطباء عائلة ابن زهر، ومؤلفاتهم وتجاربهم وابن البيطار المالقي، وابن حزم، وابن اندراس البجائي، وغيرهم الذين ترجمت كتبهم ومؤلفاتهم عدة مرات إلى اللاتينية منذ مطلع القرن السادس عشر وبقيت مراجع أساسية للأوروبيين إلى منتصف القرن الثامن عشر.

ويعتبر أبو القاسم الزهراوي القرطبي (936—1013م) من الأطباء والجراحين الكبار في الغرب الاسلامي ابتكر عدة عمليات جراحية دقيقة في العيون، والأسنان، والولادة من ضمنها سحق الحصاة في المثانة واستخراجها وكي الجراحات، وتشريح الأجسام حية وميتة، وقد اقترح عندما كان طبيبا في قصر الحكم الثاني استخدام النساء كمساعدات وممرضات، لأن ذلك أدعى للرحمة والحنان. والاطمئنان، ووصف في كتابه: «التصريف لمن عجز عن التأليف» أكثر من مائة آلة جراحية، الكثير منها من صنعه واختراعه. وترجم كتابه واتخذ مرجعا في مدرستي سالرنو الايطالية. ومونبيلي الفرنسية(2) سنوات طويلة.

وكذلك فعل أطباء عائلة ابن زهر الذين نبغوا في الطب والكيمياء، والعلوم الطبيعية بالمغرب، والأندلس وعددهم ستة كل واحد منهم على رأس قائمة من الأطباء منهم عبدالملك بن محمد الذي درس بالأندلس، ومصر والقيروان. وابنه أبو العلاء زهر ثم ابنه مروان الثالث عبدالملك

---

(1) د. سعيد عبدالفتاح عاشور: فضل العرب على الحضارة الأوروبية (القاهرة 1957)، 42—44

(2) جلال مظهر: أثر الحضارة الأوروبية، ص 248 — 260.

زهر الذي طارت شهرته كخلف للرازي في المشرق، وتفوق في الطب الأكلينيكي وألف كتاب: «التيسير في المداواة والتدبير» استجابة لرغبة صديقه وتلميذه أبي الوليد بن رشد. شرح فيه فنون الاستشفاء والعلاج والحمية وأنواعا من الأدوية والأغذية الصحية وطريقة جراحة الجهاز التنفسي وكسور العظام. وترجم كتابه إلى اللاتينية منذ القرن 13م(1).

ويعتبر الطبيب بن الجزار أحمد بن ابراهيم الذي عاش في القيروان حتى توفي عام 1004م من رواد الطب في المغرب الاسلامي، تضلع فيه واتخذ لنفسه عيادة لاستقبال المرضى وفحصهم وعلاجهم خلال الفصول الباردة أما في فصل الصيف فإنه يغلق العيادة ويسافر مع المراكب الاسلامية في البحر لمعالجة المرضى والجرحى، وقد ساعده ذلك على تطوير معلوماته في الطب والصيدلة ومن مؤلفاته الطبية: قوت الحاضر، وطب الفقراء والمساكين، وكتاب **الأقرباذين**، وكتاب الاعتماد، وكتاب الابدال، ترجم معظمها إلى اللاتينية، وما يزال البعض في الأرشيفات كالأسكوريال، ودرسدن وباريس، وأوكسفورد وقام الطبيب ستيفان بترجمة كتاب الأقرباذين وأعطى له عنوان: زاد المسافرين(2).

ومن أبرز الأطباء الأفارقة كذلك الذين كان لهم دور رائد في امداد الطب الأوروبي، بزاد لا ينضب من الخبرات الطبية الاسلامية، قسطنطين القرطاجي التونسي الذي ولد بقرطاجة عام 400هـ (1009م) ونبغ منذ صغره في العلوم والمعارف الطبية وغيرها، ثم قام بجولات واسعة في المشرق والمغرب الاسلاميين للاستزادة من المعلومات والمعارف الاسلامية المختلفة وعندما رجع إلى تونس تنصر في ظروف غامضة ورحل إلى صقلية فقربه إليه الأمير النورماني روجر جيسكار، واتخذه كاتبا خاصا له مدة، ثم تخلى

---

(1) نفس المصدر، ص 244 ــ 245 و 262 ــ 263.
(2) زيغريد هونكة، ص 288 ــ 248.

عن منصبه واعتكف في ديرجبل كاسينو وتفرغ للتأليف والترجمة من العربية إلى اللاتينية في علم الطب. وانجز 22 كتابا طبعت كلها بين عام 1536 و1539م ولكنه أهمل ذكر أصحاب المؤلفات ونسبها إلى نفسه ومنها: كتب ابن الجزار وعلي بن العباس والرازي واسحاق بن سليمان الاسرائيلي(1).

وقد اعتبر قسطنطين الافريقي من الرواد الأوائل الذين قدموا الطب العربي والخبرة الطبية العربية الاسلامية إلى أوروبا. وهو الذي فتح الطريق لجيرارد الكريموني (1114—1176م) ليبرز، ويمهد لقيام جامعة مونبيلي الطبية وجامعة سالرنو الطبية كذلك(2).

ولابد هنا من الاشارة إلى الحكيم المرسي أبي القاسم محمد بن محمد الملقب بإبن أندراس البيجائي لأنه هاجر إلى بجاية واستقر بها في حدود (650 ـ 660هـ) واشتغل بمهنة الطب والتوليد، ومن تلاميذه أحمد الغبريني صاحب كتاب عنوان الدراية الذي ترجم له وقال: «وتبسط للطب طبيا باحثا جيدا، وله معرفة بعلم العربية وله شركة في أصول الدين جيدة ويشارك مع هذا في فنون غير هذه مشاركة حسنة، وكانت له حدة ذهن وجودة تبسط لاقراء الطب والعربية. وكان حاذقا في عربيته وإذا سئل عن المسألة الطبية كثيرا ما يتوقف عن الجواب إلا بعد نظر.. وحينئذ يقع الجواب وهذا حال حذاق الأطباء... وكان رحمه الله متوليا لطب الولادة ببجاية هو وبعض خواص الأطباء بها. ورحل إلى حاضرة إفريقيا باستدعاء أمير المؤمنين المستنصر بالله بعد أن سمع به وعرف خبره فحضر مجلسه وسئل فأجاب ووافق طريق الصواب وانتظم في سلك أطبائه وكان من جملة

---

(1) أحمد توفيق المدني. المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا ط 1 (الجزائر 1365هـ)، ص 223—226 و 284.

(2) جلال مظهر: ص 184—191.

جلسائه... وله رجز نظم فيه بعض الأدوية واستكمله وهو ببجاية وكان رحمه آلله شرع في نظم الأدوية المفردة من القانون وكلفني بنظم بعض الأدوية على سبيل التعاون، فنظمت له بعضها وما علمت هل استكملها بعد أم لا، وتوفي بتونس عام 674هـ[1].

ولابد من الاشارة كذلك إلى الحكيم الدلسي أبي عبدآلله محمد بن يحي بن عبدالسلام، من مدينة دللس، الذي كان طبيبا، وفقيها، وكاتبا وأديبا. سكن بجاية وتولى منصب القضاء في بعض كورها «وكان له حظ في علم الطب علمية وعملية وكان مزاولا، ومعالجا»[2]. أي أنه كان يزاول الطب نظريا وعمليا يفحص ويعالج.

ومن الأطباء الآخرين الذين اشتهر بهم الغرب الاسلامي ولهم بصماتهم في الطب الأوروبي علي بن عبدالرحمن الطليطلي، وأمية بن أبي الصلت، وابن رشد، وابن ميمون، ولسان الدين بن الخطيب، وكلهم أصحاب مؤلفات مشهورة وتجارب وخبرات واسعة.

وهكذا يتضح أن الطب الاسلامي المغاربي قدم لأوروبا فوائد كثيرة ورائدة تتجلى في الكتب الجامعة، التي تناولت ومعظم فروع علم الطب، وفي المادة العلمية الغزيرة المتعلقة بالطب الاكلينيكي، وفي المعرفة الواسعة للعقاقير والأدوية المفردة والمركبة وفي الخبرة الواسعة في العلاج والجراحة ونظام البيما ريستانات (المستشفيات)[3].

---

(1) أبو العباس أحمد الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق محمد بن أبي نشب (الجزائر 1910)، ص 45—47، ط 2 (الجزائر 1981)، ص 101—102.

(2) الغبريني نفس المصدر، ط 2 294—300.

(3) زقريد هونكة: نفس المصدر، ص 263 — 269 و 340—342.

ولا تكتمل الصورة دون الاشارة إلى الشريف الادريسي في ميدان علم الجغرافية، والحسن الوزان في ميدان أدب الرحلات.

فالشريف الادريسي الذي ولد بمدينة سبتة عام 1099م يعتبر رائد الجغرافيين المسلمين في الغرب الاسلامي درس في بلاده حتى تضلع في العلوم والمعارف العربية الاسلامية ثم قام بعدة رحلات إلى الأندلس وبلدان المغرب العربي، وجنوب فرنسا، وايطاليا، وصقلية واليونان وآسيا الصغرى وانجلترا، وبعد ذلك اتجه إلى صقلية واستقر بعاصمتها باليرمو وحظي بالرعاية من طرف حاكمها روجر الثاني (1101ــ1154م) الذي كلفه بوضع كتاب عن جغرافية الأرض فانجزه وسماه: «نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والآفاق، والبلدان والجزر والمدائن والآفاق» وعرف فيما بعد بالكتاب الرجاوي نسبة إلى روجر صاحب الفكرة والاقتراح، وقد زوده الادريسي بحوالي سبعين خريطة. وجمع فيها بين الجغرافية الوصفية والفلكية وقسم الأرض إلى سبعة أقاليم عرضية ووضع خريطة جامعة للكرة الأرضية على كرة فضية. ولاهمية كتاب الأدريسي هذا ترجمه الأوروبيون منذ مطلع القرن 17م وبقي مرجعا لهم طوال ثلاثة قرون وزيادة، وقد أشار فيه إلى ما يثبت أن مسلمي الغرب الاسلامي هم الذين اكتشفوا أمريكا قبل كريستوف كولومبوس وذلك عندما تحدث عن قصة مغامرة الإخوة المغررين(1).

والحسن بن محمد الوزان الذي ألف كتاب، وصف إفريقيا. اعتمده الأوروبيون عدة قرون في التعرف على شمال هذه القارة. وقد كتبه الحسن الوزان بالعربية، ثم ترجمه إلى اللاتينية خلال إقامته بالفاتيكان على عهد البابا ليو العاشر. وبقي هذا الكتاب مرجعا لأوروبا حتى القرن 19م(2).

---

(1) ج. تي. كرامرز: تراث الاسلام، ص 141ــ143 توفيق المدني: المسلمون، ص236ــ237. حلال مظهر، ص 314ــ329. أحمد أمين: ظهر الاسلام، ج3، ص293ــ299.

(2) د. محمد محمود الصياد: أثر العرب والاسلام في النهضة الأوروبية، ص 317ــ318.

وقد زودت بجاية برقعتها الواسعة، أوروبا بصناعة الشمع، والورق والزجاج والخزف ونسيج القطن والصوف والحرير. وهكذا يمكن القول ان الغرب الاسلامي بأقاليمه الواسعة والجزائر بالذات وبجاية والمهدية، والقيروان، وصقلية، هي التي بعثت الحياة في أوروبا الجنوبية، والغربية وعرفتها بالعلوم والمعارف والصناعات والابتكارات الاسلامية ومكنتها من استغلال مزروعات لم يكن لها عهد بها في السابق مثل القطن وقصب السكر والزعرور والياسمين والزعفران والعنبر والقنب، والزنجبيل[1] وهو ما أشارت إليه هونكة والحت عليه[2].

وهكذا يمكن القول كذلك بأن المراكز الثقافية الحضارية بالجزائر عموما وبجاية بشكل خاص شاركت بمجهود كبير في بناء معالم الحضارة العربية الاسلامية وارسائها. وقدمت الكثير من الأعمال والابداعات في المجالات الحضارية المختلفة والمتنوعة وأنارت لأوروبا الطريق لتنهض من كبوتها، وتقتفي طريقها وتتخلص من كابوس الكنيسة الديني المرهق وجبروت الملوك والاباطرة السياسي ومظالم الاثرياء، وتسلط رجال الاقطاع من الناحية الاقتصادية، والعينات السابقة المشار إليها خير دليل على ذلك وأبرز شاهد، وقد واصلت هذه المراكز الحضارية دورها، ولم تتوقف عن العطاء حتى في أحلك فترات البلاد، ونتمنى ان يتواصل هذا الدور، وهذا العطاء، والابداع اليوم حتى يكون لنا قدم راسخ في الحضارة الانسانية العالمية.

---

(1) حيدر بامات 106ـــ108.

(2) هونكة: ص 32. ويمكن الرجوع إلى مقالنا الجامع الموسع: ازدهار الحضارة والمراكز الاسلامية في الغرب الاسلامي ودورهما في نهضة أوروبا ويقظتها مجلة الأصالة عدد 75ـــ76ـــ79ـــ78 (الجزائر ـــ نوفمبر، ديسمبر 1979 جانفي، فيفري 1980)، ص 113ـــ144، وكذلك كتابنا مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية (الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية 1991).

# عهد الدولة المرابطية في المغرب والأندلس

## (434 ــ 541هـ ــ 1059 ــ 1147م)

قامت الدولة المرابطية على فكرة الرباط الشائعة في صدر الاسلام، خاصة على عهد الخلفاء الراشدين، والأمويين، وصدر الدولة العباسية.

والرباط في العرف الاسلامي هو المكان الذي يتمركز فيه المجاهدون في حدود الدولة الاسلامية، للدفاع عنها ضد أعدائها الكافرين. ولتنظيم غزوات دورية بقصد توسيع رقعة الدولة الاسلامية، ونشر الاسلام وايصاله إلى الشعوب المختلفة، وقد استمد معنى الرباط من قوله تعالى: ﴿**وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوآلله وعدوكم**﴾، ومن قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا آلله لعلكم تفلحون**﴾.

وكان الخليفة عمر بن الخطاب أول من أمر باتخاذ الرباطات في حدود بلاد الشام الشمالية على أطراف الدولة البيزنطية مثل: أطنة، وطرسوس، ومرعش، وملطية، والمصيصة. وجرى على نفس المنوال الأمويون، والعباسيون.

ثم ظهرت الرباطات في الغرب الاسلامي كذلك مثل: رباط الإسكندرية، بمصر، ورباط القيروان بتونس، ورباط شاكر بالمغرب الأقصى على ضفة واد نفيس جنوب مدينة مراكش، أين دفن شاكر نفسه أحد جنود عقبة بن نافع الفهري.

وعندما ظهر المرابطون بالمغرب الاسلامي. اتخذوا الرباط في البداية للتعبد ونشر مبادىء الاسلام الصحيحة، ومقاومة البدع والوثنية، ثم انطلقوا من رباطهم إلى باقي أنحاء المغرب للغزو والتوسع في حركة سياسية ناجحة.

## أصل المرابطين:

ينتمي المرابطون إلى قبيلتي لمتونة، وجدالة، من فورع قبيلة صنهاجة البربرية الكبيرة مثل: مسوفة، ولمطة، ومداسة، ووتريكة.

وكان اللمتونيون، والجداليون، قبل الاسلام، يقطنون في قلب الصحراء باقليم موريطانيا الحالي، والصحراء الغربية المعروفة باسم: الساقية الحمراء، ووادي الذهب، ما بين جنوب المغرب الأقصى، وبلاد السنغال، ويعتمدون في حياتهم على لحوم الابل وألبانها، لفقر المنطقة في الزراعة. ويدينون بالوثنية إلى أن ظهر الاسلام ووصل إلى المغرب فدخلوا إلى الاسلام وبدأت تظهر فيهم الرئاسة والملك.

ومن أشهر ملوكهم وأمرائهم في أواسط القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي)، تيولوتان بن تيكلان الصنهاجي اللمتوني الذي بسط نفوذه وسلطانه على جهات كثيرة من الصحراء، وحارب القبائل الوثنية، ونشر الاسلام بينها، وفرض الجزية على سائر ملوك وأمراء السنغال المجاورين، وتوسعت مملكته حتى شملت أجزاء واسعة في المنطقة وأصبحت له الرئاسة على سائر القبائل الصنهاجية جنوب جبال درن بالصحراء.

وبعد وفاته عام 837م (222هـ) خلفه في الرئاسة حفيده الآثر بن بطين وظل رئيسا قرابة خمسة وستين عاما إلى أن توفي عام 902م (287هـ) فخلفه ابنه تميم وبقي في الحكم حتى قتل عام 918م (306هـ) على أيدي كبار الصنهاجيين. فتفرق أمر اللمتونيين، وتوزعوا إلى طوائف وشيع، وبقوا بدون رئاسة حوالي قرن وعشرين عاما.

ثم ظهر فيهم الأمير أبو عبدالله محمد بن تيفاوت اللمتوني المعروف باسم: «تارسنة». فالتفوا حوله إلى أن قتل، وهو يحارب القبائل الوثنية بالسينغال فخلفه صهره الأمير يحي بن ابراهيم الجدالي زعيم قبيلة جدالة. (أو دكالة) شقيقة قبيلة لمتونة وبقي رئيسا وقائدا لحروبهم حتى عام 1035م (427هـ) ثم استخلف ابنه ابراهيم وقرر أن يرحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج، وطلب العلم والمعرفة. بعد أن استاء من شيوع الجهل والبدع والخرافات بين أبناء قومه في موريطانيا، والسينيغال، وتحريف مبادىء الاسلام الصحيحة.

وبعد أن تزود بمعارف الشرق، وتعرف على أحوال المجتمعات الاسلامية عاد من المشرق ومر بالقيروان والتقي هناك بالفقيه العالم أبي عمران الفاسي شيخ المذهب المالكي، وحضر عددا من دروسه وتأثر بأسلوبه وشخصيته، وشكاله ما يعانيه قومه بالمغرب الأقصى من الجهل بأصول الاسلام الصحيحة، ومن تفشي الاخلاق والعادات الفاسدة، والمظاهر الوثنية والمجوسية الباطلة. وطلب منه أن يختار له فقيها من تلاميذه ليصحبه معه إلى بلاده ليعلم قومه ويفقههم في أمور دينهم الصحيحة.

فعرض الشيخ أبو عمران الأمر على تلاميذه، ولم يستجب أحد منهم لبعد الشقة والمسافة، وعندئذ كتب له رسالة الى تلميذ له ببلدة نفيس في إقليم السوس الأقصى يدعى: أبا محمد واجاج بن زللو اللَّمطي، كان يقوم بتدريس العلم، ويتولى مهمة الوعظ والارشاد في رباط خاص هناك.

### عبد آلله بن ياسين الجزولي ورباطه:

وفور أن عاد الأمير يحي إلى المغرب الأقصى، اتصل بأبي محمد اللمطي وسلمه رسالة شيخه أبي عمران، فقراها على تلاميذه، وأوضح لهم رغبته فتطوع عبدآلله بن ياسين الجزولي للمهمة، وكان عالما ورعا، واسع الاطلاع، عارفا بأوضاع السكان، بسبب كثرة تنقلاته بالمنطقة ومحبا للتضحية والجهاد.

فسار به الأمير يحي بن ابراهيم إلى أعماق الصحراء وفرح السكان بمقدمهما واستقبلوهما استقبالا حسنا وكريما. وشرع عبدالله بن ياسين في أداء مهمته، وأخذ يجتهد في النصح ونشر مبادىء الاسلام الصحيحة. وأمر الناس بالاقلاع عن التقاليد الوثنية المنافية للاسلام مثل الزوج بأكثر من أربعة نساء.

ولما لم يستجب الناس لدعوته، وأعرضوا عنه قرر ان يرحل عنهم ويفارقهم وصحب معه الأمير يحي بن ابراهيم الذي أصبح أكبر تلاميذه وعزم على الانقطاع للعبادة في بعض الأماكن النائية. وانضم إليهما عند الرحيل سبعة من الجداليين، وواحد من اللمتونيين يدعى يحي بن عمر بن تلاكاكين، فأصبحوا عشرة، وذهبوا إلى جزيرة صغيرة في وسط منحنى نهر النيجر قرب مدينة تمبوكتو. وبنوا هناك رباطا للاقامة والتعبد. فاشتهر أمرهم ووفد عليهم هناك عدد كبير من زعماء قبائل صنهاجة بلغ عددهم حوالي ألف رجل، عكف ابن ياسين على تعليمهم، وتثقيفهم، وتهذيبهم. وسماهم بالمرابطين لملازمتهم رباطه وألهب حماسهم بفكرة الجهاد في سبيل الله وقتل المخالفين لأحكام الدين الاسلامي الصحيحة.

وبعد أن أيقن من اخلاصهم وتفانيهم أظهر لهم نواياه، ودعاهم إلى الخروج معه للجهاد في سبيل الله فاستجابوا.

وكانت الخطوة الأولى التي اتخذها هي توزيعهم على مختلف القبائل ليدعوها إلى التخلي عن التقاليد الوثنية، وطلب منهم أن يمهلوها بعد الانذار، سبعة أيام لتعود إلى الطريق المستقيم. ولما لم تنجح هذه الخطة خرج بنفسه، واجتمع بشيوخ القبائل ووعظهم فلم يطيعوه وعندئذ قرر، استعمال العنف واعلان الحرب ضد العصاة والمخالفين للدين الاسلامي.

## حروب ابن ياسين في الصحراء:

ففي عام 1042م (434هـ) قاتل ابن ياسين الجداليين بجيش قوامه حوالي ثلاثة آلاف رجل، وقتل كثيرا من العصاة، وارغم الباقين على العودة إلى مبادىء الاسلام الصحيحة.

وبعد ذلك سار لمحاربة اللمتونيين، وضيق عليهم حتى اذعنوا وعادوا إلى أتباع الكتاب والسنة. ثم سار لقتال المسوفيين حتى أذعنوا، وتعاقب خضوع قبائل صنهاجة الواحدة تلو الأخرى حتى خضعت جميعها لابن ياسين ورفاقه.

وكان ابن ياسين يضرب التائب مائة سوط حتى يطهر ثم يلقنه تعاليم القرآن وأحكام السنة النبوية وبذلك استطاع ان يبسط سلطانه الروحي على كل القبائل الصحراوية حتى نهر درعة. واستمر في جبي أموال الزكاة، والاعشار، والفيء، واقتناء الأسلحة والخيول للحرب، وأسند السلطة الزمنية وشؤون الحرب والجهاد، لتلميذه يحي بن ابراهيم حتى توفي، ثم إلى الأمير يحي بن عمر بن تلاكاكين، اللمتوني الذي كان شديد الولاء له. وقاد عدة حملات، وافتتح عدة جهات من الصحراء الغربية والسنغال.

## أوضاع المغرب الأقصى أثناء حركة ابن ياسين:

لقد أحدثت حركة ابن ياسين، ورفقائه المرابطين صدى واسعا بالمغرب الأقصى الذي كان منقسما على نفسه إلى عدة ممالك وامارات صغيرة متخاصمة فيما بينها مثل: مملكة زيري بن عطية الزناتي وأبنائه بفاس وشمال المغرب. ومملكة بني يفرن في سلا وما جاورها على السواحل الأطلسية، وامارة بني خزرون المغراويين بدرعة وسجلماسة. وامارة برغواطة على سواحل المحيط الأطلسي الجنوبية. وقد تحزب الناقمون على هذه الامارات واستنجدوا بابن ياسين فكتب إليه فقهاء درعة وسجلماسة عام 1052م (444هـ) كما كتبوا إلى الأمير يحي اللمتوني وكبار المرابطين، يشكون إليه ما يقع في بلادهم من الظلم والفساد والمروق عن الدين، ويدعونهم إلى انقاذ المسلمين من ذلك. وكانت درعة وسلجلماسة آنذاك تخضعان لحكم بني وانودين المغراويين وأميرهم مسعود بن وانودين، فجمع ابن ياسين كبار أصحابه وشاورهم في الأمر فاتفقوا على الاستجابة ونجدة ابن ياسين كبار أصحابه وشاورهم في الأمر فاتفقوا على الاستجابة ونجدة أهالي المدينتين.

## حروب ابن ياسين في الشمال:

ففي عام 1053م (445هـ) هاجم ابن ياسين وأتباعه مدينة درعة. وطردوا منها عاملها مسعود، وقتلوه واستولوا على كل أسلابه، ودوابه وحوالي خمسين ألفا من الأبل، وفعلوا نفس الشيء بسجلماسة واستولوا على المدينتين وأمر ابن ياسين بازالة المنكرات، والغاء المكوس الجائرة وتوزيع الغنائم على المرابطين، والفقهاء وتطبيق الأحكام الشرعية. وبعد هذه الاجراءات عين ابن ياسين حاكما لمتونيا على سجلماسة.

وكانت غزوة سجلماسة بداية الفتح المرابطي للمغرب الأقصى. وبعد مقتل الأمير يحي عام 1055م (447هـ) في احدى المعارك، عين ابن ياسين في مكانه أخاه أبا بكر بن عمر، وعزم على فتح بلاد السوس الأقصى، وتقوى مركزه بانضمام الجزوليين، واللمطيين إلى حركته. فخرج عام 1056م (448هـ) على رأس قوات كبيرة للغزو والفتح وكان من ضمن قواده يوسف بن تاشفين اللمتوني ابن عم الأمير أبي بكر. فغزا بلاد جزولة وسيطر على مدينة ماسة، ومدينة تارودانت قاعدة اقليم السوس الأقصى، وقضى على طائفة البجلية الشيعية الرافضة وأرغم أفرادها على العودة إلى أحوال الدين الاسلامي الصحيحة.

وبعد أن سيطر ابن ياسين على بلاد السوس الأقصى عين عمالا مرابطين على مدنها وأقاليمها وأمرهم ان يطبقوا أحكام الاسلام بدقة، ويطبقوا العدل في الحكم، ويلغوا المغارم والضرائب الجائرة على الناس ويكتفوا فقط باستخلاص الزكاة والاعشار.

وعندما فرغ ابن ياسين من تنظيم بلاد السوس عبرت قواته جبال الأطلس الكبير وقصدت إلى مواطن مصمودة وسيطر المرابطين على شفشاون، ونفيس في جبال درن، وعلى مناطق جدميوة، وامتد نفوذهم إلى وادي درعة وتنسفت وبلاد رجراجة.

وبعد ذلك اتجه المرابطون إلى الجنوب الشرقي، وفتحوا مدينة اغمات عام 1059م (449هـ) ومدينة تادلة، وقتلوا بها عامل اغمات الذي لجأ إليها.

## حركة برغواطة وصالح بن طريف البرغواطي:

وعندما فرغ ابن ياسين من تنظيم شؤون اغمات وتادلة سار إلى مدينة تامسنة لمحاربة قبائل برغواطة التي كانت تدين بمذهب مخالف لتعاليم الاسلام الصحيحة ابتدعه رجل يهودي يدعى صالح بن طريف البرناطي الأندلسي منذ أوائل القرن الثاني الهجري، وفشل المسلمون في القضاء عليهم عدة قرون، حتى ظهر المرابطون، وصمموا على الفتك بهم والقضاء عليهم. فسار الأمير أبو بكر، وابن ياسين على رأس حشد كبير من الأنصار المرابطين لقتالهم وجرت عدة مواقع جرح في احداها ابن ياسين وتوفي متأثرا بجراحه، وأوصى قبل وفاته أصحابه بالثبات والصمود في القتال، وحثهم على الوحدة، وحذرهم من عواقب الخلافات والفرقة. وكانت وفاته عام 1059م (451هـ) ودفن بواد كرفيلة قرب تامسنة.

## ظهور يوسف بن تاشفين وقيام دولة المرابطين:

بعد مقتل ابن ياسين اختار المرابطون الأمير أبا بكر بن عمر اللمتوني رئيسا عليهم تنفيذا لوصية زعيمهم الروحي الراحل. وكان ذلك بداية لظهور المرابطين من الناحية السياسية. فجد الأمير أبو بكر في قتال البرغواطيين المخالفين لتعاليم الاسلام حتى أرغمهم على الخضوع والعودة إلى جادة الصواب ثم عاد إلى اغمات وأقام بها حتى عام 1060، ثم اتجه لغزو وفتح بلاد فازار، ومكناس، ولواته، وعاقب المعارضين لحركة المرابطين، وقتل الكثير منهم ثم عاد إلى أغمات، حيث وفد عليه رسول من بلاد القبلة بالصحراء يخبره بحصول خلاف بين المرابطين واللمتونيين والمسوفيين فخشي أن يتفاقم الخلاف بينهم وأسرع في العودة إلى هناك بعد أن استخلف في

مكانه ابن عمه يوسف بن تاشفين. وأوصاه بأن يحارب المغراويين، والزناتيين، واليفرنيين، وترك له نصف قواته المحاربة.

وفي طريقه إلى أعماق الصحراء عام 1061م (453هـ) مر بتادلة وسجلماسة وأصلح أحوال الناس فيهما ثم واصل طريقه إلى أطراف السنغال.

أما يوسف بن تاشفين فقد قسم قواته إلى أربعة أقسام، وعين على كل قسم قائدا كبيرا وهم: سير بن أبي بكر اللمتوني، ومحمد بن تميم الجدالي، وعمر بن سليمان المسوفي، ومدرك التلكاتي، وكلفهم بالتوجه إلى مناطق المغرب المختلفة، وسار هو على رأس مقاتلة خصومهم ولم تمض بضعة شهور حتى دخل معظم بلاد المغرب الأقصى الوسطى والجنوبية تحت حكم المرابطين. وعاد يوسف إلى اغمات عام 1062 (454هـ) بعد أن ذاع صيته في سائر الأنحاء.

## انشاء مدينة مراكش كعاصمة للمرابطين

وبعد الانتصارات التي حققها [illegible] بن تاشفين عزم على انشاء قاعدة جيشه، [illegible] مكانا في [illegible] [illegible] [illegible] وشيد به مسجدا، وقصبة عام 1062م وكان ذلك [illegible] [illegible] إلى [illegible] بلاد المصامدة

وبعد هذه الخطوة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] العبيد السود، واشترى عددا من [illegible] [illegible] الأندلس [illegible] فرقة خاصة من [illegible] [illegible] [illegible].

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] على مدينة [illegible] [illegible] [illegible] وحاصرها وفتحها عام 1063، [illegible] [illegible] [illegible] بلاد غمارة حتى قرب من مدينة [illegible]، وقضى على محاولة

المغراويين لاستعادة مدينة فاس. وعندما عاد ابن عمه الأمير أبو بكر من الصحراء وجد سمعته ونفوذه قويين وسلطته لا تقاوم ففضل العودة إلى الصحراء حيث بقي هناك يجاهد حتى قتل عام 1087م (480هـ).

وبعد عودة الأمير أبي بكر إلى الصحراء غزا ابن تاشفين طنجة واستولى عليها عام 1077 وغزا سبتة وسيطر عليها كذلك، فاحكم سيطرته بذلك على معظم المغرب الأقصى وقسمه بين أبنائه وذويه، وشيوخ قومه.

## غزو المغرب الأوسط (الجزائر):

كان ابن تاشفين شديد الاهتمام بالمغرب الأوسط فكلف القائد المرابطي مزدلي التلكاني اللمتوني بالزحف على تلمسان عام 1079 (472هـ) لمحاربة أمرائها المغراويين وفي العام الموالي خرج يوسف بنفسه على رأس جيش كبير فتح به المغرب الشرقي، وساحل الريف، وسيطر على ماليلية، ووجدة، وبلاد بني يزناسن، واقتحم تلمسان، وسيطر عليها وعين عليها محمد بن تنعمر المرابطي حاكما جديدا، واختط بها محلة تاكرارت بجوار حي أقادير القديمة.

ومن تلمسان تقدم إلى وهران، وسيطر عليها وعلى تنس، وقرى ومدن جبال الونشريس وحوض الشلف، وقضى على الامارات الزناتية، والمغراوية وتقدم حتى وصل إلى احواز مدينة الجزائر ثم توقف وفضل عدم الدخول في صراع مع الدولة الحمادية ببجاية، والصنهاجية بتونس، فعاد إلى مراكش مزهوا بانتصاراته ونفوذه الواسع، وتلقب بأمير المؤمنين وناصر الدين، وعندما فتح بلاد الأندلس اقنعه فقهاؤها بمراسلة الخليفة العباسي للحصول منه على تسمية الولاية حتى تصبح طاعته واجبة فراسل الخليفة المستظهر الذي أرسل إليه مرسوم الولاية وبذلك أصبح المغرب والأندلس قطرين عباسيين. وأصبح ابن تاشفين واليا عباسيا عليهما، ورسم اسم الخليفة العباسي على العملة.

## الفتح المرابطي للأندلس:

كانت بلاد الأندلس الاسلامية قد وصلت إلى الذروة في القوة والتماسك خلال النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي (النصف الثاني من القرن الرابع الهجري) تحت ظل ملوك عظام أقوياء أمثال عبدالرحمن الناصر، والحكم المستنصر، والحاجب المنصور.

ولكنها سرعان ما فقدت هذه القوة، وذلك التماسك، وعمتها الفوضى، والاضطرابات أوائل القرن الحادي عشر الميلادي، (أوائل القرن الخامس الهجري) وفسدت أوضاعها وتدهورت بسرعة وحدثت بها حروب أهلية طاحنة أدت إلى انقسامها إلى امارات صغيره متعادية ومتحاربة فيما بينها، تسودها العصبية العرقية والقبلية. وعرف عهدها بعصر ملوك الطوائف.

وتمكنت مجموعة من قبائل الجزائر، والمغرب العربي من انشاء مجموعة من الامارات هناك مثل: امارة بني حمود التي فرضت سيطرتها على جنوب الأندلس ما بين قرطبة، واشبيلية، ومالقة، والجزيرة الخضراء. وكانت قبل ذلك تحكم مدينة سبتة ومنطقتها بالمغرب الأقصى. وتنتسب إلى الحماديين بالقلعة وبجاية.

وامارة بني حبوس الصنهاجية بغرناطة، وامارة بني يفرن في رندة، وامارة بني دمر في مدرور، وامارة بني خزرون في شذونة، وأركش، وامارة بني برزال في قرمونة وأصلهم من منطقة المسيلة بالمغرب الأوسط.

وعندما قامت دولة المرابطين بالمغرب العربي كانت بلاد الأندلس تعيش تمزقا سياسيا خطيرا عرف بعصر ملوك الطوائف، وبرزت حوالي عشرين أسرة، وامارة على انقاض الدولة الأموية الراحلة التي سقطت عام 1031م.

وكان كل رؤساء هذه الأسر، والدويلات، والامارات، اما وزراء سابقون، أو قواد عسكريون ذوو نفوذ، أو قضاة وفقهاء، أو حكام لبعض المدن والأقاليم، أو زعماء أثرياء. ظهروا كلهم خلال أزمة التمزق وعملوا على تأسيس امارات لهم، أو تدعيمها وتوسيعها، وتنافسوا فيما بينهم، وتحاربوا حتى أصبحوا مسخرة، يتندر بهم الكتاب والشعراء ذوو الاحساس المرهف.

فقال ابن رشيق القيرواني:

مما يزهدني في أرض أندلس
أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب سلطنة في غير مملكة
كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

وقال ابن العسال (عبدالله بن فرج) الأندلسي:

يا أهل أندلس حثوا مطيكم
فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه — وأرى
ثوب الجزيرة ينسل من الوسط

وقد اغتنم النصارى الاسبان هذا التمزق السياسي للمسلمين فأخذوا ينقضون على مدنهم واماراتهم واحدة تلو الأخرى، وظهر الفونسو السادس الذي يلقبه المسلمون بالأذفونش. في الشمال الغربي وفرض سيطرته على استوريا، وليون، وقشتالة، وأخذ يتدخل في شؤون الامارات الاسلامية الأندلسية لاضعافها، فيؤيد البعض ضدّ الأخرى ويفرض الأتاوات على رؤسائها ليجهز بها جيوشه. وكانت خطته التي أتبعها هي أثقال كاهل الأمراء بالغرامات السنوية وتخريب المدن والمزارع، واقتطاع ما أمكن من المناطق كلما سنحت الفرصة، وكان استلاؤه على مدينة طليطلة عاصمة الثغر الأوسط عام 1085م (478هـ) وطرده منها أسرة بني ذي النون أول

ثمار عمله وجهوده ضد المسلمين، وأول نذير لملوك الطوائف في هذه البلاد. عساهم يستيقظون ويعودون إلى رشدهم.

## الاستنجاد بالمرابطين في المغرب العربي:

ولما لم يكن لأمراء الطوائف استعداد ذاتي لمواجهة هذا الخطر النصراني الأسباني، فقد اهتدوا إلى فكرة الاستنجاد بقوة المرابطين في عدوة المغرب، وتزعم المعتمد بن عباد أمير أشبيلية هذه الفكرة، ودعا لها بجد وحث على تنفيذها، ورد على المعترضين بقوله: «لأن أرعى الجمال في صحراء المغرب خير من أن أرعى الخنازير لدى الفونسو السادس بقشتالة».

وضم الوفد الذي جاء إلى يوسف بن تاشفين لطلب النجدة كلا من قاضي قرطبة ووزير المعتمد بن عباد، أبي بكر بن زيدون، وقاضي غرناطة، وقاضي بطليوس، وتنازل له ابن عباد على ثغر الجزيرة الخضراء ليتخذه مركزا للجيوش المرابطية المنجدة، وافتى له الفقهاء باحتلاله ولو بالقوة.

فلب ابن تاشفين رغبة الوفد وانتقل إلى سبتة وجمع قوات كبيرة عبر بها المضيق في ضحى يوم الخميس 30 جوان 1086 (ربيع الأول 479هـ)، ووجد في استقباله هناك ابن المعتمد بن عباد الذي رتب له كل الأمور في الطريق إلى اشبيلية حيث استقبله المعتمد نفسه ووجوه قومه وفرسانه.

وفي اشبيلية استنفر ابن تاشفين كل ملوك الطوائف للمشاركة في حركة الجهاد ضد النصارى الاسبان. فاستجاب البعض واعتذر آخرون فسار بمن تجمع لديه إلى سهل الزلاقة SAGRAJAS بالبرتغال وخاض المعركة المشهورة، وحصل على انتصار باهر ومنى الفونسو بهزيمة ساحقة رغم كل النجدات التي جاءته من ايطاليا وجنوب فرنسا وكل أصقاع اسبانيا المسيحية.

وتعدد بعد ذلك عبور بن تاشفين إلى الأندلس ثلاث مرات أخرى لنفس المهمة وهي نجدة المسلمين وقهر النصارى الاسبان، وذلك في أعوام 1088م و 1090، و 1102م. وكانت نتيجة هذه النجدات المتعددة القضاء على ملوك وأمراء الطوائف واخضاع البلاد الأندلسية للحكم المرابطي المباشر بعد أن ثبت أن أمراء الطوائف ليسوا أهلا لمواجهة عدوهم الاسباني الشرس، الذي اتخذ الكثير منهم العوبات في يده.

وبعد أن أتم يوسف بن تاشفين هذه الأعمال الجليلة بالمغرب والبلاد الأندلسية توفي قرير العين عام 1106م (محرم 500هـ) عن عمر مائة.عام تقريبا. وخلّف وراءه إمبراطورية واسعة تمتد من مدينة الجزائر شرقا إلى أحواز طليطلة شمال الأندلس غربا، وإلى أعماق الصحراء جنوبا. ورغم ان ابنه عليا حاول أن يدير هذه الامبراطورية وينظم شؤونها ولكن من جاءوا بعده لم يكونوا في المستوى المطلوب، ولذلك تمكن الموحدون بسرعة من تصفية هذه الدولة ليحلّوا هم محلها. ويرثوا مشاكلها خاصة البلاد الأندلسية.

## خصائص العهد المرابطي وأوضاعه الحضارية:

قامت الدولة المرابطية على فكرة العقيدة الدينية التي وضعها الفقيه الحازم عبدآلله بن ياسين الجزولي، ومن أجل ذلك تمتع الفقهاء بمنزلة كبيرة، ونفوذ واسع في ميادين التشريع، والشؤون السياسية: والمجالات الفكرية، مما جعل الشاعر الجياني ابن البني يصفهم بقوله:

أهل الرياء لبستم ناموسكم
كالذيب أولج في الظلام العاتم
فملكتم الدنيا بمذهب مالك
وقسمتمو الأموال بابن القاسم
وركبتمو شهبْ الدواب بأشهب
وبأصبغ صبغت لكم في العالم

وبفضل الزهد والتقشف، وروح البداوة، اتسمت الدولة المرابطية بالصلابة في الحروب، وشدة الحماس في الجهاد الديني، وقامت بنشر تعاليم الاسلام الصحيحة في أصقاع موريطانيا، ومالي، والسنغال، وغانا، والنيجر، ومعظم مناطق غرب افريقيا. وبفضل روح الجهاد الديني عبرت جيوشها المضيق إلى عدوة الأندلس، وخاضت حروبا ومعارك تاريخية مثل: الزلاقة واقليش، وافراغه، بقيادة أبطال تاريخيين أمثال: سيرين أبي بكر، وابي محمد مزدلي، ومحمد بن الحاج، ومحمد بن فاطمة.

وكان الجيش أهم أداة الدولة المرابطية في حروبها ومركزها السياسي وهو يتألف من جيش بري وجيش بحري، ويعتبر الأمير المرابطي قائده الأعلى. وكبار ضباطه هم الذين يحكمون المدن والأقاليم الكبرى.

وتحولت الدولة المرابطية إلى دولة وراثية بعد وفاة ابن تاشفين، ومن ضمن أقاليمها الكبرى الثمانية في عدوة المغرب: اقليم تلمسان، واعتمدت في مواردها المالية على استخلاص الزكاوات. والأعشار، وبعض الضرائب الأخرى، وامتاز عهد يوسف بن تاشفين وابنه علي بالاستقرار [illegible] تفوق، والرخاء، بالمغرب والأندلس، واستفاد اقليم المغرب من الحضارة [illegible] وأنشأ المرابطون مؤسسات عمرانية هامة مثل مدينة مراكش. ومحلة [illegible] بتلمسان، ومشتى غالم (برج الأمحال) بمستغانم، والمسجد الكبير [illegible] العاصمة وجامع ندرومة، وجامع تلمسان.

وكان من المفروض ان تعيش هذه [illegible] كثيرا، ولكن عوامل كثيرة اعترضتها وعجلت بسقوطها، أهمها: الحملة [illegible] والمسعورة، التي قادها ضدها الفقيه السوسي محمد بن تومرت الزعيم الروحي للموحدين الذي تمكن بفضل شجاعة تلميذه وقائده عبدالمؤمن بن علي من إسقاطها بسرعة ليقيم على انقاضها الدولة الموحدية الكبيرة. وأشهر سلاطين الدولة المرابطية:

يوسف بن تاشفين 465هـ 1073م.

علي بن يوسف 500هـ ـــ 1107م.

تاشفين بن علي 537هـ ـــ 1142م.

# عهد الدولة الموحدية بالمغرب والأندلس
# 515 ـ 668هـ ـ 1121 ـ 1269م

## نشأة محمد بن تومرت ودعوته:

تعتبر حركة محمد بن تومرت الثالثة من نوعها باقليم المغرب العربي بعد حركتي الفاطميين، والمرابطين. وهي حركة مغربية صرفة، مستقلة استندت على أسس دينية واضحة قبل ان تتحول إلى حركة سياسية مثل الحركة المرابطية وقامت على شعار: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتزعمها المهدي محمد بن تومرت في السوس الأقصى بالمغرب الأقصى واعتمد على قبيلة هرغة، وعلى بطون مصمودة الأخرى، ضد قبائل صنهاجة التي ينتسب إليها المرابطون وهذا ما جعلها حركة دينية وقومية معا.

وينتسب محمد بن تومرت إلى قبيلة هرغة احدى بطون مصمودة الكبيرة ويدعى قومه باسم «ايسرغينن»، وولد في قرية «إيجلي إن وارغن» جنوب السوس الأقصى أواخر القرنين 11م (الخامس الهجري)، وانكب على التعلم منذ صغره، ثم رحل إلى الأندلس حوالي عام 1106م (501هـ) لنفس الغرض، وقضى هناك عدة سنوات بقرطبة وغيرها. وبعد ذلك اتجه إلى المشرق بحرا من ميناء الميرية. ومر بالمهدية عاصمة الدولة الصنهاجية الشرقية وقضى بها بعض الوقت، وحضر بعض دروس الفقيه الامام المازري، ثم واصل رحلته إلى الأسكندرية وأقام بها بعض الوقت وحضر دروس الامام أبي بكر الطرطوشي وبعد ذلك ذهب إلى الحجاز وأدى فريضة الحج، ثم تحول إلى بغداد، حيث انكب على دراسة

الفقه والأصول، والحديث، على أجلّة علماء بغداد أمثال أبي بكر الشاشي، وعلي المبارك بن عبدالجبار. وتأثر بنظريات الامام الغزالي في علم الكلام، والأصول والحديث.

وفي عام 1117م (511هـ) عاد ابن تومرت من المشرق واستقر بالمهدية بعض الوقت، وتصدى للتدريس ومقاومة البدع والمنكرات، ثم اتجه إلى مدينة قسنطينة فبجاية، حيث جاهر باستنكاره الشديد لمظاهر اختلاط النساء بالرجال أيام الأعياد والمواسم وتزين الشبان مثل الشابات، وتخنثهم.

فحقد عليه بعض الناس، واستعدوا ضده الأمير العزيز بن المنصور بن حماد الصنهاجي، فغادر بجاية إلى بلدة ملالة على بعد حوالي سبعة كيلومتر والتقى هناك بالشاب عبدالمؤمن بن علي الكومي الذي كان في طريقه إلى المشرق، واستماله إليه وصده عن الذهاب إلى المشرق، وصحبه معه إلى جبال الونشريس اين انضم اليهما أبو محمد البشير الهرغي واتجهوا جميعا إلى تلمسان، فذاع صيت ابن تومرت، وانتشرت دعوته بين الناس، فحقد عليه قاضيها ابن صاحب الصلاة، وضايقه فغادرها هو ورفيقاه إلى فاس، ومكناس، ومراكش عام 1120ك (514هـ).

وفي مدينة مراكش عكف ابن تومرت على مطاردة المنكرات التي تجري بها كشرب الخمور، وتربية الخنازير، وتضاهر النساء في الشوارع، والتقى بالأمير المرابطي على بن يوسف في المسجد الجامع مع كبار الفقهاء. وعلى رأسهم مالك بن وهيب فناظروه وحاجوه وأفحمهم جميعا بالحجة والبرهان، وطلب من الأمير علي أن يأمر بتغيير المناكر التي تجري بالمدينة، وأوضح لوزيره عمر بن ينتان بأنه لا يريد سوى تغيير المنكر، وليس له أي هدف آخر أو مرمى وراء دعوته هذه.

وعندما عزم علي بن يوسف أن يذهب إلى قرطبة للقضاء على الفتنة التي اندلعت بها، استدعي إليه ابن تومرت واستفسره عن حقيقة أهدافه

فقال له: تغيير المنكر، ورفع المغارم، وألاّ تولي أحدا من قبيلتك، وأن تتركوا اللثام لأنه من شأن النساء ولا تجوز به الصلاة.

**خلع طاعة المرابطين ومبايعة ابن تومرت مهديا وإماما:**

وقد اشتم الأمير علي صلابة موقفه وخطورته فأمر بطرده من مراكش عام 1121 (515هـ) فاتجه مع رفاقه إلى اغمات وأخذ يجهر بالعداء للمرابطين ورماهم بالتجسيم والكفر، وأعلن بطلان بيعة أميرهم علي بن يوسف، وخلع طاعته عن عنقه وعنق أصحابه فطرده حاكم أغمات، فاتجه إلى بلاد السوس والتحق بجبال مصمودة، واستقر بقرية ايجلز مسقط رأسه وموطن قومه وعشيرته المرغيين. فهرع إليه الناس من كل صوب وتجندوا في صفوفه وأمرهم ببناء المساجد للوعظ والارشاد وطلب منهم أن يقاتلوا ويحاربوا المرابطين المجسمين. وعكف هو على تدريس العلم وشرح نظرية المهدي المنتظر، والامام المعصوم. وكلف عددا من رفاقه بابلاغها إلى رؤساء القبائل تمهيدا لاعلانها عندما يحين الأوان.

وعندما أدرك أن دعوته قد انتشرت وتأصلت في كثير من القبائل قرر ابرازها بصورة رسمية وعلنية وأعلن في خطبة مشهورة له في ديسمبر 1121م (15 رمضان 515هـ) انه المهدي المنتظر، فبايعه في الحين عشرةمن رفاقه تحت شجرة من الخروب على أنه المهدي المنتظر وهم: عبدالمؤمن بن علي، وأبو محمد البشير الونشريسي، وعبدالله بن ملويات، وأبو حفص عمر الهنتاتي، وأبو حفص عمر بن علي أزناج، وسليمان بن مخلوف، وابراهيم بن اسماعيل، وأبو محمد عبدالواحد، وأبو عمران موسى، وأبو يحي أبو بكر.

وبعد ذلك توالى مبايعة الناس له فصنفهم إلى طبقات بلغت أربعة عشر طبقة على رأسهم العشرة الأوائل الذين نعتهم بالمهاجرين. وأطلق على أصحابه لقب الموحدين تعريضا بالمرابطين الذين كان يرميهم بالتجسيم. ومن أهم أرائه الدينية أن الشريعة لا تثبت بالعقل والاجتهاد، وانما بالاعتماد على نصوص القرآن والسنة. وان عقيدة التوحيد تشمل الخضوع للموحدين كذلك.

ومن أهم آرائه السياسية، انتحاله لشعار الامام المعصوم والمهدي المنتظر حتى يؤيد شرعية امامته هو مع ارتباطه بالدعوة الشيعية التي تخص آل البيت.

## حملة ابن تومرت على المرابطين:

شدد ابن تومرت حملته ضد المرابطين الذين اعتبرهم من ألد خصومه في العقيدة والسياسة. وخصهم بعدة أوصاف سيئة قبل وبعد مجيئهم إلى السلطة. فقبل وصولهم إلى السلطة كانوا: حفاة، عراة، عالة، رعاة الشاة، البهم، جهلاء.

وبعد وصولهم إلى السلطة: جاؤوا في آخر الزمان، ملوك، تطاولوا في البنيان، يلدون مع الأماء، ويستكثرون من الجواري، صم، بكم عن الحق، ليسوا أهلا للامانة في القيام بأمر الله.

ومما ظهر في أحوالهم حدثهم السيئة في [illegible] أذناب البقر، يعذبون الناس ويضربونهم بها، ويرون من نسائهم [illegible] (البخت) كاسيات عاريات، مائلات عن الحق [illegible]، ويغدون في سخط، ويرحن في لعنة.

ادعى ابن تومرت ان المرابطين مجسمون [illegible]، يضع رجالهم اللثام على وجوههم. بدلا من [illegible] المادية التي تناقض فكرة التوحيد، وبذلك فهم مجسمون [illegible] أصحابه لقتالهم وعدم طاعتهم لأنهم أحدثوا مناكر منافية [illegible] وحرموا على المسلمين، واستحلوا أموالهم ودماءهم. وكان [illegible] في كل المناكر المنتشرة في أرض المغرب.

وكان أول صدام بينه وبين المرابطين في شهر أوت 1123م (شعبان 516هـ) حيث انتصر على حاكم السوس الأقصى، وانتزع منه كل أسلاته

فضل شجاعة عبدالمؤمن ومحمد البشير. وعندما حاول المرابطون تجديد الكرّة هُزموا كذلك وضيعوا ما عندهم من أمتعة وأسلحة ثم تعرضوا لهزيمة الثة كانت بمثابة نكبة عليهم، وأدرك الأمير المرابطي علي بن يوسف بأن حركة ابن تومرت ليست تمردا بسيطا، وأن زعيمها ليس ثائرا عاديا. ولابد من تسخير امكانيات ضخمة لمواجهته.

وفعلا فان ابن تومرت بعد هذه الانتصارات الأولية آنس في نفسه القوة ووجه رسالته المشهورة إلى المرابطين دعاهم فيها إلى الدخول تحت طاعته وتوعدهم بالويل فيما إذا رفضوا ذلك.

وقد خاض المهدي ورفاقه حوالي تسعة معارك ضد المرابطين وأنصارهم، وأخضع بلاد مصمودة إليه، وجبال درن، وتارودانت، وبلاد السوس، الأقصى فيما بين 1122 و 1124م.

وبعد أن أقام في إيجلز ثلاثة أعوام، غادرها هو ورفاقه إلى تينملل في سفح جبل درن، على بعد 100 كلم جنوب غرب مراكش. وتمركز بها وحصنها، واتخذها قاعدة له وتجنب في البداية منازلة المرابطين في السهول الجنوبية حتى لا يتعرض أصحابه للخطر.

وابتداء من عام 1126 (520هـ) تخلى المهدي عن أسلوب الدفاع وتحول إلى أسلوب الهجوم بعد أن كثر أنصاره، وآنس من جيشه القوة والقدرة على ذلك. فألف عددا من الجيوش والكتائب، وسلحها، ووجهها لغزو اللمتونيين في مواطنهم، وتعرضت مراكش نفسها لخطر الحصار مما اضطر الأمير المرابطي إلى إقامة حواجز حولها.

## معركة البحيرة وموت المهدي:

بعد ان حققت قوات ابن تومرت انتصارات عديدة في جهات كثيرة صمم على غزو مراكش، وألف جيشا كبيرا زحف به على المدينة عام

بفضل شجاعة عبدالمؤمن ومحمد البشير. وعندما حاول المرابطون تجديد الكرة هزموا كذلك وضيعوا ما عندهم من أمتعة وأسلحة ثم تعرضوا لهزيمة ثالثة كانت بمثابة نكبة عليهم، وأدرك الأمير المرابطي علي بن يوسف بأن حركة ابن تومرت ليست تمردا بسيطا، وأن زعيمها ليس ثائرا عاديا. ولابد من تسخير امكانيات ضخمة لمواجهته.

وفعلا فان ابن تومرت بعد هذه الانتصارات الأولية آنس في نفسه القوة ووجه رسالته المشهورة إلى المرابطين دعاهم فيها إلى الدخول تحت طاعته وتوعدهم بالويل فيما إذا رفضوا ذلك.

وقد خاض المهدي ورفاقه حوالي تسعة معارك ضد المرابطين وأنصارهم، وأخضع بلاد مصمودة إليه، وجبال درن، وتارودانت، وبلاد السوس الأقصى فيما بين 1122 و 1124م.

وبعد أن أقام في إيجلز ثلاثة أعوام، غادرها هو ورفاقه إلى تينملل في سفح جبل درن، على بعد 100 كلم جنوب غرب مراكش. وتمركز بها وحصنها، واتخذها قاعدة له وتجنب في البداية منازلة المرابطين في السهول الجنوبية حتى لا يتعرض أصحابه للخطر.

وابتداء من عام 1126 (520هـ) تخلى المهدي عن أسلوب الدفاع وتحول إلى أسلوب الهجوم بعد أن كثر أنصاره، وآنس من جيشه القوة والقدرة على ذلك. فألف عددا من الجيوش والكتائب، وسلحها، ووجهها لغزو اللمتونيين في مواطنهم، وتعرضت مراكش نفسها لخطر الحصار مما اضطر الأمير المرابطي إلى إقامة حواجز حولها.

## معركة البحيرة وموت المهدي:

بعد ان حققت قوات ابن تومرت انتصارات عديدة في جهات كثيرة صمم على غزو مراكش، وألف جيشا كبيرا زحف به على المدينة عام

1130 (524هـ) وفرض عليها الحصار أربعين يوما، ثم تعرض لهزيمة ساحقة في المعركة التي دعيت بمعركة البحيرة. قتل خلالها قائده أبو محمد البشير، وأربعة آخرون من رفاقه العشرة وجرح هو جروحا بليغة، ولم يلبث بعدها حتى توفي. ولم ينج الآ عبدالمؤمن الذي سيكون باني هذه الدولة الكبيرة.

## خلافة عبدالمؤمن وقيام الدولة الموحدية:

على اثر وفاة المهدي بن تومرت عام 1130 (24 رمضان 524هـ) بايع الموحدون تلميذه ورفيقه الأول عبدالمؤمن بن علي بيعة سرية لمدة ثلاث سنوات ثم بايعوه علانية عام 1133م، وذلك لمكانته لدى المهدي وهو من مواليد قرية تاجرة قرب مرسى هنين شمال تلمسان عام 1095م (أواخر عام 487هـ). وكان أبوه يصنع الفخار. وقضى بعد مبايعته ما يقرب من عام ونصف في تنظيم شؤون الموحدين، وتجنيد الرجال للجهاد والحرب ثم تأهب لمحاربة المرابطين وإرغامهم على الخضوع. وكانت تادلة بوادي درعة أول مكان استهدفه في مطلع عام 1132 جيش قوامه ثلاثون ألف رجل، وتمكن من فتح عدة جهات وسيطر على عدد من المدن والقرى، والحصون، مثل درعة وتارودانت عام 1134م.

وفي عام 1138 التقى عبدالمؤمن بجيش المرابطين وهزمه وفتح بني ملول، وفي عام 1140 اكتسح بلاد [illegible] وسيطر على معظم قراها ومدنها وأرغم المرابطين على الانسحاب منها.

وفي عام 1140 نفسه فكر عبدالمؤمن في اكتساح المرابطين والاجهاز عليهم فحشد جيوشا كبيرة وعزم على غزو شمال المغرب، فعبرت جيوشه جبال الأطلس الكبير واكتسحت مراكز المرابطين في أزرو، وسجلماسة ومنابع ملوية، وصفرو، وغياثه، وتازة وتاعزوت، وباديس، والحسيمة، وتمسمان، ومليلة، في وسط المغرب وشرقه وشماله.

## السيطرة على المغرب الأوسط (الجزائر):

ومن مليلية اتجهت جيوش الموحدين إلى ندرومة وبلاد كومية موطن عبدالمؤمن ثم إلى تاجرة، ومن هناك زحفوا على المغرب الأوسط في ثلاث اتجاهات نحو وهران، وبني وانوان وجبل مديونة، فأعلن أهالي منطقة تلمسان خضوعهم وولاءهم لهم. وترك عبدالمؤمن قوات عسكرية لحصار تلمسان واتجه هو إلى مديونة وبن يلومي.

وقد تعرض المرابطون لهزائم كثيرة خلال هذه المعارك، وتأثرت قواتهم العسكرية عندما قتل قائدهم المسيحي الاسباني روبرتو الذي كان يقود جنود النصارى المعاهدين في الجيش المرابطي. وذلك عام 1144م، وعندما عجز تاشفين بن علي المرابطي عن مواجهة الموحدين في منطقة تلمسان اتجه إلى وهران وطلب من أسطوله بالأندلس ان يوافيه في مطلع عام 1145م. ولكن عبدالمؤمن أسرع إلى وهران واشتبك معه وانتهت المعارك بمقتله بعد أن سقط من على فرسه وهو يحاول الفرار. واقتحم الموحدون مدينة وهران واستحوذوا عليها وعلى تلمسان في نفس الفترة.

## القضاء على الدولة المرابطية بالمغرب:

بعد أن انتهى عبدالمؤمن من تنظيم شؤون وهران، وتلمسان، زحف على فاس وحاصرها تسعة أشهر ثم فتحها في شهر أبريل 1146م وهدم أسوارها. ومن فاس توجه إلى مكناس، وتادلة، وأزمور، ومنها إلى مراكش عاصمة المرابطين وفرض عليها حصارا عدة شهور من جوان 1146 إلى مارس 1147 ثم افتتحها وأباحها للجنود ثلاثة أيام. وقتل الأمير المرابطي ابراهيم، ووضع حدا نهائيا لدولة المرابطين بالمغرب. وجاءته مبايعة أهالي اشبيلية له بالأندلس. وقد استغرقت جهوده الحربية هذه حوالي سبع سنوات ختمها بعملية الاعتراف أو تطهير القبائل من المعارضين للموحدين. وهي عملية قاسية ذهب ضحيتها عدد كبير من الأبرياء.

## فتح بجاية وباقي المغرب الأوسط وتونس:

بعد ان انتهى عبدالمؤمن من فرض سيطرته على كل المغرب الأقصى، اهتم بأمر المغرب الأوسط خاصة امارة بجاية الحمادية فاستنفر الناس من كل جهة وجمعهم في سلا ورباط الفتح الذي اختطه أمامنها.

وفي عام 1151 غادر سلا إلى المعمورة ثم إلى سبتة ومن هناك اتجه إلى مكناس، وفاس، وتلمسان، والجزائر، وبجاية، التي فرض عليها الحصار، واقتحمها في شهر جانفي 1153م بعد أن فر منها أميرها يحي ابن العزيز الحمادي إلى عنابة فقسنطينة، ولكن قوات الموحدين سيطرت على قسنطينة وخربت مدينة القلعة. وحمل الأمراء الحماديون إلى مراكش.

وكانت تونس في هذه الفترة تعيش في فوضى واضطرابات داخلية وخارجية وأكثر النورمان من الغارات على موانيها الساحلية، واحتلوا جربة عام 1135م وطرابلس عام 1146، وأعلن حاكم قابس خضوعه لهم عام 1147م واحتل النورمان مهدية عام 1148 دون صعوبة ونهبوها وقضوا على الدولة الصنهاجية الزيرية. واحتلوا مدينة تونس بعد ذلك، فاستنجد السكان بعبد المؤمن بعد أن حرروا جربة وطرابلس، وصفاقس، وقابس وافتك الموحدون عنابة منهم. ولم يبق بيدهم الا سوسة والمهدية فاستنجد سكانها بعبد المؤمن فلب الرغبة وألف جيشا كبيرا بريا وبحريا وغادر مدينة الرباط في مطلع عام 1159م واخترق بلاد المغرب الأوسط ووصل إلى مدينة تونس وحررها ثم اتجه إلى المهدية وفرض عليها الحصار حوالي ستة شهور إلى أن استسلم النورمان في جانفي 1160 (محرم 555هـ) فحرر المدينة منهم، وأعادها للحكم الاسلامي ووفد عليه هناك زعماء مختلف المدن التونسية والليبية يعلنون له البيعة والطاعة، والولاء، ومنها طرابلس، وصفاقس وقفصة.

وقد نظم عبدالمؤمن أحوال تونس وعيّن عليها حاكما موحديا، ثم قفل راجعا إلى المغرب الأقصى، ليستعد للعبور إلى الأندلس في نوفمبر 1160 (ذو القعدة 555هـ) ذلك العبور الذي سيكون له أبلغ الأثر في مستقبل الأندلس والدولة الموحدية نفسها.

## ثورات البلاد الأندلسية ضد الحكم المرابطي وسيطرة الموحدين عليها:

في الوقت الذي كان فيه عبدالمؤمن يكتسح بلاد المغرب العربي لتصفية الحكم المرابطي، والحمادي، والنورماني، كانت مدن الأندلس وقواعدها الكبرى تعج بالثورات ضد الحكم المرابطي، بزعامة القضاة، والفقهاء والشخصيات الرفيعة. من الطبقة المستنيرة التي كانت تنشد الحرية والاستقلال وكان من ضمن أسباب هذه الثورات:

- سقوط دولة المرابطين بالمغرب، وقيام دولة الموحدين.
- عجز المرابطين بالأندلس عن حماية البلاد من عدوان الاسبان.
- تأجج فكرة الاستقلال للأمة الأندلسية ضد سلطة المرابطين.

وكانت ثورة قرطبة عام 1121، بمثابة بداية وتمهيد لهذه الثورات التي كشفت عن عجز سلطة المرابطين وتخلخلها. ومن خصائص هذه الثورات أن معظم زعمائها كانوا من فئة الفقهاء الذين كانت لهم مكانة خاصة بالأندلس خلال العهد المرابطي، فتشبعوا بالفكرة القومية واستخفوا واستهزؤا بسلطة أسيادهم الأفارقة الذين كانوا ينعتونهم بالبرابرة رغم أنهم جاؤوا لانقاذهم.

وهكذا اندلعت الثورة في منطقة شلب بزعامة ابن قسي، جنوب البرتغال بغرب الأندلس، وعرفت بحركة المريدين. وفي قرطبة بزعامة القاضي ابن حمديش. وفي غرناطة بزعامة القاضي أبي الحسن ابن أضحى. وفي مالقة بزعامة القاضي أبي الحكم بن حسون. وفي جيان بزعامة القاضي يوسف بن عبدالرحمن. وحصل نفس الشيء في مدن رندة، وشريس، وقادس، وبطليوس.

وبرز في شرق الأندلس الثائر ابن مردنيش، وسيطر على مدن: مرسية، وبلنسية وغيرهما غير أنه سرعان ما تحول إلى عميل للنصارى الاسبان وقاوم بعناد سلطة الموحدين طوال عشرين عاما.

ومثلما حصل في عهد المرابطين الأوائل، فان الشعب الأندلسي شعر بخطر الاسبان، وأخذ يستنجد بعبد المؤمن الموحدي حتى بلغ عدد الوفود التي قدمت إليه لطلب النجدة خمسمائة وفد.

وقبل أن يعبر عبدالمؤمن المضيق إلى الأندلس سبقته إليها دعوة الموحدين ونفوذهم. فقد أعلن عيسى بن ميمون قائد الأسطول المرابطي ولاءه للموحدين منذ عام 1145، ودعا لهم على منابر قادس وأحوازها، وذهب جيش موحدي إلى الأندلس عام 1146 لنجدة ابن قسي زعيم ثورة المريدين في شلب، وتلاه جيش ثان وثالث إلى غرب الأندلس لمحاربة بقايا المرابطين بها، في شريس، ولبلة، وباجة، وبطليوس.

وفي الأندلس الوسطى كان يحي بن غانية المرابطي يعاني من ضغط الفونسو السابع القشتالي فاضطر إلى التسليم للموحدين وتمكينهم من السيطرة على قرطبة، وقرمونة وجيان، وبياسة. واستعادة الكثير من الحصون والقلع الاسلامية التي وقعت بيد الاسبان مثل ميناء مدينة المرية.

وفي عام 1156 سيطر الموحدون على غرناطة فانقرض بذلك الحكم المرابطي بالأندلس ما عدا جزر البليار التي احتفظت بها بنو غانية لعدة سنوات أخرى.

**عبدالمؤمن يعبر المضيق إلى الأندلس:**

كانت حركة ابن مردنيش بشرق الأندلس ضد الحكم الموحدي، من الحوافز الكبرى التي اغتنمها عبدالمؤمن ليذهب بنفسه إلى الأندلس نجدة لشعبها وتلبية لنداءات ابنه أبي يعقوب يوسف حاكم اشبيلية الذي شيد مدينة الفتح بجبل طارق خصيصا لقوات أبيه.

وفي شهر جانفي 1161 (ذو القعدة 555هـ) عبر عبدالمؤمن مضيق طارق من سبتة، ونزل بمدينة الفتح على رأس قوات ضخمة، ووجد في استقباله ابنه، ووجهاء، معظم مدن الأندلس الاسلامية. فاستقبلهم جميعا وتعرف منهم على أوضاع البلاد وانتهى إلى وضع التنظيمات التالي:

1 ـ إنشاء جيش عسكري موحدي أندلسي من 18 ألف رجل يكون أداة لفرض النظام ومواجهة النصارى الاسبان.

2 ـ تثبيت ابنه أبي يعقوب يوسف على ولاية اشبيلية، وانتداب عدد من أشياخ الموحدين لمساعدته في مهمته.

3 ـ تعيين ولده الآخر أبي سعيد واليا على غرناطة.

4 ـ تعيين الشيخ أبي حفص عمر اينيتي الهنتاتي واليا على قرطبة.

وبعد ذلك عاد عبدالمؤمن إلى مراكش في نفس العام ودخل الموحدون في صراع مرير مع الثائرين ابن همشك، وابن مرذنيش، وقرر عبدالمؤمن عام 1162 نقل عاصمة الأندلس من اشبيلية إلى غرناطة وتزويدها بوسائل الدفاع الكافية كقاعدة للدفاع على جنوب الأندلس.

## وفاة عبدالمؤمن:

وفي شهر فيفري 1163 (558هـ) قاد عبدالمؤمن جيشا ضخما من مراكش إلى رباط الفتح، على أمل العبور إلى الأندلس لتنفيذ مشروع ضخم للجهاد. وقسم جيشه الذي أعده إلى أربعة أقسام:

ـ قسم يتجه إلى البرتغال لمحاربة ابن الرنك (الفونسوهنريكير) صاحب قلمرية.

ـ وقسم يتجه إلى مملكة ليون لمحاربة فرناندو الثاني.

ـ وقسم يتجه إلى قشتالة لمحاربة ألفونسو الثامن.

ـ وقسم يتجه إلى أراقون وبرشلونة لمحاربة ألفونسو الثاني.

ولكنه قبل أن ينفذ مشروعه الضخم هذا مرض في سلا وتوفي يوم 15 ماي 1163م (جمادي الثانية 558هـ)، وكتم أصحابه وفاته حتى تمت مبايعة إبنه أبي يعقوب يوسف، ونقلت جثته إلى تيملل ودفن إلى جوار قبر المهدي إبن تومرت كما أوصي بذلك قبل وفاته، وخلف وراءه أمبراطورية واسعة تمتد من طرابلس الغرب شرقا إلى وسط الأندلس غربا، ومن البحر شمالا إلى أعماق الصحراء جنوبا وتمتعت هذه الدولة الواسعة بازدهار حضاري واسع: فكري، وعمراني، وسياسي، وعسكري، وعمرت قرنا وأثنين وخمسين عاما. ويعتبر منشؤها وواضع أسسها عبدالمؤمن معجزة الجزائر وابنها البار، وأحد أبطالها التاريخيين بلا منازع.

## صفات وخصال عبدالمؤمن

لم يكن عبدالمؤمن [illegible] رجلا عاديا، وإنما هو من عظماء الرجال على المستوى الأقصى [illegible]

فهو رجل علم وثقافة [illegible] في العلوم والمعارف العربية الإسلامية حتى أصبح [illegible] تومرت، ونقل إليه كتاب [illegible] النظريات السياسية، والدينية [illegible] بإمامه المعصوم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

اهتم عبدالمؤمن [illegible] الأدب العربية والفقه والتوحيد والتاريخ [illegible] علما كبيرا في مستوى أستاذه وشيخه. وتعرض حتى [illegible] بعض المؤرخين ولولا المشاغل السياسية والعسكرية [illegible] صدر شبابه، لخلف لنا تراثا فكريا هائلا.

وهو رجل عسكري عظيم وصل إلى مستوى المنصور بن أبي عامر في الأندلس، وصلاح الدين الأيوبي في المشرق، وخاض عشرات المعارك

طوال 42 عاما وتمكن من فرض سيطرته على كل بلدان المغرب العربي والأندلس من طرابلس الغرب شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، ومن أعماق الصحراء جنوبا إلى قلب الأندلس شمالا. وألف جيشا عسكريا ضخما بريا وبحريا، وأستحدث خططا عسكرية مهمة وناجحة من ضمنها خطة المربع الموحدي.

وهو رجل إقتصادي على مستوى رفيع أمر بمسح جغرافي لبلاد المغرب من طرابلس الغرب وبرقة إلى السوس الأقصى مع إلغاء الأودية والجبال والطرقات، لتقرير الضرائب المطلوبة على الناس لخزينة بيت المال زيادة على أموال الزكاة، والأعشار، وذلك بعد أن توسعت دولته وكثرت أعداد جيشه وتنوعت مصالح الدولة التي تتطلب نفقات كثيرة.

وهو رجل إدارة قوي أحكم إدارة دولته الواسعة، وقسمها إلى ثمانية أقاليم وولايات وفرض الطاعة والنظام، وأرهب أعداءه، ووضع حدا لمكرهم وخداعهم، ومؤامراتهم، واعتداءاتهم.

إن الجزائر لتفخر بهذا الرجل، وتنحني إجلالا له، ولأعماله وجهوده في سبيل الإسلام، والدولة الإسلامية، ومجد المسلمين جميعا.

ولم يقدر لهذه الدولة أن تعمر طويلا للأسباب التالية:

1 ــ اعتمادها على العصبية القبلية مثل المرابطين.

2 ــ إنغماس خلفائها الأواخر الضعاف في الحروب الأهلية والصراعات الداخلية حول السلطة والعرش.

3 ــ إلغاء عقيدة المهدي بن تومرت التي كانت بمثابة اللحام للموحدين فتفرق شملهم وضعف أمرهم، وقل من يدافع عنهم.

4 ــ تفكك عري وحدة هذه الدولة في إفريقيا عندما أنفصل عنها بنو حفص بتونس، وبنو عبدالواد بتلمسان، وبنو وطاس بالمغرب الأقصى.

5 ـ تكالب النصارى الاسبان ضد قواعدها بالأندلس، وانقضاضهم على جيوشها هناك، في حركة إسترداد واسعة.

وفيما يلي أسماء أمراء الموحدين الذين تداولوا الحكم:

محمد بن عبدآلله بن تومرت 515هـ ـ 1121م.

عبدالمؤمن بن علي 524هـ ـ 1130م.

يوسف بن عبدالمؤمن 558هـ ـ 1163م.

يعقوب المنصور بن يوسف 580هـ ـ 1184م.

محمد الناصر بن يعقوب 595هـ ـ 1199م.

يوسف المنتصر بن محمد 610هـ ـ 1213م.

عبدالواحد 620هـ ـ 1224م.

عبدآلله العادل بن المنصور 621هـ ـ 1224م.

يحي المعتصم بن الناصر 624هـ ـ 1227م.

ادريس المأمون بن المنصور 627هـ ـ 1230م.

عبدالواحد الرشيد بن ادريس 630هـ ـ 1232م.

علي السعيد بن عبدالواحد 640هـ ـ 1242م.

عمر المرتضي بن اسحاق 646هـ ـ 1248م.

ادريس الواثق 665هـ ـ 1266م.

# عهد الإمارات الحفصية

# 627 ـ 981هـ ـ 1229 ـ 1273م

الحفصيون ينتمون إلى قبيلة هنتاتة إحدى فروع مصموده؛ ومؤسس إمارة الحفصية هو أبو حفص عمر بن يحي الهنتاتي أحد رجال ابن تومرت العشرة الذين اختير هو منهم لرئاسة هذه الإمارة، مثلما اختير قبله عبدالمؤمن لرئاسة الدولة الموحدية. ولقد ظهرت هذه الإمارة في الوقت الذي أخذ نجم الموحدين في الأفول، فاستقلت بتونس، كما استقل بنو زيان بتلمسان، وبنو مرين بالمغرب الأقصى.

وكانت في أول الأمر تابعة للموحدين الذين عينوا أسرتها على حكم اقليم تونس منذ عام 1205م. ثم أعلن أبو زكريا يحي الأول الانفصال واستبد بأعمال تونس والقيروان منذ عام 627هـ (1229م) ولم يقنع بنفوذه على المغرب الأدنى فزحف على ولايتي قسنطينة وبجاية عام 628هـ (1230م) واستولى عليهما بدون صعوبة. وتقدم نحو ولاية الجزائر وبسط نفوذه عليها وعلى نواحي الشلف عام 636هـ (1238م). وبهذا الشكل استسلمت له تلمسان أيضاً عام 640هـ (1242م). وفر منها حاكمها الزياني ياغمراسن، ومن بعد أبي زكريا سيطر الحفصيون على أمارة مليانة عام 659هـ (1261م) وبذلك ساد نفوذ الحفصيين على معظم المغربين الأوسط والأدنى، وعلا شأنهم وجاءتهم البيعة من كل جهة داخل إفريقيا وفي بعض أقاليم الأندلس مثل إمارة إشبيلية، ومن مكة نفسها بالأراضي المقدسة، عام 657هـ. حتى أمراء بني مرين بمراكش بايعوها لمدة قليلة ثم نقضوها.

ولقد كان لاتساع نفوذ الحفصيين داخل افريقيا وخارجها أثر كبير في فتح الطريق لربط العلاقات الطيبة بينهم وبين عدد من دول وممالك أوروبا مثل صقلية والأمبراطورية الألمانية، وقدموا للمسلمين بالأندلس مساعدات كثيرة في مختلف المناسبات. ولعل سعة هذا النفوذ كانت من بين الأسباب التي دفعت الأمير الحفصي، أبا زكريا يحي الأول أن يخلع على نفسه لقب أمير المؤمنين، ويجعل ذلك سنة لباقي الأمراء الحفصيين من بعده. ولم تهتم الإمارة الحفصية بوضع النظم الادارية أو تكوين قوات عسكرية منظمة، وانما كانت تسير على النظم السابقة خاصة ما وضعه الموحدون، وبفضل حزم بعض أمرائها قام الحفصيون بمقاومة الحملة الصليبية الثامنة التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا الذي انهزم في معركة المنصورة بمصر فحاول أن يغسل عارها في ميدان آخر ولم يجد أصلح من تونس ولكنه في هذه المرة كلفه الأفارقة في تونس حياته كلها، ولعبت قوات الجزائر دورها الحاسم في معركة كبيرة على أرض قرطاجنة انتهت بموت لويس نفسه وانهزام قواته الصليبية وتشتيتها وذلك عام 669هـ (1270م). وليس هذا فقط بل ان قوات الجزائر في هذا العهد قامت بدور كبير في مقاومة القراصنة الأوروبيين الذين ما فتئوا يهاجمون السواحل الجزائرية وموانيها. ولعبت بجاية وبذل أهلها جهوداً خاصة في بعث حركة المقاومة بما أنشأوه من أساطيل ضخمة سخروها لرد العدوان الأوروبي واقتحام مراكز القراصنة في موانيء أوروبا نفسها كأسبانيا والبندقية وجنوة وصقلية. ولم يخل عهد الامارة الحفصية من بعض النشاط في الميدان الحضاري فازدهرت حركة التجارة الداخلية والخارجية مع أوروبا وبلاد مصر والسودان، وتطورت حركة العمران والصناعة اليدوية، ونهضت الحياة الفكرية والفنية والثقافية. ولعل ما يشرف عهد هذه الأمارة هو أن الفيلسوف والمؤرخ الافريقي الكبير عبدالرحمن بن خلدون قد ألف مقدمته التاريخيةالكبيرة وأتمها في قلعة بني سلامة قرب مدينة فرندة بجنوب ولاية وهران وذلك عام 776هـ (1374م). مما يدل على رقي الحياة الفكرية والنهضة العلمية والثقافية آنذاك بالجزائر وباقي أجزاء المغرب.

## نهاية الامارات الحفصية:

على أن الامارة الحفصية رغم كل هذا كانت تحتفظ في جسمها بعوامل الضعف والانهيار خاصة مظاهر التبعية السياسية التي سارت عليها أحياناً لبني مرين بمراكش وأخرى لبني زيان بتلمسان. وكان لهذا أثره السيء في نفشي الاضطرابات والأخطار تبعاً للأحداث التي تجري في تلك الامارات المجاورة. وليس هذا فقط بل ان وحدة هذه الامارة تفككت نحكم بعض أمرائها بتونس واستبد بعضهم بقسنطينة والآخرون ببجاية. وتمكن الاسبان من احتلال المرسى الكبير بوهران عام 910هـ (1504م)، ثم مدن: تلمسان ومستغانم، ودّللس، وبجاية، وأخيراً قلعة ميناء عاصمة الجزائر التي هدموها وشيدوا في مكانها حصن البنيون عام 916هـ (1510م).

وكان لكل هذه الأحداث مفعولها السيء في نفس الأمير الحفصي «الحسن ابن محمد» الذي كان يقيم بقسنطينة، فخرج منها واتجه إلى قلعة بني عباس شمالي غربي مدينة برج بوعريريج وبقي بها إلى أن جاء الأتراك إلى الجزائر فتحالف مع الاسبان ضدهم دون جدوى. واقتفى أثره حاكم عنابة أحمد بن الحسن الحفصي فتنازل للاسبان عن المدينة وأبقوه عليها تحت نفوذهم إلى أن بايعه أهالي تونس بالإمارة بعد وفاة أبيه عام 943هـ (1536م). فرحل إلى هناك وانتهى عهد الحفصيين حينئذ بالمغرب الأوسط. أما بتونس فقد استمر نفوذهم إلى عام 981هـ (1573م). حيث غزا الأتراك هذه البلاد وأسروا آخر ملوكهم محمد ابن الحسن ونقلوه إلى القسطنطينية وبذلك انتهى عهد الحفصيين تماماً بشمالي إفريقيا بعد ثلاثة قرون ونصف (354 عاماً) تقريباً.

وفيما يلي أمراء الدولة الحفصية في المغربين الأوسط والأدنى:

أبو زكريا يحي الأول 627هـ ــ 1229م.

أبو عبدالله محمد الأول المنتصر 647هـ ــ 1249م.

أبو زكريا يحي الثاني الواثق 675هـ ــ 1277م.
أبو اسحاق ابراهيم الأول 678هـ ــ 1279م.
أحمد بن مرزوق بن أبي عمارة (الدّعى) 681هـ ــ 1282م.
أبو حفص عمر الأول المستنصر 683هـ ــ 1284م.
أبو زكريا يحي المنتخب 683هـ ــ 1284م.
أبو عبدآلله أبو عصيدة محمد الثاني المنتصر 694هـ ــ 1295م.
أبو البقاء خالد الأول الناصر (ببجاية) 699هـ ــ 1200م.
أبو بكر الأول «ببجاية» 709هـ ــ 1309م.
أبو البقاء الأول الناصر 709هـ ــ 1309م.
أبو بكر الثاني المتوكل (بقسنطينة وبجاية) 711هـ ــ 1311م.
أبو يحي زكريا اللحياني 717هـ ــ 1317م.
أبو ضربة محمد الثالث المستنصر 1717هـ ــ 1317م.
أبو يحي أبو بكر الثاني المتوكل 718هـ ــ 1318م.
أبو حفص عمر الثاني 747هـ ــ 1346م.
أبو العباس أحمد الأول الفضل (بقسنطينة 749هـ ــ 1348م.

وبجاية):

أبو زيد عبدالرحمن (بقسنطينة) 749هـ ــ 1348م.
أبو عبدآلله محمد المنصور (ببجاية) 749هـ ــ 1348م.
أبو العباس أحمد الأول المتوكل 750هـ ــ 1349م.
أبو اسحاق إبراهيم الثاني المستنصر 751هـ 1350م.
أبو عبدآلله محمد المنصور (ببجاية) 761هـ ــ 1360م.
أبو البقاء خالد الثاني 770هـ ــ 1368م.
أبو العباس أحمد الثاني المستنصر 772هـ ــ 1370م.
أبو فارس عبدالعزيز (عزوز) المتوكل 796هـ ــ 1393م.

أبو عبدالله محمد الرابع المنتصر 838هـ ـ 1434م.
أبو عمرو عثمان 839هـ ـ 1435م.
أبو زكريا يحي الثالث 893هـ ـ 1488م.
أبو عبدالله محمد الخامس المتوكل 899هـ ـ 1493م.
أبو عبدالله محمد الحسن 932هـ ـ 1525م.
أبو العباس أحمد الثالث 943هـ ـ 1536م.
محمد السادس ابن الحسن 977هـ ـ 1569م.

# عهد إمارة بني مرين

# 668 ـ 796هـ = 1269 ـ 1393م

بنو مرين يعودون بأصلهم إلى قبيلة زناتة وكانوا يسكنون المنطقة الجنوبية من تلمسان، وينتشرون في صحراء فيقيق والأغواط، ومن فروعهم بنو عبدالحق، وبنو وطاس، وقد وقف بنو مرين إلى جانب الموحدين في بداية الأمر وحكموا بإسمهم ثم لما ضعف أمر الإمارة الموحدية انقضوا عليها، وأثاروا عدة فتن وحروب وشنوا عددًا من الغارات على أطرافها، واقتحموا تلال مراكش عام 610هـ ـ (1213م) وانتشر نفوذهم بفضل الأمير أبي يحي بن عبدالحق الذي احتل مدينتي فاس ومكناس واتخذهما مركزاً لنشاطهم حتى تمكن أميرهم أبو يوسف بن عبدالحق من احتلال مراكش عام 668هـ (1269م)، فانتهى بذلك عهد الموحدين، وبرزت إمارة بني مرين، وتلقب الأمير يوسف بأمير المؤمنين.

وكانت ولاية تلمسان في هذا الوقت تخضع لأسرة بني عبدالحق الزناتية، فاتجهت نية بني مرين لإخضاعهم، وشنوا حملات كبيرة على تلمسان وحصلت وقائع مهولة بين بني يحي المريني ويغمراسن الزياني في فترات مختلفة، ورغم انهزام ياغمراسن في بداية الأمر سنة 647هـ (1250م). إلا أن بني عبدالواد استماتوا في الدفاع حتى أرغموا الأمير المريني أبا يوسف على طلب الصلح والموادعة على أثر معركة وادي ايسلي عام 670هـ (1272م). ودامت المفاوضات قرابة ثلاث سنوات وأنتهت بتوقيع صلح لم يدم طويلاً لأن الأمير المريني اقتحم تافيلالت (سجلماسة) في نفس السنة وقتل بها جماعة من بني عبدالواد منهم حاكم المدينة نفسه فأثار ذلك ثائرة ياغمراسن ودفعه إلى نقض الصلح السابق ومواجهة المرينيين في معركة

قرب تلمسان عام 680هـ (1281م). ألحق بهم هزيمة كبيرة، كبيرة، لم يكفوا على مهاجمة تلمسان من أجل السيطرة عليها. ولما أعيتهم ولكنهم اتجهوا إلى التوسع في جهات أخرى فاستولوا على مدن ندرومة الحيلة ووهران، ومزغران، ومازونة، ومستغانم، وتنس، والونشريس، والمدية، ومليانة، وشرشال، وخضع لهم حاكم مدينة الجزائر، وأعلن البيعة لهم، وبذلك خضع المغرب الأوسط لبني مرين ما عدا تلمسان فاهتبلوا فرصة هذه الانتصارات وقطعوا مضيق جبل طارق إلى الأندلس، وسيطروا على بعض الأقاليم، فأثاروا غيظ وحسد ملوك بني الأحمر بغرناطة الذين شعروا بالخطر، فسعوا إلى أيجاد حليف بإفريقيا ووجدوه في ياغمراسن الزياني أمير تلمسان وعدو بني مرين. ولم يفلح المرينيون بمراكش في قطع خط الرجعة على بني الأحمر عندما حاولوا تحقيق الصلح مع أمير تلمسان من بني عبدالواد. وهكذا تلاحمت قواتهما في وادي تافنة وانكسر بنو عبدالواد نحاولوا أن يستميلوا إليهم صاحب بجاية أبا زكريا الحفصي الذي تمرد على الحفصيين بتونس. فأجاب رغبتهم ووجه إليهم نجدة قضى عليها بنو مرين بجبال الزاب قبل أن تصل.

وهنا طرأ عامل جديد هو تحالف الحفصيين بتونس مع بني مرين ضد بني عبدالواد بتلمسان، لأن الإمارة الحفصية بتونس غضبت من تحالفهم مع صاحب بجاية المتمرد عليها. وكان هذا التحالف بمثابة إطباق الكماشة على إمارة بني عبدالواد بتلمسان. فأخذت الأساطيل المرينية تغير على شواطىء المغرب الأوسط في نفس الوقت الذي زحفت فيه الجيوش البرية، بعضها من تونس والبعض الآخر من مراكش، كلها في اتجاه تلمسان، فبسط الحفصيون سلطتهم مرة أخرى على شرق المغرب الأوسط، واقتحم أبو الحسن المريني وجدة، وندرومة وضيق على تلمسان الخناق واشتبك مع بني عبدالواد في عدة معارك، وأخيراً اقتحم المدينة في رمضان عام 737هـ ـ (1337م). واستولى عليها وطرد حكومة بني عبدالواد. ولم يقنع بهذا فواصل زحفه إلى الناحية الشرقية واستولى على وهران وسيطر على مدينة

الجزائر وطرد منها الأسرة الثعالبية، وتقدم إلى بجاية وقسنطينة وافتكهما من الأمراء الحفصيين وأخيراً دخل تونس عام 748هـ (1347م). وبذلك تم لبني مرين السيطرة على أقاليم شمالي إفريقيا. ورغم كل هذا فإن الحالة لم تستقر لهم تماماً بسبب كثرة الثورات والانتفاضات خاصة من طرف بني عبدالواد، فعاشت البلاد فترات إرهاب، وتقتيل وتخريب، وعاش الناس معها أوقاتاً عصيبة جداً. وتعقدت الأمور بسبب تدخل الحفصيين طرفاً ثالثاً في النزاع، وتنافست الإمارات الثلاث على السيطرة والنفوذ، واستمر الوضع هكذا حتى تولى أبو الحسن بن ابراهيم بن الحسن أمر المرينيين فسلم شرق المغرب الأوسط للحفصيين عام 761هـ (1360م). وانفصل عنه أبو زيان بن أبي حمو الثاني واستقل بولاية تلمسان، فتقلصت حينئذ الإمارة المرينية بالمغرب الأقصى، وضعف شأنها وساءت حالتها خاصة في عهد عبدالحق بن أبي سعيد عثمان الذي اشتدت في عهده غارات البرتغاليين والقشتاليين على سواحل إفريقيا الشمالية، وتسلط عليه في القصر بعض اليهود واستحوذوا على منصب الوزارة واستأثروا بشؤون الإمارة فأثار ذلك حفيظة الناس عليه وتظاهروا ضده وقتلوه، وقتلوا كثيراً من أتباعه خاصة اليهود، فتحرج أمر بني مرين من بعده وكثرت خلافاتهم الداخلية وحاولت كل من غرناطة وتلمسان أن تتدخلا لتأييد دا أو ذاك، وطمع بنو وطاس الذين كانوا وزراء لبني مرين في الاستئثار بالحكم، وهم فرع منهم، فبلغوا مرادهم وأسسوا مملكة خاصة بهم في شمال مراكش واتخذوا فاس عاصمة لهم. أما بنو مرين فقد استطاعوا أن يستعيدوا سلطتهم على جنوب مراكش وأسسوا فيه مملكة لهم حكموها من مراكش واستعانوا بالبرتغاليين ضد خصومهم بني وطاس. وبقي الأمر هكذا حتى ظهر الأشراف السعديون وزحف أميرهم أبو عبدآلله محمد الشيخ القائم بأمر آلله على مدينة فاس واستولى عليها عام 961هـ (1554م)، وأنهى حكم الوطاسيين والمرينيين وأنقذ البلاد من خطر الاسبان والبرتغاليين. وكان لكثرة الاضطرابات في عهد بني مرين الأثر السيء في ضعف الحياة الحضرية وعدم تطورها. ولوحظ

نمط استمرار النشاط الثقافي التقليدي، وفلاحة الأرض وزراعتها. ومن آثار بني مرين بالمغرب الأوسط مسجد سيدي الحلوي، ومسجد ومدرسة أبي مدين الغوث بتلمسان، ومدينة المنصورة بجوارها، وبرج المرسى بوهران، ومسجد مستغانم، وقصبة مدينة المدية. وعلى نفس المنوال انتشرت بعض الصناعات الأهلية بالبلاد خاصة النسيج والحياكة، كما ازدهرت الحركة التجارية في الداخل.

وبصفة عامة فانه يمكن القول ان الامارة المرينية سارت على النظم الموروثة عن الامارات السابقة، ولم يحصل في عهدها أي تطور جديد لكثرة الاضطرابات التي عمت عهدها.

# المراحل والأدوار التاريخية
# لدولة بني عبدالواد الزيانية
# 1236 ــ 1554م

## أ ــ نشأة مدينة تلمسان وتطورها التاريخي:

ان لمدينة تلمسان ماضيا تاريخيا هاما اكتسبته من موقعها الجغرافي الممتاز، ومن كونها كانت عاصمة للمغرب الأوسط (الجزائر) أكثر من ثلاثة قرون، إزدهر خلالها الفكر، وأخصبت الحضارة، وتطور العمران، واستهوت العديد من رجالات الفكر والسياسة والثقافة، مما جعلها في الأخير مدينة الفن والثقافة والتاريخ.

ويتألف اسمها من كلمتين بربريتين هما: «تلم» ومعنها تجمع، و «سان» ومعناها اثنان، ومعناهما معا: «تجمع اثنين»، وهما البر والبحر، بمعنى انها تجمع بين طبيعة البر والبحر، لوقوعها في مكان ملائم لذلك. فهي تقع في سفح جبل طرارة، وتشرف على ساحل بحري يجثم تحت أقدامها وغير بعيد عنها حيث ميناء الغزوات الشهير.

ونواة هذه المدينة القديمة قرية «أقادير» التي اختطها بنو يفرن الزناتيون في عصور قديمة. وكانت هي والمناطق المجاورة، منطقة التوطن لقبيلة زناتة الكبيرة ذات الفروع المتعددة، وثاني القبائل القوية بالمغرب العربي بعد صنهاجة، وتليها كتامة.

ونظرا لأهمية أقادير هذه، وجمال موقعها، نسج السكان حولها أساطير كثيرة يحكونها عبر التاريخ من ضمنها الأسطورة التي تدعى بأن القرية أزلية

الوجود، وأن الجدار الذي ورد ذكره في القرآن حول قصة الخضر مع موسى عليهما السلام، في قوله تعالى: ﴿وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة﴾، يوجد بقرب هذه القرية أقادير. وقد أورد ابن خلدون هذه الأسطورة واستبعدها باستهجان مؤكدا أن موسى لم يغادر المشرق إلى المغرب وأن بني اسرائيل لم يصل نفوذهم إلى إفريقيا (تونس)، فضلا إلى ما وراءها من الأقاليم البعيدة. وانما ذلك، كما ذكر ابن خلدون، من قبيل التشيع الذي جبل عليه الناس في تفضيل وتقديس أوطانهم وبلدانهم.

وكما تعتبر هذه الأسطورة خيالية، فكذلك لا يصدق القول بأن مؤسسي أقادير هم الرومان لأنها أقدم منهم بكثير. والمؤسسون الحقيقيون لها هم بنو يفرن الزناتيون. وقد تحدث عنها ابن الرقيق في تاريخه مرتين: مرة عند الحديث عن حملة أبي المهاجر دينار الذي ذكر عنه بأنه توغل في ديار المغرب حتى وصل إلى تلمسان وحفر بالقرب منها عيونا أصبحت تدعى بإسمه: عيون أبي المهاجر. ومرة أخرى عندما تحدث عن نشاط ابراهيم بن الأغلب والي الزاب ضد الخوارج، وقال عنه بأنه وصل إلى تلمسان ونزل بها.

وهي نفس الحادثة التي تحدث عنها الطبري عندما استعرض أحداث أبي قرة اليفريني الخارجي زعيم بني يفرن مع أبي حاتم والخوارج. وأبو قرة هذا خارجي المذهب تزعم قومه الذين بايعوه بالخلافة في منتصف القرن الثاني الهجري (148هـ ــ 765م)، وشارك في حصار مدينة طبنة بجبال الحضنة على رأس حوالي أربعين ألفا من الصفرية ضد الوالي عمر بن حفص بن أبي صفرة، ثم تتبعه إلى القيروان، وحسب رواية ابن خلدون فانه حاصرها بجيش يتألف من 350 ألف رجل بينهم 85 ألف فارس. وبعد هذه الحوادث عاد أبو قرة إلى أقادير واستقر بها صحبة قومه الذين كانوا أشد بأسا وقوة من المغيليين، وأقل حماسا للمذهب الخارجي باعتبارهم صفرية معتدلين. ويمتد موطن بني يفرن ما بين أقادير وتاهرت، كما ذكر ابن خلدون.

وعندما استقر ادريس الأكبر بالمغرب الأقصى اتجه إلى اقليم تلمسان، واستمال إليه الأمير محمد بن خزر بن صولات الزناتي، الذي حمل مغراوة وبني يفرن على طاعة إدريس، ومكنه من السيطرة على أقادير، فأقام بها أشهرا واختط مسجدا ومنبرا. وبعد رحيله استخلف على أقادير واقليمها أخاه سليمان بن عبدآلله الذي قدم من المشرق.

وفي خلال ولاية إدريس الثاني الأصغر، زار أقادير عام (179 ـ 795م) وأقام بها ثلاث سنوات، أخضع خلالها قبائل زناتة، وأصلح مسجد القرية، ومنبرها، وبعد رحيله استخلف عليها ابن عمه محمد بن سليمان.

وبعد وفاة إدريس الثاني قسمت مملكته بين ابنائه وبني عمه بوصية من أمه كنزة، وكانت مدينة أقادير من نصيب عيسى بن ادريس بن محمد بن سليمان، بينما كانت ضواحيها وأحوازها من نصيب محمد بن سليمان الادريسي.

وعندما انقرضت دولة الادارسة بالمغرب الأقصى ظهر موسى بن أبي العافية الشيعي، وغزا أقادير عام 219هـ (834م) وتغلب على أميرها الحسن الادريسي الذي اضطر إلى الفرار إلى مليلية وتحصن بها مدة. وقاوم ابن أبي العافية وأمراء الشيعة، أعقاب الادارسة في أقادير ومنطقتها، فمالوا إلى الأمويين وشايعوهم، وتغلب يعلى بن محمد بن صالح اليفرني، على بلاد زناتة والمغرب الأوسط. وعقد له الخليفة الأموي عبدالرحمن الناصر فاغتنم هذه الفرصة ووسع نفوذه حتى شمل وهران وتاهرت وأصبح يمتد بين تاهرت وطانجة حوالي عام 340هـ (854م).

ولم يزل سلطان يعلى وبنوه يقوى ويتوسع حتى قامت الدولة الفاطمية، فغزت أقادير والمغرب، وقضت عليهم وقتل جوهر الصقلي، يعلى فورا، ولكن الأبناء استطاعوا أن يبعثوا امارة أجدادهم من جديد بفاس، ثم بسلا بالمغرب الأقصى. وقد تحارب أمير أقادير محمد بن الخير بن محمد

بن خزر، داعية المستنصر، مدة طويلة مع أمراء صنهاجة ورثاء الفاطميين الذين انتقلوا إلى مصر، إلى أن قتل. فدخلت أقادير تحت حكم الصنهاجيين مدة من الزمن، إلى أن ظهر زيري بن عطية الصنهاجي بالمغرب الأقصى، فاستبد بها على إثر انقسام دولة صنهاجة. وغزاها المنصور بن بلكين بن زيري، وأولى عليها ابنه يعلى بن زيري من آل خزر اليفرنيين. وعاشت أقادير عهدا من الاضطرابات نتيجة لهذه الحروب بين الحماديين الصنهاجيين وأمراء المدينة اليفرينيين.

وقد مدت الدولة المرابطية سلطتها إلى أقادير واقليمها، وعين الأمير يوسف بن تاشفين على أقادير محمد بن تينعمر المسوفي، ثم أخاه تاشفين من بعده، وواجهت أقادير خلال عهدهما حروبا واضطرابات بين أمرائها، وأمراء قلعة بني حماد، خاصة المنصور بن الناصر الحمادي مما أدى إلى انقراض امارة مغراوة من أقادير.

وخلال حكم محمد بن تينعمر المسوفي على أقادير، أسس قرية «تاكرارت» بالمكان الذي عسكر فيه، ومعناها: المحلة، أو المعسكر، وكانت في بداية الأمر هذه «المحلة» مفصولة بسور عن أقادير، ثم بعد مدة من الزمن أزيل هذا السور، وضمت تاكرارت إلى أقادير، وتكونت منهما مدينة واحدة هي مدينة تلمسان الحالية.

بقيت تلمسان تحت حكم المرابطين حتى قامت دولة الموحدين على انقاضها، وقام عبدالمؤمن بن علي بغزو مدينة تلمسان عام 540هـ (1145م) بعد أن سيطر على وهران، وقضى على الأمير المرابطي بها تاشفين بن علي، وقد أحدث عبدالمؤمن بتلمسان تخريبا في عمرانها، وتقتيلا في سكانها الذين رفضوا في البداية الخضوع له وتسليم المدينة إليه. وبعد مدة شعر عبدالمؤمن بالجرم الذي ارتكبه نحوها فعمل على استصلاح ما خربه، واستجلب البنائين من الأماكن البعيدة فأحيوا ما اندثر منها وتخرب من

العمران، ورمموا أسوارها، ثم عين عبدالمؤمن عليها سليمان بن وانودين من مشايخ هنتاته وأخايير الموحدين. ومن بعده أبنه أبا حفص ومن جاء في عقبه.

وشهدت تلمسان خلال عهد الموحدين تطورا هائلا في الحضارة والعمران، وبرز فيها من الزناتيين بنو عبدالواد، وبنو توجين، وبنو راشد الذين تغلبوا على ضواحيها والمغرب الأوسط، وملكوها، وتقلبوا في بسائطها واحتازوا بأقطاع الدولة، كما قال ابن خلدون، الكثير من أرضها والطيب من بلادها، والوافر للجباية من قبائلها. فإذا خرجوا إلى مشاتيهم بالصحراء خلفوا أتباعهم وحاشيتهم بالتلول لاعتمار أرضهم وازدراع قوتهم وجباية الخراج من رعاياهم. وكان بنو عبدالواد من ذلك فيها بين البطحاء وملوية ساحله، وريفة وصحراوة. وصرف ولاة الموحدين السادة نظرهم واهتماماتهم بشأنها إلى تحصينها وتشييد أسوارها، وحشد الناس إلى عمرانها والتناغي في عمرانها واتخاذ الصروح والقصور بها والاحتفال في مقاصد الملك واتساع خطة الدور.

وقد شيد بها الأمير أبو عمران موسى بن يوسف تاشفين عندما تولى امارتها عام 556هـ (1261م). عددا من الأبنية، ووسع عمرانها وأحاط أسوارها بسياج متين، وعلى غراره فعل أبو الحسن بن أبي حفص بن عبدالمؤمن خاصة بعد أن ظهر الثائر الميورقي يحيى بن غانية عام 581هـ (1185م) واكتسح المغرب الأوسط ابتداء من بجاية، وهدد عدة مرات تلمسان وأحدث بها تخريبات كثيرة، هو ومن معه من عرب بني هلال.

ومن أجل ذلك اهتم أبو الحسن بتحصينها حتى أصبحت كما قال ابن خلدون من أعز معاقل المغرب، وأحصن أمصاره، وأصبح الناس يفدون عليها من كل جهة للاحتماء بها والتمتع بالتطور التاريخي والحضاري الذي تنعم به خاصة بعد أن خرب ابن غانية مدينة تاهرت الداخلية، ومدينة ارشكول الساحلية، فأصبحت هي قبلة الجميع، ومهد ذلك لبني عبدالواد ليتخذوها عاصمة لهم ودار ملك منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي.

وقد وصفها ابن خلدون خلال عهدهم فقال: «فاختطوا (بنو زيان) بها القصور المونقة والمنازل الجميلة، واغترسوا الرياض والبساتين، وأجروا خلالها المياه، فأصبحت أعظم أمصار المغرب، ورحل إليها الناس من القاصية، ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع فنشأ بها العلماء، واشتهر بها الاعلام، وظاهت أمصار الدول الاسلامية والقواعد الخلافية.

وقال عنها البكري: هي مدينة المغرب الأوسط، ودار ملك زناتة، ومتوسطة قبائل البربر، ومقصد تجار الآفاق، بها أسواق ومساجد جامع، وأشجار وأنهار، وكان الأول قد جلبوا إليها ماء من عيون تسمى اللوريط بينها وبين المدينة ستة أميال، ولها خمسة أبواب: في القبلة باب الحمام، وباب وهب، وباب الخوخة. وفي الشرق باب العقبة، وفي المغرب باب أبي قرة، وفيها للأول آثار قديمة وأكثر ما يوجد الركاز بتلك الآثار.

أما محمد العبدري فقد وصفها في رحلته قائلا: «تلمسان مدينة كبيرة سهلية جبلية، جميلة المنظر، مقسومة باثنين بينهما سور، ولها جامع عجيب مليح متسع، وبها أسواق قائمة، وأهلها ذوو ليانة. والدائر بالبلد كله مغروس بالكرم، وأنواع الثمار، وسوره من أوثق الأسوار وأصحها. وبها حمامات نظيفة أشهرها حمام العالية قل ان يرى له نظير وبالجملة هي ذات منظر ومخبر، وأنظار متسعة، ومبانيها مرتفعة.

وهكذا ذكر لها أيضا يحي بن خلدون خمسة أبواب هي: قبلة: باب الجياد، وشرقا باب العقبة، وشمالا باب الحلوي، وباب القرمدين، وغربا باب كشوط. وهي مؤلفة من مدينتين ضمهما سور واحد احداهما أقادير والأخرى تاكرارت، وهي الآن أكبر وأشهر من الأولى. والجامع الأعظم وقصور الملك، ونفيس العقار بها والناس إليها أميل وبها أشد عناية.

وبالغ أبو الفداء فذكر لها ثلاثة عشر بابا، وأطنب لسان الدين بن الخطيب في وصفها قائلا: «تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف،

ووضعت في موضع شريف كأنها ملك على رأسه تاجه، وحواليه من الدوحات حشمه، وأعلاجه، عبادها يدها، وكهفها كفها، وزينتها زيانها، وعينها أعيانها، هواها المقصور بها فريد، وهواؤها الممدود صحيح عتيد. وماؤها برود صريد حجبتها أيدي القدرة عن الجنوب، فلا نحول بها ولا شحوب، خزانة زرع ومرج ضرع، فواكهها عديدة الأنواع، ومتاجرها فريدة الانتفاع، وبرانسها رقاق رقاع.....».

ومن شعر شاعرها التلمساني الفحل، محمد بن خميس قوله:

تلمسان لو أن الزمان بها يسخو ... منى النفس لا دار السلام ولا الكرخ

### ب ــ آثار مدينة تلمسان التاريخية:

تزخر مدينة تلمسان بآثار تاريخية هائلة ما تزال حتى اليوم تحكي عن عظمة هذه المدينة الفكرية والحضارية والعمرانية. ومن أهمها:

ــ قلعة المشور التي قاومت صروف الدهر قرونا، وتتوسط المدينة كالطود الشامخ، أنشأها الموحدون بعد سيطرتهم على المدينة في القرن الثاني عشر الميلادي، وبداخلها دور للسكنى ومسجد جامع جميل.

ــ والمسجد الأعظم الذي أمر ببنائه الأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين، وشيد منارته فيما بعد الأمير [illegible] مؤسس الدولة الزيانية في القرن الثالث عشر الميلادي.

ــ ومسجد أبي الحسن بن يخلف التنسي الذي كان يدرس بتلمسان أيام أبي سعيد سنة 1279م. وهو اليوم متحف للفن الاسلامي للمدينة والمنطقة.

ــ ومسجد سيدي الحلوي أبي عبدالله الشوذي قاضي اشبيلية سابقا، الذي لقب بالحلوي عندما استقر بتلمسان. وقد شيد هذا المسجد أبو عنان فارس المريني عام 754هـ (1353م).

_ ومسجد ومدرسة الشيخ شعيب أبي مدين الغوث بحي العباد الأثري الذي تبدو منارته من بعيد لكل زائر لمدينة تلمسان، وقد شيدت المدرسة عام 1374م، وتمثل هي والمسجد طرازا جميلا للعمران العربي الاسلامي بالمدينة.

## خرائب مدينة المنصورة:

على أن أهم أثار تلمسان التاريخية بروزا، هي خرائب مدينة المنصورة التي أسسها السلطان المريني يوسف بن يعقوب كمعسكر لقواته التي فرضت الحصار على مدينة تلمسان أكثر من ثماني سنوات. وقصة المنصورة هذه ذات شبه كبير بقصة حصار طراودة الاغريقية الشهير الذي دام عشر سنوات، وهذا ما يستلزم الوقوف عندها قليلا، والتعرض لكيفية انشائها.

لقد كان السلطان المريني السابق شديد الطمع في السيطرة على تلمسان واقليمها، وذلك بسبب الخصومة التي كانت بين العرش المريني، والعرش الزياني، ولكي يحقق يوسف المريني أطماعه أبرم صلحا مع بعض ملوك النصارى بالأندلس، ومع أمراء بني الأحمر بغرناطة، وتنازل لهم عن بعض الثغور الأندلسية التي كان يسيطر عليها هناك. ثم التفت إلى منازلة تلمسان الزيانية، وشن عليها وعلى الأقليم كله، أربع غارات وحروب في سنوات: 689هـ (1290م) و 695هـ (1296م) و 696هـ (1297م) و 697هـ (1296م)، أحدث بها تخريبا في العمران، والمزارع، واتلافا في المحصولات، والحيوانات، ولكنه لم يستطع ان يتوصل إلى بغيته في احتلال تلمسان، لأن عثمان بن ياغمراسن كان في كل مرة يبذل الجهد والنفيس مع السكان، في مواجهة هذا الغزو المريني. ولم يفد المرينيين احتلالهم لندرومة، وتعاون بعض السكان معهم كالمطغريين، وبني سلامة.

ونتيجة لصمود تلمسان وتصديها للمقاومةوالاستبسال، فكر يوسف بن يعقوب المريني في فرض حصار طويل عليها حتى ترضخ وتستسلم،

ولكي يسهل هذا الحصار، ويأتي بنتيجة فكر في انشاء معسكر كبير لقواته تستقر به خلال الحصار وتجد كل ما تحتاجه من المؤن، ولا تضطر للعودة إلى المغرب، وفي شعبان عام 698هـ (1299م) أرسل السلطان المريني يوسف جيشا جرارا ضد تلمسان، عسكر بالقرب منها وشدد عليها الحصار، وشرع في نفس الوقت في بناء مدينة سماها «المنصورة» تيمنا بتحقيق الانتصار، ولكن لم يحقق ذلك، وأصبح اسم «المقهورة» أولى وأجدر بها كما سنرى.

ومما ذكره ابن خلدون عن هذه المدينة [illegible] متفحص [illegible] يوسف ابن يعقوب تمكنه من حصارها [illegible] مقصودة منيعة عليه، ورحل اليها التجار بالبضائع من الآفاق، واستبحرت في العمران، بما لم تبلغه مدينة، وخطب الملوك سلمه ووده، ووفدت عليه رسل الموحدين وهداياهم من تونس وبجاية [illegible] واعتز اعتزازا لا كفاء له كما يأتي في أخباره».

ولقد دام حصار المرينيين لتلمسان من المنصورة ثماني سنين، وثلاثة أشهر، وصمدت كالطود، وأصبحت حق [illegible] الجزائر التي لا تقهر على عكس طروادة الأغريق التي قهرت بعد عشر سنوات من الحصار. ان طروادة تلمسان قاومت الغزو ثماني سنين [illegible] منتصرة مظفرة.

ولنفتح المجال لابن خلدون ليحدثنا عما عاناه سكان تلمسان خلال هذا الحصار الطويل، فقد قال: «واستمر حصارهم (بنو مرين) أياهم (بني عبدالواد) إلى ثمانية سنين وثلاثة أشهر من يوم نزوله، نالهم فيها من الجهد ما لم تنله أمة من الأمم، واضطروا إلى أكل الجيف والقطط والفئران، حتى انهم زعموا أنهم أكلوا فيها أشلاء الموتى من الناس، وخربوا السقف للوقود، وغلت أسعار الأقوات والحبوب وسائر المرافق بما تجاوز حدود العوائد وعجز وجدهم عنه. فكان ثمن مكيال القمح الذي يسمونه البر

ثمالة، ويتبايعون به، مقداره اثنا عشر رطلا ونصف مثقالين ونصف الذهب العين. وثمن الشخص الواحد من البقر ستين مثقالا، ومن الضأن سبعة مثاقيل ونصفا، وأثمان اللحم من الجيف الرطل من لحم البغال والحمير بثمن المثقال، ومن الخيل بعشرة دراهم صغار من سكتهم عشر المثقال، والرطل من الجلد البقري ميتة أو مذكى بثلاثين درهما، والهر الداجن بمثقال ونصف، والكلب بمثله، والفأر بعشرة دراهم والحية بمثله والدجاجة بثلاثين درهما، والبيض واحدة بستة دراهم، والعصافير كذلك، والأوقية من الزيت باثني عشر درهما، ومن السمن بمثلها، ومن الشحم بعشرين، ومن الفول بمثلها، ومن الملح بعشرة، ومن الحطب كذلك. والأصل الواحد من الكرنب بثلاثة أثمان المثقال، ومن الخس بعشرين درهما ومن اللفت بخمسة عشر درهما والواحدة من القثاء والفقوس بأربعين درهما، والخيار بثلاثة أثمان الدينار، والبطيخ بثلاثين درهما، والواحدة من التين والإجاص بدرهمين، واستهلك الناس أموالهم وموجوداتهم، [illegible] وهلك الجند من حامية الأعراس وقبيلهم، [illegible] على الإلقاء باليد والخروج [illegible] وبعض على عقبهم فهلك [illegible] حصى من العبيد [illegible] في كسر بيته ومخدع نومه وضعه بخنجر قطع [illegible] فمزقوه أشلاء ولم يبق شيء من بقايا [illegible] آل زيان وقومهم وساكني مدينتهم كأنما [illegible] ها في سكتهم: (ما أقرب فرج الله) [illegible]

هذه هي قصة انشاء مدينة منصورة التي لم يبق منها إلا الخرائب، ولكن مدينة تلمسان تقف شامخة بأمجادها وعصاميتها، وبطولات أجيالها، وأصالة حضارتها الفنية والفكرية والتاريخية.

## ج ـ المراحل والأدوار التاريخية للدولة الزيانية:

عمرت الدولة الزيانية أكثر من ثلاثة قرون (1236 ـ 1554م)، ولكن حياتها كلها كانت صراعا مستميتا، وطويلا، ضد عدة قوى متصارعة متطاحنة عليها، تتمثل في الأمور التالية:

1 ـ صراع الأمراء فيما بينهم على العرش والسلطة.

2 ـ تدخل الدولة المرينية من المغرب الأقصى والدولة الحفصية من الشرق بتونس في شؤون الدولة الزيانية الداخلية في محاولة للسيطرة عليها وازالتها من الوجود.

3 ـ تدخل الاسبان تبعا لذلك، ولنفس الهدف، بعد أن ضعف شأن هذه الامارات الثلاثة جميعا بالمغرب العربي كله.

4 ـ تدخل الاتراك في النهاية، انقاذا لوجودهم بالجزائر، ولقطع خط الرجعة على الاسبان، وتصفية وجودهم بسواحل المغرب العربي. وهم الذين وضعوا نهاية لدولة بني عبدالواد، ولاطماع الاسبان في السيطرة على الجزائر والشمال الافريقي الغربي كما وضعوا نهاية أيضا لدولة بني حفص بتونس.

وكانت هذه الدولة في بداية عهدها يطلق عليها اسم: «دولة بني عبدالواد»، ثم لما تولى أمرها السلطان أبو حمو موسى الأخير عام 1359، وأحياها بعد اندثارها، أطلق عليها اسم «الدولة الزيانية». وتاريخ هذه الدولة شائك ومشحون بالحوادث والاضطرابات، ولكن يمكن تحديده في ستة أدوار رئيسية حسبما نوضحه فيما يلي:

## أولا دور النشأة والتبعية للحفصيين:

### أصل بني عبدالواد:

ان بني عبدالواد فرع من فروع الطبقة الثانية من قبيلة زناتة الكبيرة، استقروا منذ أزمنة طويلة بالمنطقة الغربية للجزائر، وتمتد مواطنهم من تاهرت

بنهر ملوية. وهم من ولد باديس بن محمد إخوة بني توجين، ومصاب، ويزردال، وبني راشد، ويرتبط المرينيون معهم بالمصاهرة. وهناك من حاول أن ينسب الزيانيين بالأدارسة العلويين وينمي نسبهم الحسني، ولكن ذلك زعما لا مستند له كما ذكر ابن خلدون. وحتى ياغمراسن نفسه عندما أبلغ له هذا الأمر، لم يستسغه وكان جوابه: «ان كان هذا صحيحا فينفعنا عند الله، وأما الدنيا فانما نلناها بسيوفنا». ومنذ القدم كان لبني عبدالواد مشاكل وصراعات مع القبائل الأخرى مثل بني مرين، ولذلك متنوا صلاتهم ببني يلومي، وبني ومانو، بوادي مينه وحوض غليزان.

وينقسم بنو عبدالواد إلى عدة بطون ذكر منها ابن خلدون ستة هي: بنو ياتكين، وبنو أولو، وبنو ورهطف، ومصوجة، وبنو تومرت، وبنو القاسم، والفرع الأخير هو الذي كانت إليه الزعامة خلال عهد الموحدين، وهو الذي حاول البعض أن يرفع نسبه إلى الأدارسة العلويين، ويتألف من عدة بطون مثل: بني يكمثين، وعبدالحق بن معشاد، وبني مطهر، وبني علي

وقد أخلص هذا الفرع الطاعة للموحدين عندما قامت دولتهم، فأقطعوهم بلاد بني وامانو، وحصلت بينهم مشاكل وحروب دامية أدت إلى فرار بعض الفروع إلى تونس على عهد أبي زكرياء الحفصي، وفي عام 1230م (627هـ)، برز جابر بن يوسف بن محمد، شيخ عشيرة عبدالواد، في حين بدأ نجم الدولة الموحدية ينهار، وأخذ الثائر الميورقي يحيى بن غانية يطرق أبواب حواضر المغرب الكبرى بعد أن سيطر على طرابلس وقابس، وأحدث فيها تدميرا وتخريبا من أجل احياء دولة المرابطين المنقرضة، كما تسبب حركته في تشويش الرأي العام بربوع المغرب العربي كله. واستهوته مدينة تلمسان وقيمتها فزحف عليها بجموعه، ولكن جابر بن يوسف تصدى له بجموعه، وانتصر عليه وشتت شمله، فأعجب به الخليفة الموحدي، المأمون وكتب له البيعة على تلمسان وسائر قبائل زناتة تكريما له. فاضطلع بالأمر، وكان ذلك بداية لقيام دولة بني عبدالواد التي تسلم قيادتها بعده الأمير الشاب ياغمراسن.

## ظهور ياغمراسن وقيام دولة بني عبدالواد:

في عام 1236م عهد الخليفة الموحدي الرشيد، بولاية العهد على تلمسان واقليمها، إلى الأمير الشاب ياغمراسن، فكان ذلك، كما قال ابن خلدون، سلما إلى الملك الذي أورثه إلى بنيه سائر الأيام. وكان ياغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد، من أشد بني عبدالواد بأسا وأعظمهم في النفوس مهابة واجلالا، وأعرفهم بمصالح قومه، وأقواهم. أشتهر بحصافة الرأي، وسداد التدابير، وقوة العزيمة. معظما عند الخاصة والعامة، يرجعون إليه في كل الأمور عندما تداهمهم النوازل والنوائب، والعوادي.

وكان ما يزال يافعا شابا عندما بويع بالامارة عام 1236م، بعد مقتل أخيه أبي عزه زكرار بن زيان بن ثابت. فاضطلع بالأمر في عزم وقوة، واخضع إلى سلطته كل الذين كانوا قد خرجوا عن طاعة أخيه. واحسن السيرة في الناس تدبيرا وسياسة، واعتنى بتنظيم قواته العسكرية، وتوفير الأسلحة والذخيرة لها حتى تستطيع القيام بواجبها الدفاعي على البلاد. واستحدث مجلسا وزاريا، وكتبة ليساعدوه على تسيير شؤون الامارة. وأتخذ لنفسه مظاهر الملك، وألغي سيطرة الموحدين الفعلية [illegible] يبق لهم سوى عادة الدعوة للخليفة الحسن السعيد المعتصم، على [illegible] الجمع والأعياد.

ومما يدل على مكانة ياغمراسن، [illegible] حالات الأندلس المشهورين إلى بلاطه بتلمسان. للاستقرار [illegible] الكاتب والشاعر البليغ أبو بكر بن خطاب الذي أصبح كاتبه [illegible] تحرير رسائله إلى كل الجهات خاصة تونس والمغرب [illegible] ابن خلدون بأن رسائله ذات شهرة في بلاط الامارات [illegible]

هكذا بدأ ياغمراسن عهده، وقد شق الطريق لدولته وسط الأشواك والحفر، ولم يكن الأمر سهلا وبسيطا كما كان يظن ويتوقع. لأن أوضاع المغرب العربي أنذاك كانت معقدة. ذلك أن دولة الموحدين دخلت في

الانهيار والزوال، وأصبح سقوطها مسألة وقت فقط، وفي نفس لمور الوقت برزت زعامة بني حفص بتونس، وزعامة بني مرين بالمغرب الأقصى، والكل يدعي لنفسه أحقية وراثة الموحدين. ووجد ياغمراسن الزياني نفسه وامارته بين شقي الرحا. فماذا يفعل وكيف يتصرف؟ أخذ بعد العدة للطواري، وكان الحفصيون أولى الأخطار التي واجهها. فقد سعى الخليفة الموحدي لتوثيق الصلة بياغمراسن، حتى يساعده ضد بني مرين الثائرين عليه، فاستشعر الأمير الحفصي أبو زكرياء يحي الأول خطورة هذه الصلة على امارته بتونس، فقام بغزو تلمسان عام 1242م ليؤدب ياغمراسن، الذي اضطر ان يعترف بالسيادة الحفصية حتى يحول دون انهيار امارته، ورضي أن يدفع لتونس مبالغ مالية سنوية. ومن هنا بدأت السيادة الحفصية على تلمسان وبني عبدالواد.

وعندما حاول الموحدون مواجهة هذا الوضع الجديد فشلوا، وانهزم جيشهم الذي قاده الخليفة الحسن السعيد في معركة تامزردكت قرب وجدة عام 1247م، وفي العام الموالي قتل الحسن السعد نفسه على يد بني عبدالواد الذين استولوا على كل أسلابه وذخائره ومن هذا التاريخ أصبح الخلاف شديدا بين بني مرين وبني زيان الذين يعتبرون تابعين للامارة الحفصية ببجاية. وقد ذكر ابن خلدون في هذا الصدد قوله: «كانت الدعوة الحفصية بافريقيا (يعني تونس) قد انقسمت بين أعياصهم في تونس وبجاية وعمالها وكان المتاخم بينها بلد عجيسة ووشتاته. وكان الخليفة بتونس للأمير أبو حفص بن زكرياء الأول منهم. وله الشفوف على صاحب بجايه والثغور الغربية بالحضرة. وفي عهده بايع بنو زيان وأصبحوا يدعون له على منابرهم باسمه. وكانت لهم مع الأمير أبي زكرياء الأوسط صاحب بجاية وصلة لمكان الصهر بينهم وبينه. ويعني بذلك المصاهرة التي تمت بين الأمير عثمان بن ياغمراسن، والأمير الحفصي صاحب بجاية الذي أعطى بنته إلى الأول على عهد ياغمراسن.

ورغم الوحشة التي حصلت عندما حاول الأمير عثمان أن يغزو بجاية، إلا أنه سرعان ما عادت المياه إلى مجاريها، واستمر بنو زيان تابعين للحفصيين إلى أن غزا السلطان المريني يوسف بن يعقوب تلمسان عام 1299م، وفرض عليها ذلك الحصار الطويل المشهور، وأسس مدينة المنصورة كمعسكر للجيش، فاستعان عندئذ عثمان بن ياغمراسن بأمير بجاية الحفصي الذي قدم نجدة كبيرة لبني عبدالواد التقت بالقوات المرينية في جبل الزاب وأوقعت بها هزيمة كبيرة في «معركة مرسى الرؤوس» لكثرة ما تساقط خلالها من رؤوس العباد.

وهذه الحادثة زادت في استحكام الخلاف والمنافسة بين يوسف المريني، وصاحب بجاية الحفصي أبي زكريا الأوسط الذي كان على خلاف مع صاحب عرش تونس الحفصي. ولذلك استغل أبو عصيدة بن الواثق الحفصي سلطان تونس الفرصة، وحاول أن يحكم صلاته بالسلطان المريني ويتعاون معه على إسقاط عرش تلمسان، فرد على ذلك الأمير عثمان بن ياغمراسن باسقاط الدعوة الحفصية من منابر تلمسان، وقطع حبل التبعية التي تربط عرش تلمسان بعرش تونس الحفصي. وبذلك ينتهي الدور الأول من تاريخ هذه الدولة، ويتلوه عهد السيطرة المرينية على تلمسان.

**ثانيا ــ دور الاستقلال عن الحفصيين والخضوع للمرينيين:**

تتمثل أحداث هذا الدور في محاولة بني مرين اخضاع تلمسان إليهم، وسعى وحرص أمراء بني عبدالواد على المحافظة على استقلالهم. ولقد كان قطع الدعوة الحفصية على منابر تلمسان خطوة أخرى في سبيل ابراز كيان دولة بني عبدالواد التي جاهد ياغمراسن طويلا من أجل تحقيقه. وجاء الأمير أبو حمو موسى بن عثمان (1308 ــ 1318م)، ليدعم هذا الكيان وهذه الشخصية المستقلة للامارة بما أوتيه من شخصية، وعزيمة، وإرادة قوية حددها ابن خلدون بقوله عنه: «وكان صارما، يقظا، حازما، داهية، قوي

الشكيمة، صعب العريكة، شرس الاخلاق، مفرط الدهاء والحدة، وهو أول ملوك زناتة الذي رتب مراسم الملك، وهذب قواعده، وأرهف في ذلك لأهل ملكه حده، وقلب لهم محن بأسه حتى ذلوا لعز ملكه وتأدبوا بآداب السلطان».

افتتح أبو حمو عهده بإبرام الصلح وتحقيق السلم مع أمراء بني مرين تأمينا لظهره. فأوفد كبراء وزرائه إلى السلطان أبي ثابت حيث أمضوا معا صلحا حسبما كان يريد، ثم اتجه إلى النواحي الشرقية من تلمسان، فأخضع بني توجين ومغراوة الثائرين، وقلم أظافر زعمائهم الذين كانوا على رأس هذه الحركات، أمثال محمد بن عطية الأصم في نواحي الونشريس، وراشد بن محمد في الشلف، وغزا بلاد الونشريس، وعين من قبله هناك ولاة أمثال مسامح، ويوسف بن حيون الهواري، ومد سيطرته بعد ذلك إلى متيجة، ومدينة الجزائر نفسها التي سلمها له أميرها ابن علان عام 1312م بعد أن استبد بها حوالي أربعة عشر عاما. فأخذه إلى تلمسان حتى توفي، ثم سيطر على مدينة دللس، وأسس مدينة أزفون على الساحل، ومد نفوذه إلى اقليم الزاب بالصحراء الشرقية وبذلك تقلص نفوذ الحفصيين على كثير من جهات الجزائر الشرقية، في حين توسع نفوذ بني عبدالواد.

وفي الوقت الذي كان أمراء بني عبدالواد يركزون نفوذهم، ويوسعون سيطرتهم إلى هذه الجهات، كان سلطان المغرب الأقصى أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبدالحق، يبيت الشر ويتأهب للعدوان ضد تلمسان، وفعلا قاد حملة عسكرية إليها عبر ممر تازة ووجدة. ونزل في ضواحيها ولكنه فشل في اقتحامها. واضطر إلى الانسحاب، فاهتبل أبو حمو هذه الفرصة وأخذ يصفي نفوذ المرينيين بالمغرب الأوسط، فقضى على امارة الثعالبة بمتيجة المشايعة لهم وطارد أمراءها إلى جهات كثيرة في حوض الشلف وقام ببناء قصره المعروف باسم: قصر عمي موسى، الذي تحول إلى قرية بهذا الاسم جنوب شرق واد رهيو. ولم يكتف بهذا فلاحق الثائر المغراوي راشد بن محمد إلى بلاد القبائل، وقام بتشييد قرية أقبو على

الضفة اليسرى لوادي الصومام والساحل، بين تارمالت وخاية على السفوح الشرقية لجبل أكفادو بجرجرة.

على أن أبا حمو سرعان ما تآمر عليه المقربون منه وعلى رأسهم ابنه أبو تاشفين بسبب صرامته وشدة بأسه، فقتلوه في حوالي 1318م وخلفه ابنه أبو تاشفين، وكان ذلك بداية للانقراض الأول لدولة بني عبدالواد. فقد عقد أبو تاشفين معاهدة صلح مع السلطان المريني أبي سعيد، ولكن سرعان ما [illegible] لأمر [illegible] تاشفين [illegible] اكتسح مزارعها وحقولها [illegible] المدن الساحلية [illegible] وهران، [illegible] 1337م، [illegible] الأقصى

[illegible]

## ثالثا — دور البعث الثاني للدولة، والتدخل المريني ضدها

يتمثل هذا الدور [illegible] في [illegible] دولة بني عبدالواد من جديد بعد اندثارها، وفي تكرر التدخل المريني ضدها فقد بقي المرينيون يسيطرون

على تلمسان منذ أن احتلوها عام 1337م. إلى ان نكب سلطانهم أبو الحسن قرب القيروان على يد عرب بني هلال وبني سليـم عام 1348م. بعد ان تخلى عنه معظم جيشه الذي حاول به ان يغزو تونس. فاغتنم بنو عبدالواد الفرصة وسعوا لأحياء دولتهم وبعثها من جديد، فبايعوا أبا سعيد عثمان بن عبدالرحمن ابن ياغمراسن، وتصالحوا مع المغراويين وبني توجين. ثم أسرعوا في السير إلى مدينة تلمسان واقتحموها في سبتمبر 1348م، وسلم لهم عامل المرينيين أبو فرار. وعين أبو سعيد عثمان، أخاه أبا ثابت مسؤولا على الشؤون العسكرية وأمور الحرب. ثم نهض لمقاومة الخصوم والمنشقين، وأعاد سيطرة بني عبدالواد على ندرومة ووهران، ومازونة، وتنس، والمدية، وعاصمة المغراويين مليانة، وبرشك، وشرشال، والجزائر ودللس، وجرت معارك طاحنة في حوض الشلف والونشريس ضد المغراويين الثائرين.

وقد استطاع أبو ثابت ان يلحق الهزيمة بالسلطان المريني أبي الحسن في مدينة الجزائر، بينما كان عائدا من تونس، وأرغمه على الانسحاب مخذولا إلى المغرب الأقصى ليواجه هناك صراعا وحربا ضد ابنه أبي عنان الطموح إلى الملك، والذي ثار عليه في غيابه واستحوذ على السلطة. وقد انتهى الأمر بقتله وسيطرة إبنه أبي عنان على العرش.

وكان أبو عنان هذا صاحب اطماع مثل أبيه في اقليم تلمسان، فأخذ يستعد لغزوها ولكن الأمير أبا سعيد استعد للأمر وسبق الحوادث فخرج بقواته إلى وجدة لملاقاة قوات بني مرين على أرض المغرب، وخاض الطرفان معركة «واد القصب» الكبيرة بسهل أنكاد في شهر جوان 1352م، وكانت الغلبة فيها لبني مرين الذين تمكنوا من أسر أمير تلمسان وقتله، واحتلال عاصمة بني عبدالواد، وتتبع فلول الهاربين منهم إلى مختلف المناطق. ولم يكتفوا بهذا فنقلوا ميدان الحرب والصراع إلى حوض الشلف وسهول متيجة. وعندما عجز أبو ثابت على مواجهتهم، انسحب إلى الوراء شرقا، وذهب متنكرا إلى مدينة الجزائر بصحبة عدد من أفراد بني عبدالواد على رأسهم ابن أخيه، أبو زيان محمد بن أبي سعيد، وموسى بن يوسف، ووزيرهم يحي بن داود.

ومن الجزائر اتجهوا إلى بجاية، فاعترضهم في الطريق بعض الناس، وسلبوا ما عندهم من أمتعة وزاد، ثم وقعوا في أيدي أنصار بني مرين الذين اقتادوهم إلى بجاية وسلموهم إلى الأمير المريني أبي عنان الذي كان يوجد هناك آنذاك، فاصطحبهم معه إلى تلمسان، ونفذ القتل في أبي ثابت على غرار أخيه، وبذلك اندثرت دولة بني عبدالواد للمرة الثانية وعادت إليها سلطة بني مرين مدة من الزمن، حتى أعاد الكرة أبو حمو موسى بن يوسف بن عبدالرحمن، وأحياها من جديد.

## رابعا ــ دور البعث الثالث لدولة بني عبدالواد الزيانية:

يتمثل هذا الدور الرابع لدولة بني عبدالواد، في محاولة طرد السيطرة المرينية وبعث الدولة من جديد، وقد دامت السيطرة المرينية على تلمسان سبع سنوات، إلى أن تمكن أبو حمو موسى الأخير (الثاني) من طردها عام 1359م. وكان والد أبي حمو هذا كما يقول ابن خلدون: متكاسلا عن طلب الظهور، ومتجافيا عن التهالك في طلب العز، جانحا إلى السكون ومذاهب أهل الخير، حتى إذا عصفت بدولتهم رياح بني مرين وتغلب السلطان أبو عنان عليهم وانتزع ما كان بيدهم من الملك، وخلص ابنه أبو حمو موسى مع عمه أبي ثابت إلى الشرق، وقذفت النوى، بيوسف مع أشراف قومه إلى المغرب، فاستقر به، ولما تقبض على أبي ثابت في وطن بجاية أغفل أمر أبي حمو من بينهم، ونبت عنه العيون فنجا إلى تونس، ونزل بها على الحاجب أبي محمد تافراكين، فاكرم نزله وأجله بمكان أعياص الملك من مجلس سلطانه، ووفر جرايته، وتظلم معه آخرين من جل قومه، وأوعز السلطان أبو عنان إليه ليسلمهم له فأبى ذلك ورفض اخلاف وعده وحمايته، وكان ذلك من الحوافز التي دفعت أبا عنان المريني للقيام بغزو تونس، ومنابذة العرب من رياح وسليم لعهده.

وقد اجتمع عرب الذواودة من رياح عام 1359م، وطلبوا من الحاجب ابن تافراكين أن يساعد أبا حمو موسى على استعادة عرش آبائه

بتلمسان، ووعدوه بأن يكون معه عرب زغبة في زحفه ويؤازروه ويظاهروه ليستعيد تلمسان، ويشغل أبا عنان عن محاولة غزو تونس. نصادف هذا العرض هوى لدى أمير زغبة، الصغير بن عامر، وجند نفسه وقومه، وسار مع أبي حمو عدد كبير من الأنصار والاحلاف عبر جبال عياض، والمسيلة، وزغبة، والزاب، وواد يسر، ومضيق وهران.

وفي الطريق علمت هذه الجموع بموت أبي عنان، فزادهم ذلك تحفزا وشدة عزم، فاغذوا السير نحو تلمسان واقتحموها في يوم 7 فيفري 1359م، وأعاد أبو حمو تجديد دولة أجداده وآبائه للمرة الثالثة على انقاض السلطة المرينية الراحلة، وأطلق عليها اسم «الدولة الزيانية» بعد أن كانت تسمى بامارة بني عبدالواد. وحاول أن يعيد لها شبابها وحيويتها، كما كانت في عهد ياغمراسن، ويمتاز هو بحبه للعلم والعلماء، وقول الشعر، وتأليف الكتب مثل كتاب: واسطة السلوك في سياسة الملوك.

ومن شعره القصيدة الطويلة التي أنشدها بعد عودته إلى تلمسان يحكى فيها ما عاناه من حياة التشرد، وما قاساه في سبيل استعادة عاصمة أجداده، واحياء دولتهم، ومطلعها:

جرت أدمعي بين الرسوم الطواسم    لما شطحتها من هبوب الرواكم
وقفت بها مستفهما بخطابها    وأي خطاب للصلاد الصلادم

ومنها:

وجبت الفيافي بلدة بعد بلدة    وطوعت فيها كل باغ وباغم
وجئت لأرض الزاب تذرف أدمعي    لتذكار أطلال الربوع الطواسم

أهتم أبو حمو بتدعيم سلطته وامارته، وبالقضاء على نفوذ بني مرين في كل أنحاء المغرب الأوسط، فافتك وهران منهم عام 1361م، ومدينة الجزائر في العام الموالي، وبلاد القبائل في العام الذي تلاه.

على أن بني مرين ما انفكوا يثيرون القلاقل ضده وضد امارته الزيانية فدفعوا أبا زيان ابن أبي سعيد للثورة ضد أبي حمو، فاتجه من المغرب إلى تلمسان، وتسبب في اثارة حروب ومعارك طاحنة كانت السبب في اضعاف الامارة وارهاق السكان في مشاكل، واثارة حروب أهلية بين الأميرين وانصارهما، اتخذهما القراصنة النصارى فرصة وذريعة للاغارة على موانئ البلاد الساحلية، واعتراض السفن الجزائرية والصديقة لها، ومن ضمنها سفينة اندلسية قادمة إلى تلمسان بهدايا وتحف أمير بني الأحمر، التي اعترضوها واستولوا عليها عام 1366م.

ولم تنته هذه الحوادث حتى جدد بنو مرين زحفهم على تلمسان مرة أخرى عام 1370م بزعامة السلطان أبي فارس عبدالعزيز، واحتلوها فاضطر أبو حمو أن يغادرها لمدة عامين مشردا إلى أن توفي أبو فارس في أكتوبر 1372م فعاد من جديد إلى عرشه، ولكن المرينيين أثاروا ضده ابنه أبا تاشفين الذي اعتقله وسجنه بوهران، ثم فر منها وحاول العودة إلى عرشه وخاض حربا ضد ابنه ذهب هو ضحيتها في معركة «بني وزنيد» قرب جبل بني راشد في نوفمبر 1389م، ولم يستقل أبو تاشفين بالأمر حتى نازعه أخوه أبو زيان حاكم مدينة الجزائر، ودارت رحى الحرب بينهما طويلا حول تلمسان، وفي أعماق الصحراء، انتهت بمقتل أبي تاشفين وقيام المنتصر المريني باحتلال تلمسان والمناطق الشرقية لها عام 1393م، فأزال الدولة الزيانية للمرة الثالثة، وعادت لعنة المرينيين من جديد على تلمسان وبني زيان.

## خامسا ـ دور التدخل الحفصي الثاني:

يتمثل هذا الدور الخامس من تاريخ الدولة الزيانية في بداية مرحلة الضعف، وعودة الحفصيين مرة أخرى إلى التدخل في شؤونها الداخلية بعد ضعف الامارة المرينية، وتداعي الأوضاع الداخلية للامارة الزيانية نفسها.

فلقد أشرنا إلى أن الدولة المرينية بعد ان اسقطت الامارة الزيانية للمرة الثالثة عام 1393م، أخذت تتلاعب بعرش تلمسان، وصارت تعزل ذا لتولي ذاك حسبما تمليها مصلحتها، وتغزو أحيانا مركز الامارة بجيوشها كما حدث عام 1401م، لتنصب ابن خولة أبا عبدآلله محمد مكان أخيه أبي محمد، وكما حدث عام 1411م. لتساعد أبا مالك عبدالواحد ضد أخيه السعيد.

ومما تجدر ملاحظته في هذه الفترة، هو تهالك أمراء بني زيان في الخلافات والخصومات والصراعات، بل والحروب، فيما بينهم أحيانا مما ساعد القوى الخارجية على الحاق الهزائم بهم وبإمارتهم، وأضعاف شأنهم وشأنها.

وفي الوقت الذي أخذت أخطار بني مرين تضعف وتقل على بني زيان من الغرب، برزت من جديد أخطار الحفصيين من الشرق الذين تجددت أطماعهم ضد تلمسان وامارتها [illegible] بالسيطرة عليها وضمها إلى مملكتهم الحفصية [illegible] أبو مالك الزياني على عرش تلمسان في [illegible] فاصلح أوضاع امارته الداخلية [illegible] فاستعاد من الحفصيين كل المناطق [illegible] شرق البلاد [illegible] وقضى على نفوذ المرينيين [illegible] على عرشها سلطانا جديدا [illegible] شديدة التأثير وضعت حدا نهائيا [illegible]

وكانت جهود [illegible] بمثابة انذار للحفصيين شرقا الذين توجسوا [illegible] عليهم، ولذلك أعد الملك الحفصي أبو فارس عزوز جيشا [illegible] من خمسين ألف محارب اتجه بهم إلى تلمسان، وعجز أبو مالك عن مواجهتهم لضخامة عددهم وعدتهم، وتمكن الأمير الحفصي من احتلال تلمسان عام 1424م. ونصب على عرشها محمد بن الحمرة الموالي له ليضمن حماية مؤخرته، ثم اتجه إلى فاس واخضع إليه الأمير المريني

قبل ان يصل إليها، وبعد ذلك عاد إلى تونس حيث وافته إلى هناك بيعة صاحب الأندلس، فأصبح بذلك يمتد نفوذه من تونس إلى الأندلس. أما أبو مالك فبعد مدة، أعلن خضوعه واستسلامه له فأعاده إلى عرشه بعد أن نكث محمد بن الحمرة عهده.

وبهذه الأحداث بدأ الحفصيون يتدخلون في شؤون تلمسان الداخلية مستغلين فرصة تناحر أمراء بني زيان فيما بينهم، وذلك بقصد الحاق هذه الامارة بالعرش الحفصي التونسي. ففي شهر جويلية 1463م غزا السلطان الحفصي أبو عمر عثمان تلمسان، وفرض سيطرته على كل المناطق التي مر بها، ولكن الأمير الزياني راسله قبل وصوله، وابرم معه صلحا جنب الامارة أهوال الحرب، وعاد الأمير الحفصي من الطريق إلى تونس عبر بجاية.

وعندما حاول الأمير الزياني أبو ثابت محمد الرابع ان يقاوم تسلط الحفصيين وأعلن قطع الدعوة لهم على منابر تلمسان، قاوموه وارغموه على الخضوع والاستسلام، لأن الامارة الزيانية كانت في حالة ضعف شديد لا تقوى على مواجهتهم.

## النكبة بالكاتب يحي بن خلدون:

ومن جملة الأحداث المؤلمة التي حصلت في هذه الفترة قيام الأمير الزياني أبي تاشفين بنكبة كاتب أبيه يحي بن خلدون شقيق المؤرخ الكبير عبدالرحمن بن خلدون، وقتله بصورة بشعة لا تفسير لها الا جهل هذا الأمير بقيمة رجال الفكر والثقافة، لقد كان يحي ابن خلدون كاتبا للأمير أبي حمو. وعندما قسم دولته بين ابنائه طلب منه ابنه أبو تاشفين ان يعينه على وهران التي كان يليها ابنه الآخر أبو زيان، فتظاهر له بالقبول، وطلب من كاتبه يحي بن خلدون، أن يتلكأ في كتابة العهد له، وكان موسى بن يخلف يغار من يحي بن خلدون ويحقد عليه حضوته لدى الأمير، فأوعز إلى أبي تاشفين بأنه هو الذي أمتنع عن كتابة ولاية العهد له على ولاية وهران، وذلك

لأبي زيان والي وهران الفعلي، فوجد أبو تاشفين علي يحي لذلك، مقدمة له مع بعض سفلة القوم ليلا عندما كان راجعا من القصر إلى منزله بعد صلاة التراويح في شهر رمضان عام 780هـ وطعنوه بالخناجر حتى سقط على دابته ميتا، وفي صبيحة اليوم الموالي وصل الخبر إلى السلطان فأخذ يبحث على الجناة، وعندما علم بمشاركة إبنه أبي تاشفين في الجريمة سكت عن الحادث، وأجاب على طلب أبي تاشفين وعينه واليا على وهران، ونقل ابنه الآخر أبا زيان إلى بلاد حصين والمدية، وهي فعلة شنيعة تعتبر من سيآت هذا الدور.

## سادسا ـ دور التدخل الاسباني وانقراض الدولة الزيانية:

ان الدور السادس والأخير من تاريخ الدولة الزيانية يتمثل في كثرة التدخلات الاسبانية في شؤونها الداخلية، والتلاعب باقدارها ومصيرها، ومحاولة الاحاطة بها من كل جانب تمهيدا لاحتوائها. كما يتمثل في بروز قوة الأتراك كطرف رابع في الصراع عليها إلى جانب بني حفص، وبني مرين والسعديين، والاسبان.

وكان الاسبان بعد ان قضوا على الحكم الاسلامي بالأندلس عام 1492م، قد وجهوا نشاطهم لغزو بلدان المغرب العربي، مبالغة في النكاية بالمسلمين، ومنع اللاجئين الأندلسيين من التفكير في العودة إلى وطنهم السليب، تماما كما تفعل اليوم اسرائيل ضد الفلسطينيين، ومحاولة منهم أيضا لاستعمار بلدان المغرب العربي من أجل استغلال امكانياته الاقتصادية، وموانيه الاستراتيجية من الناحية العسكرية. وقد واتتهم الفرص بسبب ضعف دول المغرب العربي، وتطاحنها فيما بينها من جهة، وفيما بين الأمراء الطموحين من جهة أخرى، حتى في داخل البلد الواحد. تماما كما حصل في المنطقة العربية بعد ظهور دويلة اسرائيل.

وكانت الدولة الزيانية في هذه الفترة قد وصلت إلى أقصى درجة من الضعف والانحلال، فأخذ الاسبان يحتلون موانيها وأطرافها تمهيدا لاحتوائها في النهاية وفق مخطط استعماري مدروس. فبعد أن وصل إلى تلمسان آخر أمراء بني الأحمر بغرناطة أبو عبدآلله محمد بن سعد الزغل، عبر وهران، بدأت التهديدات الاسبانية تظهر في الأفق ضد تلمسان، واضطر الأمير الزياني محمد السابع أن يذهب بنفسه إلى اسبانيا ليطمئن فيرياند الخامس، ويقدم له الهدايا استرضاء له.

وابتداء من عام 1503م، أصبح الخطر الاسباني على الجزائر حقيقة واقعة. فقد تنافس على عرش تلمسان الاخوان: أبو زيان الثالث المسعود، وأبو حمو الثالث بوقلمون، وتغلب الثاني [illegible] الأول وأدخله إلى السجن فاغتنم الاسبان فرصة هذه الاضطرابات [illegible] وأقدموا على احتلال المرسى الكبير عام 1505م، ثم [illegible] وأيدوا الأمير يحي بن الثابتي شقيق السلطان [illegible] الاستقلال بمدينة تنس وأحوازها عام 1506 [illegible] سياستهم حتى لا تقوم وحدة وطنية ضدهم. [illegible] كل تنس، في حدوث حروب طاحنة [illegible] سالت فيها الدماء، وقتل الجاني المذنب [illegible] الاسبان الذين ثبتوا أقدامهم في بعض [illegible] عام 1509م، ثم بجاية عام 1510م، والجزائر [illegible] ومستغانم عام 1511م، ودللس، وعنابة، وهنين عام 1531 [illegible] وأصبحت تلمسان بين فكي كماشة يحيط بها خطر الاسبان من كل جهة، وليس هناك نصير أو معين لها، في حين لا تملك هي القوة والعدة الكافية التي تساعدها على مواجهة هذه الأوضاع الخطيرة.

ولقد كان من المفروض في مثل هذه الظروف الصعبة، ان تتوحد القوى الداخلية للامارة، وتتكتل، وتتناسى الأحقاد والإحن، والنزاعات

الشخصية، ولكن الذي حصل هو العكس، فحدثت بتلمسان اضطرابات ضد أبي حمو الثالث، وتحزب ضده أنصار أخيه المسجون أبي زيان، واستنجدوا بعروج في الجزائر العاصمة الذي كان آنذاك في تنس يقوم بتصفية الحساب مع يحي الثابتي الموالي للاسبان. فلبى رغبتهم حتى يفوت على الاسبان فرصة الانقضاض على تلمسان، واتجه اليها عام 1517م، وأطلق سراح أبي زيان وأعاده إلى عرشه في حين فر أبو حمو إلى فاس ومنها إلى وهران حيث أمده الاسبان بقوات كبيرة، أعاد بها الكرة على تلمسان واستردها من عروج عام 1518م بمعاونة الاسبان الذين تمكنوا من قتل عروج وقتل أخيه اسحاق الذي كان يرابط في قلعة بني راشد.

على ان أبا حمو هذا لم ينعم طويلا بعرشه الذي استرده بالخيانة، إذ توفي في نفس العام، وخلفه أبو محمد عبدآلله الثاني، وسار على منوال سياسة سلفه في موالاة الاسبان، فثار عليه أخوه الأمير أبو سرحان المسعود بتأييد من خير الدين بالجزائر، وسيطر على تلمسان عام 1519م. ولكن أبا محمد سرعان ما استرد عرشه بتأييد من خير الدين أيضا بعد أن أعلن توبته من غيه وخيانته السابقة، ودفع ذلك أبا سرحان لممالأة الاسبان، غير انه سرعان ما عاد إلى خيانته التي جبل عليها، ولكن خيرالدين كان بالمرصاد له حتى توفي عام 1524م، فخلفه على عرش تلمسان محمد السابع، ولكنه انحاز إلى الاسبان ضد الأتراك، فثار السكان ضده وهزموه، ففر إلى وهران ليستنجد بالاسبان الذين كانوا ينتظرون مثل هذه الفرص لدفع الأخوان الأشقاء إلى التقاتل فيما بينهم لصالح توسعهم الصليبي. فأعدوا له حملة اسبانية من وهران احتلت تلمسان وفرضت عليه معاهدة اذلال تحتم عليه أن يدفع للاسبان ضريبة سنوية، ويساعد القوات الاسبانية على التوسع في مواني الجزائر بدعوى مقاومة الأتراك.

وقد أثارت هذه المعاهدة المذلة مشاعر شعب تلمسان خاصة وأن محمد السابع كان يتعاون مع بعض اليهود الذين جعلهم وسطاء بينه وبين

الاسبان في وهران ولذلك ثاروا ضده وبرز أخوه أبو زيان أحمد الثاني وانتزع منه العرش عام 1542م بتأييد ومساعدة من قوات البايلر باي حسن باشا ابن خير الدين الذي كان يرقب الأمور عن كثب. وهرب محمد السابع المعزول إلى وهران كعادته ليستنجد بالاسبان.

وقد أمدوه فعلا بقوات كبيرة اصطدم بها مع قوات أخيه في شعبة اللحم قرب عين تيموشنت في جانفي 1543م، ولكنه انهزم وانهزمت القوات الاسبانية الحليفة معه، وقتل كثير من جنودها، ولم ينج الباقي إلا بصعوبة وانسحب إلى وهران. وفي العام الموالي جدد الكرة مع القوات الاسبانية التي كانت تستهدف الانتقام من هزيمتها السابقة، وتمكن في هذه المرة من احتلال تلمسان عام 1544م، فعاثت القوات الاسبانية فيها فسادا، وأحدثت في مقدساتها وحرماتها نكرا وفجورا.

على أن سكان تلمسان لم يصبروا على هذا الامتهان فثاروا ضد الأمير الخائن وأرغموه على الفرار بتأييد ومساعدة قوات حسن باشا ابن خير الدين، في معركة الزيتون، وأغلقوا تلمسان في وجهه عندما حاول أن يعود إليها، ثم ظفروا به وقتلوه في احدى معارك [illegible] مدينة وجدة، وخلصوا من خياناته المتكررة، وعاد أبو زيان أحمد إلى مدينته ولكنه أظهر للاسبان ميله، ونتيجة لذلك عزله سكان المدينة وبايعوا [illegible] حسن الزياني، فهرب هو إلى وهران التي أصبحت ملجأ لكل المعزولين والطامعين من أسرة بني زيان.

ولم يتقاعس الاسبان عن نجدته لأن الصراع كان على أشده بينهم وبين سلطة الأتراك بالجزائر على الفوز بالسيطرة على عرش تلمسان فأمدوه بقوات اسبانية استرجع بها عرشه المتهالك المتداعي عام 1547، واعترف بتبعيته للاسبان الذين تعرضوا لهزيمة كبيرة أمام أسوار مستغانم في أوت من نفس العام عندما حاولوا احتلالها.

ومما زاد الأمور تعقيدا وسوءا، ظهور الدولة السعدية بالمغرب الأقصى ومحاولتها هي الأخرى التدخل في شؤون تلمسان بغية احتلالها، فأرسل الشريف محمد المهدي السعدي قوات عسكرية حاصرت تلمسان تسعة شهور كاملة اقتحمتها واحتلتها يوم 5 جوان 1550م، واحتلت مستغانم بعدها وأخذت تتقدم في اتجاه الجزائر العاصمة مما أكد نوايا السعديين العدوانية ضد السلطة التركية بالجزائر، ولذلك فان البا يلر باي حسن باشا ابن خير الدين الذي كان يستعد لمواجهة الاسبان بوهران، وجه قواته بزعامة حسان قورصو إلى الجيش المغربي، وألحق به الهزيمة في حوض الشلف، وأرغمه على الانسحاب إلى المغرب الأقصى، وبعد ذلك اتجه حسن باشا إلى تلمسان وعزل عن عرشها أبا زيان أحمد، وعوضه بالأمير الحسن بن عبدالله الزياني تحت اشراف الضابط التركي سفطه، وبقي في منصبه إلى أن عزله نهائيا، البا يلر باي صالح رايس عام 1554م، بسبب ميوله إلى الاسبان، وألحق تلمسان بالجزائر العاصمة مباشرة، وكان ذلك نهاية للدولة الزيانية التي عمرت ثلاثة قرون وثمانية عشر عاما.

وكان لابد من هذه النهاية لأن بقاء الدولة الزيانية كان يمثل مشكلة، وفي صالح التوسع الاسباني. والأتراك بالجزائر كانوا يسعون لتوحيد المغرب الأوسط كله تحت سلطة واحدة مركزية، حتى يستطيعوا مواجهة التوسع الاسباني الصليبي، الذي استدعوا منذ البداية من أجل وضع حد له ورده، وهو ما قاموا به خلال القرون التالية.

ولعل أهم نتيجة نستخلصها من تاريخ دولة بني عبدالواد الزيانية، هو أن الدول التي تهمل الاهتمام بتقوية وتدعيم جبهاتها الداخلية، تكون مصائرها دائما إلى الانهيار والزوال، وتصبح مهازل تاريخية واضحوكات للعصر، وللاجيال اللاحقة. وهذه الظاهرة ما تزال حتى اليوم تتجدد في كثير من القارات خاصة فيما يسمى بالعالم الثالث، ولقد اتعضت الجزائر الجديدة بتجارب تاريخها القاسية والمريرة، وأصبح اهتمامها بالبناء الداخلي،

والتشييد الحضاري في أوسع معانية، يمثل «نموذجا فريدا» وصفحة مشرقة أبهرت وتبهر العالم كله، لكونها تسعى بجد وإرادة صامدة لخلق مجتمع متطور وحضارة راقية، ثقافية، وزراعية، وصناعية، تواكب عصر التطور السريع، وهي اليوم، وفي عام 1995، مفخرة العالم الجديد، عالم الحرية والاستقلال السياسي والاقتصادي، في جو من اليقظة والتحفز، والسير بثقة إلى مستقبل زاهر سعيد.

وفيما يلي أسماء أمراء بني زيان:

أبو يحي ياغمراسن بن زيان 633هـ ــ 1236م.

أبو سعيد عثمان بن ياغمراسن 681هـ ــ 1283م.

أبو زيان محمد الأول بن عثمان 703هـ ــ 1304م.

أبو حمو موسى الأول بن عثمان 707هـ ــ 1308م.

أبو تاشفين عبدالرحمن الأول بن موسى 718هـ ــ 1318م.

أبو سعيد عثمان الثاني بن عبدالرحمن 749هـ ــ 1348م.

أبو ثابت بن عبدالرحمن 749هـ ــ 1348م.

أبو حمو موسى الثاني بن يوسف 760هـ ــ 1359م.

أبو زيان محمد الثاني بن عثمان 760هـ ــ 1359م.

أبو تاشفين عبدالرحمن الثاني 791هـ ــ 1389م.

أبو ثابت يوسف بن عبدالرحمن 795هـ ــ 1393م.

أبو الحجاج يوسف بن موسى 796هـ ــ 1394م.

أبو محمد عبدالله الأول بن موسى 801هـ ــ 1398م.

أبو عبدالله محمد الثالث 804هـ ــ 1401م.

عبدالرحمن الثالث 813هـ ــ 1411م.

السعيد بن أبي حمو موسى 814هـ ــ 1411م.

أبو مالك عبدالواحد بن موسى 814هـ ــ 1412م.

أبو عبدالله محمد الرابع 827هـ ــ 1424م.

أبو مالك عبدالواحد (مرة ثانية) 831هـ ــ 1428م.

أبو العباس أحمد المعتصم 734هـ — 1431م.
أبو ثابت محمد الخامس 866هـ — 1462م.
تاشفين بن أبي ثابت 890هـ — 1485م.
أبو ثابت محمد السادس 890هـ — 1485م.
أبو عبدآلله محمد السابع 902هـ — 1496م.
أبو حمو موسى الثالث 909هـ — 1503م.
أبو زيان أحمد الثاني 923هـ — 1517م.
أبو محمد عبدآلله الثاني 924هـ — 1518م.
أبو السرحان المسعود 925هـ — 1519م.
أبو محمد عبدآلله (مرة ثانية)
أبو عبدآلله محمد السابع 930هـ — 1524م.
أبو زيان أحمد الثالث 949هـ — 1542م.
أبو عبدآلله محمد السابع (مرة ثانية) 950هـ — 1544م.
أبو زيان أحمد الثالث (مرة ثانية) 950هـ — 1544م.
الحسن بن عبدآلله الثاني 957هـ — 1550م.

## بعض المراجع المعتمدة في هذا البحث


ـــ بوعزيز (يحي). الموجز في تاريخ الجزائر. (الجزائر، المطبوعات الجامعية 1965) ج1: ص 220.

ـ الجيلالي (عبدالرحمن بن محمد): تاريخ الجزائر العام (الجزائر ـــ 1955) ج2، ص 413.

ـــ الحفناوي (أبو القاسم محمد): تعريف الخلف برجال السلف. (الجزائر 1906)، ص 207.

ـــ ابن خلدون (عبدالرحمن): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. (القاهرة. مطبعة بولاق 1284هـ ـــ 1870م)، ج7، ص 464.

ـــ ابن خلدون (يحي): بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبدالواد (الجزائر 1322هـ).

ـــ ابن أبي دينار (أبو عبدآلله بن أبي القاسم): المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس. تحقيق وتعليق شمام (محمد)، (تونس 1387م)، طبعة ثالثة، ص 366.

ـــ الزركشي (أبو عبدآلله محمد بن ابراهيم): تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتعليق ماضور (محمد)، (تونس)، ص 189.

ـــ عبدالوهاب (حسن حسني): خلاصة تاريخ تونس طبعة ثالثة (تونس 1373هـ)، ص 188.

ـــ الغبريني (أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبدآلله): عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية (الجزائر 1328ـــ1910م)، ص 236.

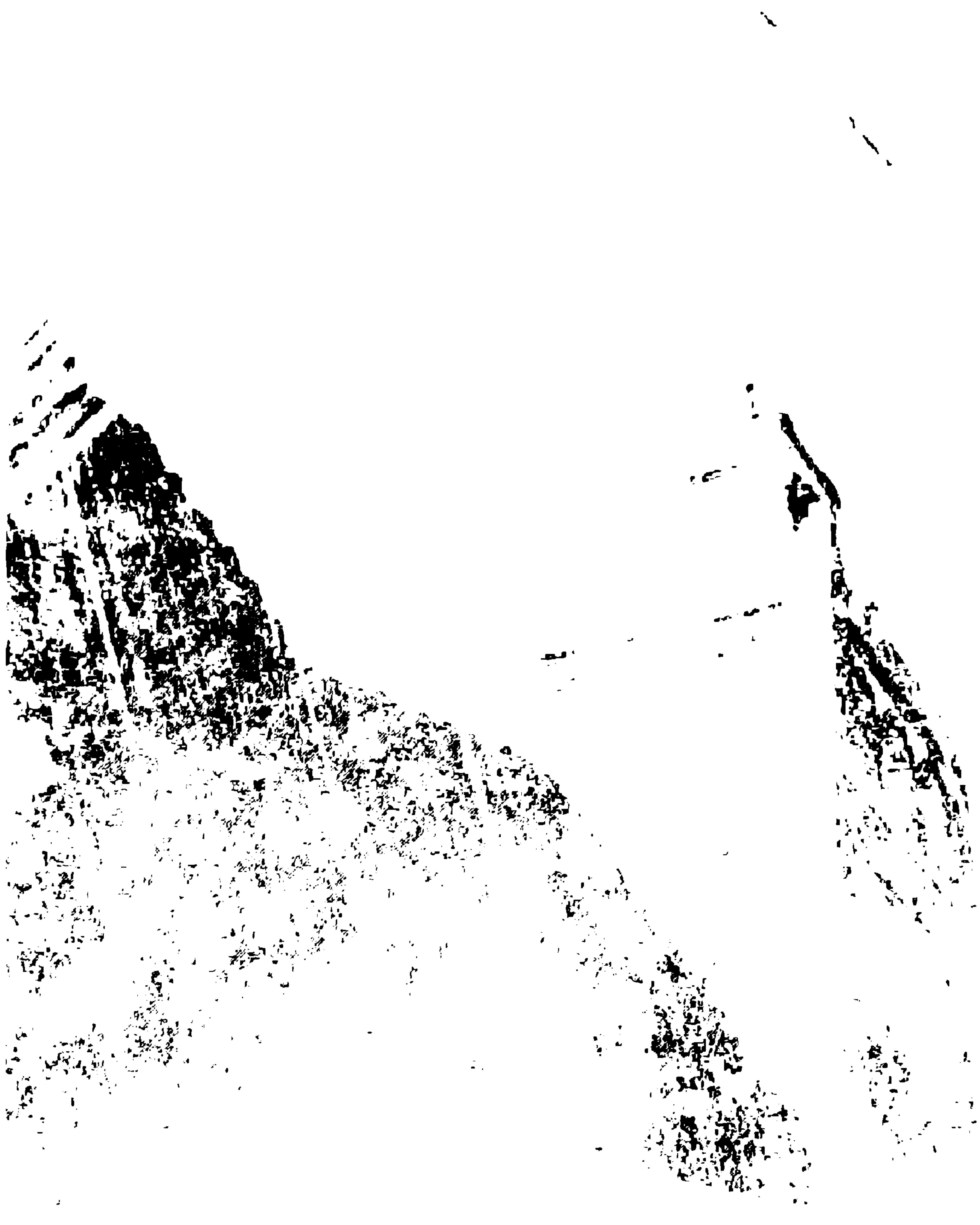
ـــ ابن القنفذ (أبو العباس أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب): الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية. تحقيق وتقديم النيفر (محمد الشاذلي) والتريكي (عبدالمجيد). (الدار التونسية للنشر 1968)، ص 355.

ـــ كتاب الذخيرة السنية في تاريخ الدولة الحفصية، تحقيق ابن شنب (محمد)، (الجزائر 1920م).

ـــ ابن مريم (أبو عبدآلله محمد بن أحمد): البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، (الجزائر 1326هـ ـــ 1908م)، ص 315.

ـ المدني (أحمد توفيق): أ ـ كتاب الجزائر طبعة جديدة (الجزائر 1962)، ص 382.
ب ـ حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492 ـ 1792. (الجزائر بدون تاريخ)، ص 533.
ـ الميلي (مبارك بن محمد الهلالي الميلي): تاريخ الجزائر في القديم والحديث. (الجزائر 1963 ـ 1964)، ج2 و 3، ص 403 ـ 333.

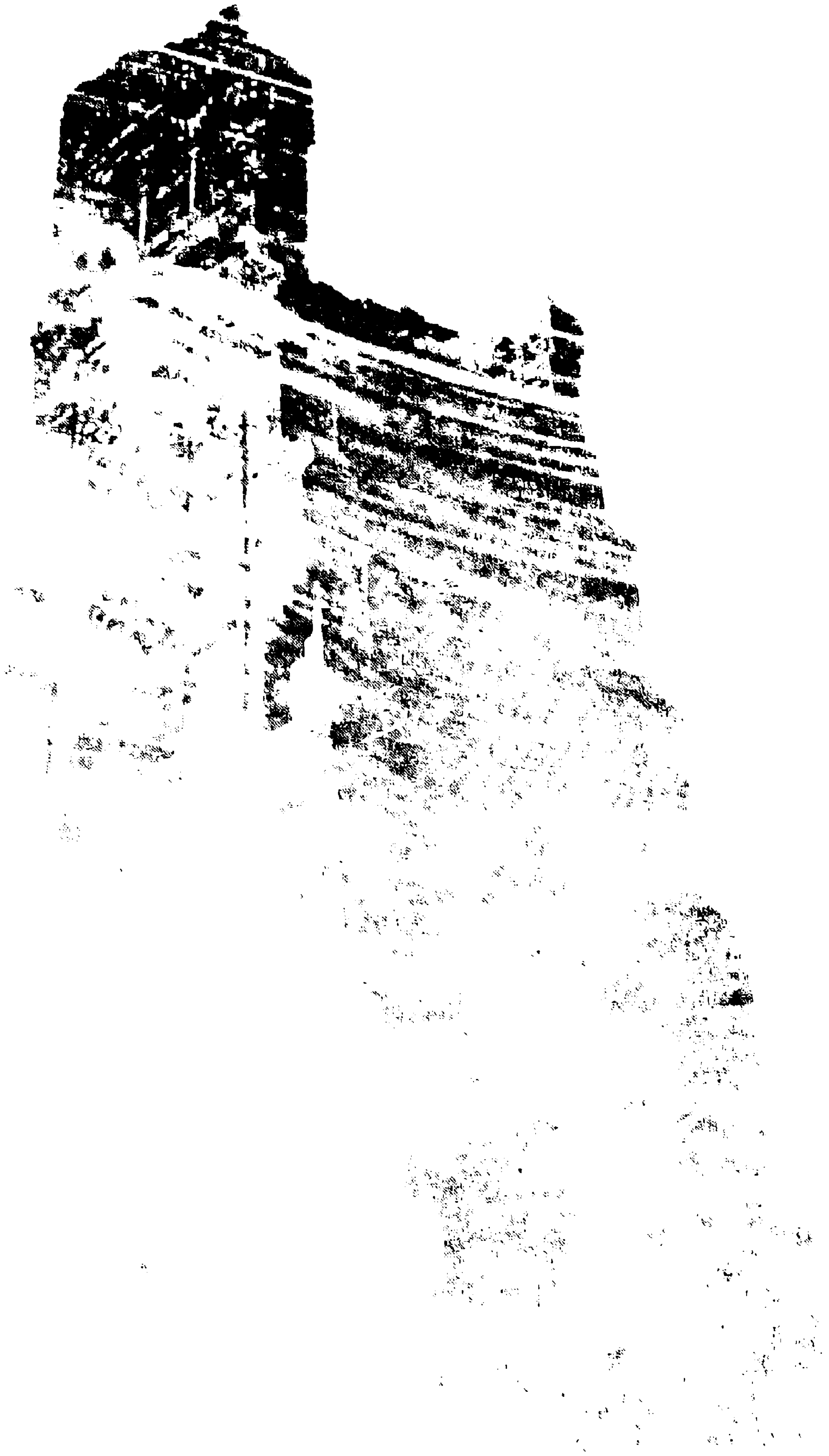
Boulifa (S.A): *le Djudjura à travers l'histoire.* Depuis l'antiquité jusqu'à 1830. (Alger 1925) p. 419.
- Garrot (Henri): *Histoire générale de l'Algérie.* (Alger 1910), p. 1189.
Grammont (H.D.De): *Histoire d'Alger sous la domination Turque 1515-1830.* Paris 1887), p. 420
- Lacost (Yver), Nouschi (A.) et Prenant (A): *L'Algérie passé et présent.* (Paris 1960), p. 426.



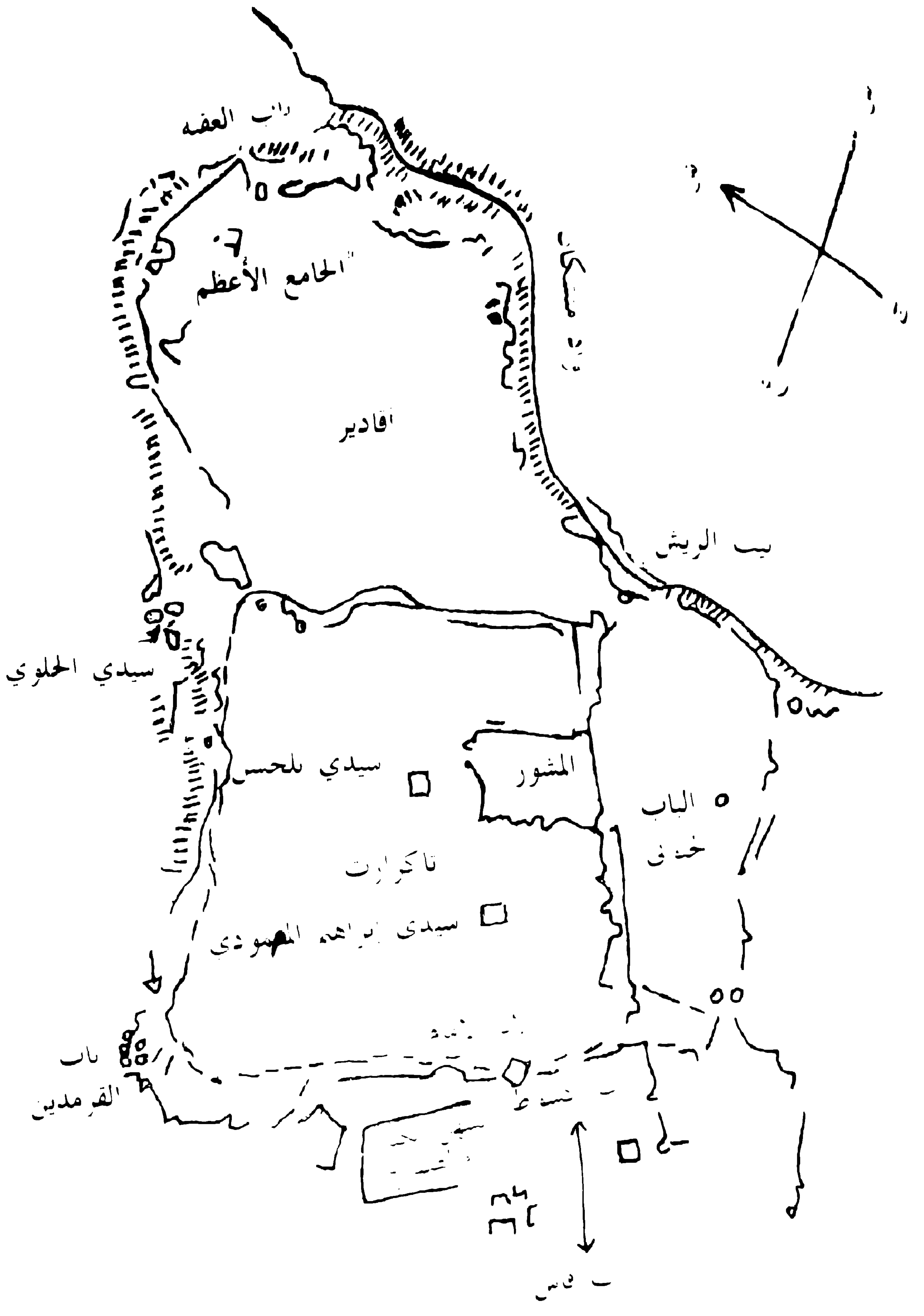
مسجد من عهد المرابطين في تلمسان



قاعة الصلاة بالمسجد الكبير في تلمسان



مئذنة جامع المنصورة من آثار بني مرين في تلمسان


باب العقبه
الجامع الأعظم
أقادير
باب الريش
سيدي الحلوي
سيدي بلحسن
المشور
الباب
تاكرارت
باب
القرمدين

# فهرس الخرائط والأشكال والصور
## الجزء الأول

# فهرس المحتوى



## الجزء الاول

### القسم الاول

### الجزائر القديمة



### العهد الفينيقي القرطاجني

القسم الثاني

## الجزائر العربية المسلمة

اجر طبعه على مطابع
ديوان المطبوعات الجامعية
الساحة المركزية . بن عكنون
الجزائر

# هذا الكتاب

**يبحث في تاريخ الجزائر القديمة والوسيطة:**

**أولا: الجزائر القديمة**

**يتناول المؤلف في هذا القسم العصور التاريخية القديمة التي شهدتها هذه المنطقة من شمال إفريقيا بدءا بلمحة وجيزة عن بدايات أولية لشبه حضارات عرفت بفترة ماقبل التاريخ، كالحضارة القفصية والوهرانية والعطرية لسواحل الأطلسي، ثم ينتقل إلى الفترات الحضارية البارزة مع وصول الفينيقيين وبروز حضارة قرطاجنة وتعاملها التجاري مع السكان الأصليين، ثم صراعاتها مع الرومان وحرق قرطاجنة ونهايتها.**
**ويركز المؤلف على الحضارة النوميدية والدور الذي لعبته الشخصيات التاريخية آنذاك مثل ماسينيسا ويوغرطة وحنيبعل غيرهم. واحتلال الوندال والبيزنطيين ونهاية الجميع بمجيئ الفتح العربي الإسلامي.**

**ثانيا: الجزائر الوسيطة**

**ويبحث المؤلف في هذا القسم بداية اتصال شمال إفريقيا بالإسلام وارتباطه بالحضارة العربية الإسلامية، وماهي أهم الفترات التاريخية التي مرت، والدويلات الإسلامية التي تعاقبت في هذه المنطقة عامة والجزائر خاصة، بدءا بالدولة الرستمية في تيهرت، وانتهاء بدولة عبد الواد الزيانية.**
**والميزة الأساسية لهذا القسم هي تركيز المؤلف على الجانب الحضاري وإبراز دور الشخصيات العلمية والثقافية التي عرفتها الجزائر خلال تعاقب الدويلات في هذه الحقبة.**

www.opu-dz.com

9789961010440

رقم النشر: 4071

400 دج